الاغتراب في شعر المتنبي

إعداد

بلال محمود يعقوب صالح

المشرف

الأستاذ الدكتور/محمد إبراهيم حوّر

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في
اللغة العربية وآدابها

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا
الجامعة الهاشمية

أيار /٢٠٠٤

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٧/٥/٢٠٠٤

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حوّر، رئيساً	....
الأستاذ الدكتور زياد صالح الزعبي، عضواً	....
أستاذ مشارك الدكتور صالح علي الشتيوي،عضواً	....
أستاذ مساعد الدكتور جمال محمد مقابلة، عضواً	....

الإهداء

إلى روح والدي التي قضت مغتربةً عن أوطانها

وإلى الصدر الذي حنا عليّ ضغيراً وما زال إلى أمي

وإلى سكني وراحتي زوجي

وإلى نسيج روحي أبنائي حسام... ورغد.. وحنان

وإلىإخواني وأحبتي

عرفاناً لهم بالجميل

بلال السفارينيي

الشكر والتقدير

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أستاذي الدكتور محمد إبراهيم حوّر على ما أبداه لي من ملاحظات قيمة وجهد من خلال متابعته وإشرافه على رسالتي هذه آملاً من المولى عزّ وجل أن يديمه سنداً لكل طالب علم

كما أود أن أشكر كل من قام بمساعدتي لإتمام هذا البحث في صورته النهائية الزملاء.. علي أيوب، ويوسف أبو صعيليك، ورامي جاسر، ورجاء البجة

كما أشكر مدير مدرستي الأستاذ فتحي منصور على ما قام به من تقديم المساعدة.

الباحـــث

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
لجنة المناقشة.....	ب
الإهداء.....	ج
الشكر.....	د
قائمة المحتويات.....	هـ
الملخص.....	ح
المقدمة.....	١
الدراسات السابقة.....	٣
تمهيد.....	٦
الفصل الأول:عذابات المتنبي في اغترابه	٢٢
أ.عذابات النسب	٢٦
ب.عذابات السجن	٢٩
ج.عذابات الموت	٣٢
د.خيبة أمله في الناس وقلة المعين	٤٣
هـ.إخفاقه في طلب الولاية والملك	٦٥
الفصل الثاني: تضخم الذات في ميزان النقد	٧٩
١.تمرد الذات على الشاعر المداح	٨٠
٢.موقف بعض النقاد القدامى والمدحثين من شخصيته وشعره	٨٧

أ.جنون عظمة أم مبالغات فنية ٨٧

ب.مقدمات المتنبي تعكس نفسيته ٩٥

ج.تمرده على وحدة البيت ٩٦

د.الغلو في شعره ٩٨

هـ.التصغير وعلاقته بالاغتراب ١٠٣

و.استخدام ذا الإشارية تحمل بعداً استعلائياً ١٠٦

ز.اغتراب الكلمة من خلال انفتاح دلالتها ١٠٩

الفصل الثالث:اغتراب الذات بين ضمير المخاطب وضمير الأنا ١٢١

١.ضمير المتكلم في مدائح كافور(الاحتمالات والدلالات) ١٢٢

٢.المتنبي وتحول المثال ١٣٩

٣.الأنا في شعر المتنبي ١٤٣

أ.تواضع الحياة وعظمة الذات ١٤٥

ب.نفسية الشاعر وانعكاسها على الضمير ١٥١

ج.ضمير الأنا في السيفيات ١٥٣

د.الضمير (نحن) بين الانتماء والاستعلاء ١٥٦

هـ.علاقة ضمير "الأنا" مع الآخر ١٦٦

المصادر والمراجع..... ١٧٩

المخلص باللغة الإنجليزية..... ١٨٦

ملخص

الاغتراب في شعر المتنبي

إعداد بلال محمود يعقوب صالح

المشرف

الدكتور محمد إبراهيم حور

تناولت هذه الدراسة الاغتراب في شعر المتنبي، هادفة إلى إظهار أثر هذا الاغتراب على نفسية الشاعر في بناء قصيدته، وميزت بين الغربة (مكانية) والاغتراب (نفسي)، وطوعت مفهوم الاغتراب عند الفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع كأداةٍ لبناء هذه الدراسة وقد جاءت في ثلاثة فصول هي: فصل العذابات التي واجهها المتنبي، وفصل تضخم الذات في ميزان النقد وانعكاسها على الحركة النقدية، وفصل حول استخدامه الضمير والتقنع خلفه من خلال انفتاح دلالته.

ومن خلال هذه الدراسة تبين لي أن الاغتراب في شعر المتنبي يحمل بعداً فكرياً، وأن المكان لا يشغله بمقدار ما يشغله تحقيق فكرته، وأن المصائب لم تثنه عن عزمه وظل مستعلياً ولم يصدر إلا عن ذاته، رافضاً أن يقف موقف الشاعر المداح، بل كانت تستغرق صورته القصيدة مخلفاً الممدوح وراءه، وبقي منتمياً إلى مثاله سيف الدولة على الرغم من خلافه معه ورحيله عنه، لذلك جاء الضمير عنده غائماً في كلٍّ من الكافوريات والفارسيات؛ مما أوجد إشكالية في تفسير شعر هذه المرحلة، وبلغت نسبة ضمير الأنا في ديوانه ٦٠%، كان أدناها مرحلة السيفيات٤٠% والكافوريات ٨٥% بالنسبة إلى عدد أبيات المرحلتين، مع اختلاف دلالة كل مرحلة، فالأولى حملت معاني الحب والانتماء، والثانية معاني الحزن والغضب والثورة،

بيـــنما شكل الضمير " نحن" ارتفاعاً في السيفيات (١٨٢) مرة حاملاً دلالة الانتماء والذوبان في المجمـــوع وتدنـــياً فـــي الكافوريات (٦١) مرة حاملاً دلالة الاستعلاء والتضاد وجاء في مرحلة الفارسيات ببعديه الفردي والجمعي يحمل دلالة اليأس والاستكانة والرضى بالأمر الواقع.

وتوصـــلت هـــذه الدراســـة إلى توصيات منها أولاً دراسة الضمير في شعر المتنبي من خلال انفتاح دلالته يؤدي إلى كشف كثير من القضايا العالقة حول شخصية المتنبي وشعره، ثانياً دراسة التورية في شعر المتنبي واستخدامه أسلوب المدح الذي ينقلب إلى هجاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسولنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعـــد: يظـــلّ الشـــاعر العظـــيم مثالاً للشعراء من بعده، ويظلّ الأكثر عرضة لدراسة الدارسين، ونقد النقاد، والشعر الخالد هو ذلك الشعر الذي يبقى يتفاعل على امتداد العصور نبضاً حيّاً يملأ السمع والقلوب.

قمّة الهرم لا يتسنمها إلاّ واحد في كل مجالٍ، وقد اعتلاها في الشعر العربي أبو الطيب المتنبـــي، ومـــا زال يشغل الناس بفنّه وشخصه، والناس فيه مختلفون على المستويين الشخصي والفنـــي، لأن نمـــط حياته يلفّه الغموض، وتقلُّب مزاجه يثير الشكوك، فقد كان ينتقل بين البلاد ويحظـــى من حكّامها بكلّ تكرمةٍ على الرغم من خلافهم مع البلد الذي كان يصدر عنه، وبذلك يكـــون المتنبـــي قـــد أعلن عن اغترابه على مستوى الفعل والكلمة، ليكون ذاته بجميع أبعادها، وبكـــبريائها، هذا الكبرياء الذي صُفِّي جسديّاً، وبعد ذلك حاول النقاد أن يصادروه على مستوى الكلمة، فدارت ألسنتهم حول شعره، وشخصه؛ لِتُتِمَّ ما أراد أصحاب السلطان والنفوذ. وامتدّ هذا الصـــراع حولـــه إلى عصرنا بين منتصر له، وحاقد عليه. وربما هو الذي أراد مثل هذا بسبب استعلائه على الناس جميعاً.

واغتراب المتنبي كان من أجل تحقيق ذاته وفكره الذي يؤمن به، وكان في مسيرة حياته أمـــور قد أثّرت في اغترابه، وسببت له عذابات كان يحاول أن يتخطاها فعقدت لهذه العذابات فصلاً تضمن: عذابات النسب، والسجن، والموت، وعذاباته مع الناس، وإخفاقه في الوصول إلى الملك.

وبما أن شخص المتنبي مستعلٍ، ومعتدٌّ بنفسه إلى درجة أنه وُصِمَ بالجنون فقد أوجد له أعـداءً يحـاولون طمسـه، وإخراجه من دائرة الشعر، فعقدت فصلاً حول اعتداده بنفسه على المسـتوى الشخصـي والفني، وآراء النقاد من قدامى ومحدثين حوله. وكيف حاول بعض النقاد محاكمـة الشـاعر مـن خلال مبالغاته الشعرية، والتي تعد ركيزة من ركائز العمل الإبداعي. واستخدامه التصغير، وذا الإشارية وتكرار بعض الألفاظ.

ورأيـت أن هناك علاقة بين اغترابه واستعلائه، وأنه ما كان يعبأ لقول ناقدٍ، بمقدار ما كان يستخدم اللفظ الذي يوافق ذاته، حتى عندما انتقد ابن جني عليه استخدام" ذا" بقي يستخدمها لأنها توافق ذاته المستعلية، وكذلك استخدامه التصغير.

أمـا الفصل الثالث فقد عقدته حول استخدام المتنبي الضمير ببعديه المتكلم والمخاطب، وقمـت بدراسـة إحصـائية لضـمير المتكلم في شعر المتنبي، ودلالة هذا الضمير في مراحله المخـتلفة. وكذلك كان لي وجهة نظر في انفتاح دلالة ضمير المخاطب، حيث كان له أكثر من تفسـيرٍ أو تأويلٍ، ووجدت من مشروعية هذا التفسير أن المتنبي بقي ملتزماً بشعره، ومتّجهاً به إلـى سيف الدولة الحمداني، الذي رأى فيه المثال الذي لم يتحول عنه، وبقي مشدوداً إليه حتى آخر لحظة في حياته لأنه رأى فيه المثال الذي يشكل جانب القوة العسكرية، إضافة إلى الجانب الفكري الذي حاول أن يجده عند بدر بن عمار وغيره ممن مدحهم فأخفق، واغترب عنهم معلناً الرحيل بجسده وفكره، بينما ارتحل عن سيف الدولة بجسده، وبقي منتمياً إليه بفكره، واتصل مع الآخرين بجسده وبقي مغترباً عنهم بفكره، حيث تولد من هذا التناقض الضدي علاقات متناقضة على مستوى الخطاب الفني أحدثت إشكالية في فهمه.

الدراسات السابقة

كثرت الدراسات حول المتنبي وشعره، فقد ملأ الدنيا وشغل الناس ومن أقدم الكتب التي تناولت حياته وشعره كتاب الثعالبي "يتيمة الدهر"، وقد كثر الخِلاف فيه بين معارضٍ له ومناصر، وهناك من حاول أن يقف منه موقف الحَكَم العَدْل كالقاضي الجرجاني في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وامتد الخِلاف فيه إلى عصرنا الحديث وكان من أشهر هذه الكتب: كتاب طه حسين "مع المتنبي"، وكتاب محمود شاكر "المتنبي"، وجاءت بقية الكتب في معظمها تدور حول هذين الكتابين.

ومن بين هذه الدراسات لم أعثر على من درس الاغتراب في شعر المتنبي إلاّ مقالة كتبها محمد شرارة في شعر المتنبي في كتابه "المتنبي بين البطولة والاغتراب"، ولم تفِ الموضوع حقه، وبينما كنت أجري بحثي في موضوع الاغتراب، طالعتني إحدى دور النشر بدراسة قام بها صالح الزامل تحت عنوان تحوّل المثال- دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي/٢٠٠٣ .

وقد رأى الكاتب أن المتنبي كان يبحث عن مثال لنموذج صنعه؛ فاغترب في رحلة للبحث عنه، ولكنه بقي عصياً على التجسُّد، لذلك بقي الشاعر ممتلئاً بذاته، وبقي يرسم لممدوحه صورة إعجازية مفارقة للواقع، إلى أن وجد مثاله في سيف الدولة، ثم انكفأ عنه لأنه حاول أن يضغط على حريته، غير أنه بقي مشدوداً إلى مثال غائب، ومدينة فاضلة يواجه بها كل مدن الرحيل.

ومن هنا كان خلافي معه وفق رؤيةٍ مغايرة لرؤيته؛ إذ بقي المتنبي مشدوداً إلى مثاله سيف الدولة حتى آخر لحظة في حياته، ويتضح هذا لدي من خلال شعره، وأنّ صدوره عن سيف الدولة كان لغايةٍ قد عزما عليها، ولم يعلنا عنها وهي إقامة دولة تمتد بنفوذها على بلاد

المشرق وقد كان لسيف الدولة مثل هذه المحاولات حيث انتزع حلب من الإخشيد وحاول انتزاع دمشـــق منهم وكان لعشيرته وقائع مع بني بويه، وبقي المتنبي وفيّاً لهذه القضية التي كان ساعيّاً إلى تحقيقها على أرض الواقع لذلك ارتحل إلى مصر، وبلاد فارس.

وقد أفدت في دراستي للضمير من كتاب "المتنبي قراءة أخرى" لمحمد فتوح حيث فتح أمامي آفاقاً جديدة في إقامة العلاقات بين الضمير والأشياء.

كما أفدت من كتاب "العوامل السياسية في شعر أبي الطيب المتنبي" لعصام السيوفي إذ وجَّه نظري إلى قضية العقد السري الذي بين الشاعر والأمير الحمداني، وانكشاف أمره في بلاد فـــارس، وبعد ذلك مقتله بطريقة نظَّمها عضد الدولة وأعوانُه حتى يظهر بمظهر البريء من دم المتنبـــي، وقد وردت إشارات لهذا التعاون في ديوان المتنبي عندما أرسل سيف الدولة إليه ابنه ومعـــه رسالة يسترضيه فيها، وقد نبّه إلى أهمية هذه المقدمات ودراستها محمود شاكر في كتابه المتنبي لما تحمل من دلالات تاريخية.

وأفـــدت من كتاب إحسان عباس "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" في الفصل الذي عقده عن المتنبي والمعركة النقدية التي دارت حوله، ومن كتاب عدنان عبيدات في كتابه "الاتجاهات الـــنقدية عند شراح ديوان أبي الطيب المتنبي القدماء"، كونها علاقة اغتراب، حيث وقفت أدوات النقد القديم عاجزة أمامها، لأن المتنبي استطاع أن يتجاوزها.

أما نورة الشملان في كتابها "المتنبي الإنسان والشاعر" فقد نبهتني إلى قضية الحكم على الشاعر من خلال شعره، حين صادرت حق الشاعر في استخدام أدواته الفنية والتي من أبسطها استخدام المبالغات الفنية، والتي تأخذ مظهراً اغترابياً أكثر من كونه مرضاً نفسياً.

وربمـــا كانـــت هذه الدراسات من أكثر الدراسات لصوقاً بمادة البحث الذي أجريته في حدود معرفتي، أما الكتب التي تحدثت عن المتنبي وشعره فهي من الكثرة بمكان، إذ ربت على

ألفين ما بين مصدر ومرجع ودراسة كما يقول كل من كوركيس وميخائيل عوّاد في كتابهما رائد الدراسة عن المتنبي.

واعـــتمدت ديـــوان المتنبي بشرح الواحدي مرجعاً في هذه الدراسة؛ لأنه يرتب قصائد الديوان وفق الترتيب الزمني لها؛ مما يخدم دراستي أكثر من سواه من الدواوين المشروحة وفق الترتيب الهجائي.

تمهيد

الاغتراب عند اللغويين

يحمل لفظ الاغتراب معنى الغربة، والنزوح عن الأوطان، كما جاء في اللسان، والغُربُ الذهاب والتنحي عن الناس، والتغريب النفي عن البلد[١].

والاغتراب كما جاء في اللسان له بعدان: الأول اغتراب قسري، والثاني اغتراب طوعي، كما جاء أيضاً فيه: أن الغريب: الغامض من المعاني، وأغرب الرجل في منطقه إذا لم يبق شيئاً إلا تكلم.

نظرة الفقهاء المسلمين إلى الاغتراب (ابن القيّم الجوزية)

ميز ابن القيّم الجوزية ثلاثة أنواع من الغربة، وهي: غربة أهل الله وأهل السنة بين هذا الخلق، وهي التي مدحها الرسول -صلى الله عليه وسلم - وغربة أهل الباطل، وهي مذمومة وإن كثر أهلها فهم يعرفون في أهل الأرض ويخفون في أهل السماء، والثالثة: غربة مشتركة لا تحمد ولا تذم، وهي الغربة عن الوطن، والناس كلهم غرباء في هذه الدار[٢].

والاغتراب عنده أمر يشار به إلى الانفراد على الأكفاء، وهو أن كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه فإنه غريب بينهم لعدم مشاركته أو قلته، وهو على ثلاث درجات، الدرجة الأولى: الغريب عن الأوطان، وهذا الغريب موته شهادة، وتكون غربته إما بالجسم، وإما بالقصد والحال، وإما بهما، فهو غريب جسمٍ، أو غريب قلبٍ وإرادةٍ وحالٍ، أو غريب بالاعتبارين معاً، والدرجة الثانية: غربة الحال، وهذا من الغرباء الذين طوبى لهم، وهو رجل صالح في زمان فاسد بين فاسدين، والدرجة الثالثة: غربة الهمة؛ وهي غربة طلب الحق، وهي

---

(١)ابن منظور- لسان العرب، ج١ ، ص٦٣٧.

(٢)ابن قيم الجوزية - الغربة و الاغتراب، ص٧-١٠.

غــربة العارف، لأن العارف في شاهده غريب، فغربة العارف غربة الغربة، لأنه غريب الدنيا والآخرة، وهذه الدرجة أعلى مما قبلها، لأن الغربة الأولى غربة بالأبدان، والثانية غربة بالأفعال والأحوال، وهذه الثالثة غربة بالهمم، فإن همَّة العارف حائمة حول معروفه، فهو غريب في أبناء الآخرة، فضلاً عن أبناء الدنيا، كما أنَّ طالب الآخرة غريب في أبناء الدنيا[١].

والغــربة أن يكــون الإنســان بين أبناء جنسه غريباً مع أنَّ له نسبة فيهم، وأما غربة الغــربة أو المعــرفة، فلا يبقى معها نسبة بينه وبين أبناء جنسه إلا بوجهٍ بعيد، لأنه في شأن، والناس في شأن آخر، فغربته غربة الغربة[٢].

وعلــى ما يبدو فإن ابن قيِّم الجوزية، في حديثه عن الغربة و الاغتراب، يعمق البعد النفســي في حديثه عن الاغتراب، ويحمله بعداً دينياً، أو كأنه تعميق لفكرة غربة أهل الله، بينما نجده في حديثه عن الغربة يعطيها بعد الحق والباطل من منظور ديني، وبعداً مكانياً من منظور دنيوي.

نظرة أدباء المسلمين إلى الاغتراب(التوحيدي)

نجــد أن التوحــيدي قد تعمقت عنده فكرة الاغتراب ببعدها المأساوي، فغربة الغريب الــذي نأى عن وطنه، أهون عنده من غربة الغريب في وطنه:" فأين أنت عن غريب قد طالت غــربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت عن غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ولا طاقه به على الاستيطان "[٣].

---

(١)ابن قيم الجوزية- مرجع سابق، ص١١-١٣.

(٢)المصدر نفسه، ص١٥

(٣)أبو حيان التوحيدي- الإشارات الإلهية، ص١١٣.

وتكون عنده الغربة أشد وطأة إذا كان الغريب غريباً في غربته :" بل الغريب من هو في غربته غريب" والغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة "[١].

ويصف حال المتنبي إذ يقول:

بِمَ التَعَلُّلُ لا أَهلٌ وَلا وَطَنٌ وَلا نَديمٌ وَلا كَأسٌ وَلا سَكَنُ

هــذا وصف رجل لحقته الغربة، فتمنى أهلاً يأنس بهم، ووطناً يأوي إليه، ونديماً يحل عقدة سرّه معه، وكأساً ينتشي بها، وسكناً يتوادع عنده، هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه، ولم يتزحزح عن مهب أنفاسه، وأغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البعداء من كان بعيداً عن محلٍّ قربه[٢].

ونظرة التوحيدي للاغتراب أكثر التصاقاً منها بالغربة النفسية منها بالغربة المكانية.

نظرة الفلاسفة وعلماء النفس للاغتراب

يراه هيجل في صميم بنية الحياة الكُلِيَّة، ويراه ماركس في حالات اغتراب الإنسان عن عمله، وعن زملائه، بينما يراه الوجوديون في البعد عن الوجود العميق بحيث لا يكون الإنسان ذاتــه وإنمــا مجرد صفر على الشمال في الوجود الجمعي للجماهير، أو مجرد ترس* في نظام صناعي[٣].

ويعترض والتركاوفمان على ماركس إذ جعله يقتصر على الظروف الهدامة فقط، ومع ذلــك لــن يكــون هناك غناءٌ في تقييد معنى المصطلح ليقتصر على الاغتراب المثمر، ذلك أن

---

(١)أبو حيان التوحيدي- الإشارات الإلهية، ص١١٣.

(٢)المصدر نفسه، ص١١٤. *المقصود بالترس هو العجلة المسننة التي تشتبك بالعجلات الأخرى لتشغيل الآلة

(٣)جون ماكوري- الوجودية، ص٢٩٤- ٢٩٥.

*والتر كاوفمان كتب مقدمة كتاب الاغتراب لشاخت تحت عنوان تصدير "حتمية الاغتراب".

الاغتراب عنده ليس مرضاً، كما أنّه ليس نفحة علوية، ولكنه شئنا أم أبينا سمة جوهرية للوجود الإنساني[١]

ويقول والتركاوفمان إن الغربة عن الطبيعة، والمجتمع، ورفاق المرء، وذاته، هي جزء من تصاعده في معراج النمو، ذلك أنّ على المرء أن ينزع ذاته من رحم البيئة لكي يصبح شخصاً فرداً وكياناً مستقلاً، والوعي بالذات يتضمن مثل هذا الانتزاع، ويتعين على المرء أن ينظر إلى نفسه وإلى الآخرين ككيانات غريبة ومُحيِّرة[٢].

والفرق بين نظرة هيجل وماركس للاغتراب، أن هيجل نظر إليه باعتباره نبض حياة الروح ، بينما أراد ماركس أن يتخلص منه[٣].

ويتابع كاوفمان : " إن كل من يحاول حماية الشباب من الاغتراب إنما يعلن يأسه من الإنسان ، ويقول بدلاً من ذلك إن الحياة دون اغتراب ليست جديرة بأن نحياها ، وأن ما يهم هو زيادة طاقة الإنسان على معالجة الاغتراب "[٤].

وينظر إريك فروم إلى الاغتراب كما لو أنه ظاهرة واحدة، ولكنه يستخدم بعدة طرق إلى حدٍّ يصعب من خلاله تصور هذه الظاهرة، بل إنه عندما يشعر بأنّ شيئاً ليس كما ينبغي فإنه يصفه من خلال الاغتراب (الحب، والفكر، والأمل، والعمل، واللغة، وعلاقة الإنسان بالعالم، والثقافة المعاصرة، والمجتمع، وعمليتي الاستهلاك والإنتاج) وعنده أن علاقة الإنسان بالطبيعة

---

(١)ريتشارد شاخت- الاغتراب، ص١٤.

(٢)المرجع نفسه، ص٣٥.

(٣)نفسه، ص٤٢.

(٤)نفسه، ص٤٣.

علاقــة اغتــراب وتجاوز، فالإنسان يخترع أدواته ليسيطرعلىالطبيعة، وهو بذلك ينفصل بذاته عنها أكثر وأكثر[١].

وبما أن الشاعر يتعامل مع عالمه بوساطة اللغة فإنه ينشيء علاقات جديدة بين مفرداتها وتــراكيبها كي يعطي صورة توضح رؤيته لعالمه الذي يأمل أن يكون. وهو بذلك يغترب عن عالمــه الواقعي، ويحاول أن يسيطر عليه من خلال رؤيته الجديدة وبما ينشئ من علاقات بين مفردات اللغة تكشف عن عمق هذه الرؤية.

ويطــرأ الاغتراب عند كارين هورني – من علماء التحليل النفسي– حينما يطور المرء صورة مثالية عن ذاته يبلغ من اختلافهما عما هو عليه، إلى حد وجود هوة عميقة بين صورته المثالية وذاته الحقيقية، حينها يتشبث المرء بالاعتقاد أنه هو ذاته المثالية لأنه في هذه الظروف لا يعــود المــرء مــدركاً ذاتــه الحقيقــية، والاغتــراب عن الذات يحمل معنى الغفلة عن الذات الحقيقية[٢].

وقــد رسم المتنبي لنفسه صورة مثالية غاية في الاغتراب وهي بعيدة كل البعد عن ذاته الحقيقــية، فبعد أن خرج منكسراً من لدن بدر بن عمار بعد أن حاول امتهان شاعريته أسفر عن ذاتــه التي يؤمل أن يكون عليها فجاءت الصورة مغرقة في الخيال وكانت الهوة عميقة بين ذاته الحقيقية وذاته المثالية إذ يقول

واقفاً تحت اخمصيْ قَدْرَ نفسي واقِفاً تحت إخمصيَّ الأنام[٣]

---

(١)ريتشارد شاخت– الاغتراب ، ص٤٢.

(٢)المرجع نفسه، ص١٤٧.

(٣)الديوان، ص٣٦٣.

وينشـــأ الاغتراب عند هيجل حينما يطرأ تغيّر في مفهوم شخص ما عن ذاته[١]، وفرق بين معنيين للاغتراب: الأول الانفصال وهو فقدان الوحدة مع البنية الاجتماعية، والثاني التسليم والتضحية ويعدّ ضرورياً إذا ما أريد قهر أنواع معينة من عمليات الانفصال[٢].

وعلى ما يبدو أن الاغتراب الأول وهو الانفصال يكون فيه الفرد منسجماً مع ذاته بينما نجد أن الثاني يكون فيه الفرد قاهراً لذاته في سبيل مصلحة الجماعة.

فالفرد الذي يعيش في بيئة اجتماعية عليه أن يؤمن بقيمها ويرضى بالدور الذي ارتضته لـــه وأن يكون ضمن هذا النسيج الاجتماعي، فإذا ما حدث وعي من قبل هذا الفرد جعله يرفض بعـــض القـــيم أو يرفض الدور الذي أوكل إليه القيام به جعله يشعر بالاغتراب، وعندما ينشب صراع داخل هذا الفرد يؤدي به إلى طريقين: الأول أن يقهر ذاته ويبقى ضمن المجوع وهو ما أسماه هيجل بالتسليم والتضحية ونجد مثاله في الشعر العربي قول دريد بن الصمة:

فلمّا عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهـــم وأنني غيرُ مهتـــدِ

وما أنـــا إلاّ من غزيَّة إن غـــوت غويت وأن ترشد غزيّة أرشدِ[٣]

وبذلـــك يكـــون قد عبر عن رفضه، ولكنه لم ينفصل وقهر إرادته على أن يبقى منتمياً للمجموع.

أمـــا الثاني فهو أن يعلن عن رفضه للقيم ويناوىء المجموع ويعلن عن انفصاله وعندها يحصل الصراع بينهما وربما كان الممثل لهذا الصراع في الشعر العربي الشعراء الصعاليك.

---

(١)ريتشارد شاخت- مرجع سابق،ص٧٦.

(٢)المرجع نفسه، ص٨١

(٣)أبو سعيد عبد الملك بن قريب- الأصمعيات، ص١٠٧.

ويعد الشنفرى بلاميته أوضح من مثّل هذا الاغتراب

أقيمـوا بنـي أمـي صـدور مطيكم فإني إلى قوم سواكـم لأميـلُ

فقد حُمّت الحـاجـات والليـل مقمـر وشدّت لطيات مطايا وأرحـلُ

وفي الأرض منـأى للكريـم من الأذى وفيها لمن خاف القلى متعـزلُ

لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئٍ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

ولي دونكـم أهلـون سيـد عمـلس وأرقط زهلول وعرقـاء جيأل[١]

بينما نجد أن نظرة إريك فروم إلى الاغتراب تتمثل في أربعة أنماط من خلال العلاقات مع الآخرين، وربما كانت هذه الأنماط تمثل حالة الاغتراب عند المتنبي وهي:

١.الاغتراب والتميز عن الآخرين عندما يحقق الإنسان وعياً بتميزه عنهم فإنه يكفّ عن الشعور بالوحدة معهم على هذا النمط الغرائزي[٢].

وقد كان شعور المتنبي واضحاً في مسيرة حياته من خلال كثرة ترحاله ورفضه لمجتمعه الكوفي وشعره يدل على ذلك. فيقول:

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني إن النفيس غريبٌ حيثما كانا[٣]

ويقول: تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلاّ لخالقه حكما[٤]

ويقول: وما مقامي بدار نخلة إلاّ كمقام المسيـح بين اليهـود

أنا في أمةٍ تداركها اللـ ـه غريبٌ كصالح في ثمود[٥]

---

(١)العكبري، إعراب لامية الشنفرى، ص٦١.

(٢)ريتشارد شاخت- مرجع سابق،ص ١٣٣.

(٣)الديوان، ص٣٩٩.

(٤)المصدر نفسه،٣٨٤.

(٥)نفسه،٨٤

٢.الاغتراب والارتباط بالآخرين، وهو أن يجد روابط جديدة مع رفاقه، لتحل محل الروابط القديمة التي كانت الغرائز تنظمها[١].

وكان المتنبي يسعى لإيجاد مثل هذه العلاقة ومن يعينه على تحقيق المجد الذي يسعى إليه. فيقول:

أقلُّ فعالي بَلْهَ أكثرُهُ مجــدُ وذا الجدَّ فيه أم لم أنــل مجــدُ

سأطلب حقي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طول ما التثموا مُردُ[٢]

وقوله إلى الجماعة التي ينتمي إليها:

محبي قيامي ما لذلكم النصل بريئاً من الجرحى سليماً من القتل[٣]

وهو دائم البحث عمن يجسد معاني البطولة والشجاعة ونجد هذا في معظم مدائحه إذ يقول:

إليك ابن يحيى بن الوليد تجاوزت بي البيد عيسٌ لحمهــا الدّم والشعــر

نضحت بذكراكم حــرارة قلبهــا فسارت وطولَ الأرضِ في عينها شبر

إلى ليثِ حربٍ يُلحمُ الليث سيفه وبحر ندى في موجــه يغرق البحــر

٣.الاغتراب واستغلال الآخرين: ينظر المرء إلى الآخرين كونهم مجرد وسائل لغاياته الشخصية.[٤]

---

(١)ريتشارد شاخت- مرجع سابق،ص ١٣٣.

(٢)الديوان،ص ٤٣٠.

(٣)المصدر نفسه، ص٧٣

(٤)ريتشارد شاخت- مرجع سابق،ص ١٣٤.

والمتنبي ينظر إلى الناس من هذا المنطلق فإما أن يكونوا معه لتحقيق غاياته وإلاّ فهم مذمومون عنده، فهو يريد رجال حربٍ يكونون عوناً له.

فيقول: إذا شئت حفّت بي على كل سابحٍ   رجالٌ كأن الموت في فمها شهدُ[١]

ويقول أيضاً: وإن عمرت جعلت الحرب والدةً   والسمهري أخاً والمشرفي أبا

بكلِّ أشعث يلقى الموت مبتسماً   حتى كأن له في قتله أربا[٢]

وإن كان الناس غير ما يريد فإنهم مذمومون فيقول:

أذمُّ إلــى هــذا الزمــــان أهيلَــهُ   فأعلمهم فدمٌ واحزمهم وغــدُ

وأكرمهــم كلــبٌ وأبصرهــم عمٍ   وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قردُ

ومن نكد الدنيا على الحُرّ أن يرى   عدوّاً له ما من صداقته بدُّ[٣]

ويقول أيضاً:

٦٠٤٣٩٧

وإنّما نحن في كل جيلٍ سواسيةٍ   شرٌ على الحرّ من سُقمٍ على بدن

حولي بكلِّ مكانٍ منهمُ خِلَقٌ   تخطي إذا جئت في استفهامها بمن

مدحت قوماً وإن عشنا نظمتُ لهم   قصائداً من إناث الخيل والحُصنِ[٤]

---

(١)الديوان، ص٤٣٠.

(٢)المصدر نفسه،ص ٢٤٤.

(٣)نفسه، ص٤٣٠.

(٤)نفسه، ص٣٧٥.

وإذا مـــا تجسد اغتراب المتنبي من خلال هذه الأنماط فإن البحث في عملية الاغتراب يكـــون ضـــمن اتجاهيـــن الأول: على صعيد الشخص المغترب، والثاني: على صعيد المجتمع والظروف المحيطة به والتي تساعد على تحقيق اغترابه.

وإذا مـــا نظـــرنا إلـــى الشخصية المغتربة على أنها شخصية مبدعة لوجدنا أنها تمتاز بـــتفردها، وقدرتهـــا علـــى التعبير عن ذاتها، وضعف انصياعها إلى القيم الاجتماعية السائدة، والـــتمرد عليها، وبذلك تعلن عن رؤيتها وفق نظام جديد للعلاقات، تخالف فيه السائد، وبالتالي تـــؤدي إلى حدوث قطيعة بين الفرد ومجتمعه، قد تؤدي إلى نشوب صراع بينهما على المستوى الاجتماعي.

وبمـــا أن المـــبدع يكوّن علاقات جديدة غير العلاقات السائدة، فلا بدّ له أن يقحم هذا الصراع على مستوى نظام اللغة حتى تحتل مفرداتها مواقع جديدة ضمن الصورة التي شكلها.

المبدع يشعر بغربة في المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يستطيع أن يذوب في تياره أو أن يـــتجانس تجانساً تاماً مع اتجاهاته وموضوعاته، لأن ذلك يتعارض عما يعتمل في نفسه. وعلى الـــرغم مـــن أنه مُستقبلٌ واعٍ لما يدور حوله إلا أنّ رؤيته قد تخالف رؤية مجتمعه، وهو بذلك يخـــالف النمطـــية التي يأخذ المجتمع بها أبناءه في تنظيم العلاقات، لذا نجد أن المتنبي لم يكن منســـجماً مع مجتمعه الكوفي، وكان على خلاف معه، فلجأ إلى البادية وكان محباً للعلم والأدب، كمـــا جـــاء في كتاب "بغية الطلب في تاريخ حلب": قال الربعي:" وقال لي المتنبي: كنت أحب البطالة وصحبة البادية، وكان يذمّ أهل الكوفة لأنهم يضيقون على أنفسهم في كلِّ شيء، حتى في الأســـماء، فيـــتداعون بالألقاب ولما لُقِّبْتُ بالمتنبي ثَقُلَ ذلك عليَّ زماناً ثم ألفته"[1]. وأخبرنا أبو اليمن زيد الكندي فيما أذن لنا فيه، أخبرنا أبو منصور بن زريق، قال لنا أبو بكر الخطيب: أحمد

---

(١)كمال الدين عمر بن أبي جرادة- بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٢،ص٦٤١.

بن الحسين بن عبد الصمد أبو الطيب الجعفي، الشاعر المعروف بالمتنبي، بلغني أنه ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ، ونشأ بالشام، وأكثر المقام بالبادية، وطلب الأدب وعلم العربية ونظر في أيام الناس وتعاطى قول الشعر من حداثته حتى بلغ الغاية التي فاق أهل عصره وعلا شعراء وقته[١].

والحريّة التي يريدها المبدع لنفسه لا يستسيغها المجتمع لأنه شخص مباين للآخرين إمّا لشدّة ذكائه، وإمّا لانحراف مزاجه، ولذلك قد يوصم هذا الشخص بالجنون، وجاء في تاريخ بغداد روايةٌ عن قوّة حفظ المتنبي؛ إذ حفظ كتاباً من ثلاثين ورقة للأصمعي في مدة قصيرة جداً وفاز بالكتاب عندما تحدى صاحبه على حفظه[٢].

ويصفه الذهبي في كتابه "سيرة أعلام النبلاء" بقوله: كان من أذكياء عصره بلغ الذروة في النظم، وأربى على المتقدمين، وأقام بالبادية يقتبس اللغة والأخبار، وكان يركب الخيل بزي العرب، وله شارةٌ وغلمانٌ وهيئة[٣].

والمتنبي بخلافه مع أهل الكوفة أصبح طريداً، حتى إنّه عندما ماتت جدته لم يستطع أن يدخل المدينة، ولكنه دخلها بعد عودته من مصر بعد أن خرج على كافور وهجاه، وعلى ما يبدو فإن المتنبي كان على خلاف وصراع في كلّ مكانٍ يحلّ به يؤدي به إلى الاغتراب.

هناك واقع لا سبيل إلى إنكاره، ولا حيلة في التنكر له، هو اعتداد المتنبي بنفسه، وشعوره بالتفوق على معاصريه، ولكن الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي ارتطم بها في صباه الأول، حوّلت اعتداده ذاك إلى إغراق في الخيال، إلى ضرب من الهوس يصعب العثور على ما

---

(١)كمال الدين عمر بن أبي جرادة- بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٢،ص٦٤٢.

(٢)أحمد بن علي الخطيب البغدادي- تاريخ بغداد، ج٤، ص١٠٢.

(٣)الذهبي- سيرة أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٩٩.

يبرره، وردت شعوره بالتفوق إلى انسياح مع أنانية مفرطة غير واعية تؤذي الآخرين، وتحدوهم على إيذائه[١].

وربما كانت الحالة التي يعيشها المتنبي قد ملأت كيانه فجعلته يغرق في الخيال المؤدي إلى الهوس، وهذه المبالغات حق من حقوق الفنان يرسم من خلالها عالمه الجديد، فيعلن عن واقعه الجديد الذي يؤمّل، ويغترب عن عالمه الذي يرفض العيش فيه.

الأوضاع السياسية

وإذا ما أردت الحديث عن الظروف المحيطة بالشاعر، وأثرها في اغترابه، حيث عمقت هذه الظروف حدّة الاغتراب في نفسه. وكانت الأوضاع على شتى صعدها تنذر بانقسام المجتمع المؤدي إلى صراع داخلي بين أمراء الولايات؛ نظراً لضعف القيادة في بغداد، وتحكم قادة الجيش بالخلفاء، وخلعهم، بل وسمل عيونهم، وسحلهم. من خلال مؤامرات تحاك في القصر البغدادي؛ لأن الخليفة أصبح منهمكاً في مجونه وفسقه تاركاً أمر الرعية لولاة متناحرين، وساعين لتوسيع نفوذ سلطانهم على حساب بعضهم، وعامة الناس والرعية يحترقون في أتون هذه الخلافات، بل إن المتنبي قد ترفع عن مدح الوزير المهلبي لِمَا رأى من تماجنه وخلاعته[٢].

في ظل هذه الظروف والأوضاع ظهرت حركات تمردت على هذه القيادات واستطاعت أن توجد لها نفوذاً وقوةً أقلقت القصر العباسي، وولاة الأمصار، ووصل الأمر بهذه الحركات أن تتمرد على القيم الدينية التي كانت ترى أن القصر العباسي يمثلها، مما حدا بأبي طاهر الجنابي إلى اقتلاع الحجر الأسود وأخذه إلى عاصمة ملكه هَجَر[٣].

---

(١)عبد اللطيف شرارة- أبو الطيب المتنبي دراسة ومختارات، ص٤٧.

(٢)عبد القادر بن عمر البغدادي- خزانة الأدب ولب لسان العرب، ج٢، ص٣٥٥.

(٣)ابن كثير- البداية والنهاية، ج١١، ص١٧٤.

الوضع الاقتصادي

بقـــي عامـــة الناس يعيشون في خوف وجوع؛ إذ الأمصار متنازع عليها من قبل الولاة وأطـــراف الدولـــة عُرْضَـــة لغـــارات القرامطة، بل وصل بهم الأمر إلى غزو بغداد والأعداء التقلـــيديون لدولـــة الإسلام يغيرون عليها ولم يكن من مدافع عنها إلا سيف الدولة إذ طالما ردّ غارات الروم عنها.

يقـــول الإمام علي كرّم الله وجهه" ما وجدت نعمةً موفورةً إلاّ وبجانبها حقٌّ مُضيّع"[١]، مقابل هذا البذخ الذي كان يعيش فيه القصر العباسي وأمراء الولايات كان يئن الشعب جوعاً.

يقـــول ابن كثير: ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمائة وفيها غلت الأسعار؛ فاضطربت العامة وعـــدوا فـــي ذلك اليوم – وكان يوم الجمعة – على الخطيب، فمنعوه الخطبة، وكسروا المنابر، وقـــتلوا الشرط، وحرقوا جسوراً كثيرة[٢]، وفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وقع ببغداد غلاء عظـــيم وفناء كثير بحيث عدم الخبز فيها خمسة أيام، ومات خلق كثير، وكان الموتى يُلْقَون في الطريق ليس لهم من يقوم بهم، وربما وسِّعَت الحفرة ليوضع فيها جماعة من الناس[٣].

وربمـــا بسبب سوء الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، التف الناس حول الحركات التي كانت تناوىء الحكم، مثل الحركة القرمطية التي التف حولها الأعراب طمعاً في المغنم والمال، وقبلها ثورة الزنج، فهذه الثورات كانت تحمل بُعداً اقتصادياً واجتماعياً في ظاهرها، وتحمل بُعداً سياســـياً باطنـــياً هدفـــه تقويض الإسلام، إذ تخلت الدولة في خضم صراعاتها عن توفير الأمن لـــرعاياها بـــل وحتى أصبحت تنهب أرزاق العامة، كما فعل البريدي في سنة ثلاثين وثلاثمائة

---

(١)عبد الحميد الشيخ حسين المضري- ألف كلمة في الحكم والمواعظ لأمير المؤمنين علي -رضي الله عنه-، ص٥.

(٢)ابن كثير- البداية والنهاية، ج١١، ص١٤٣.

(٣)ابن كثير- مصدر سابق، ج١١، ص١٩٩.

وخـــرج جـــند البريدي فنهبوا الغلات من القرى والحيوانات، وجرى ظلم لم يسمع بمثله، واشتد الحال ونهبت المساكن وكبس أهلها ليلاً ونهاراً[١].

فمـــا حاجـــة الشعب في ظل هذه الظروف إلى المنابر والخطابات والدعاء لولاة الأمر، وهم يتضورون جوعاً، فكانت مثل هذه الحركات ملجأ يلجأون إليه، علّهم يجدون ما يقيم أودهم

الحياة الثقافية

إذا كانت هذه الانقسامات والتناحرات بين الولاة وبالاً على الناس فقد كانت ثراءً لساحات الأدب والعلـــوم المختلفة، إذ تسارع هؤلاء الولاة على حيازة أكبر عدد من الأدباء والعلماء في بلاطهم، ولا أدل على ذلك من إلقاء نظرة على كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبي إذ قسّم كتابه حسب شـــعراء وأدباء الأمصار، على أنّ بلاط سيف الدولة كان أعمرها، وقيل إنه لم يجتمع بباب أحد مـــن الملـــوك بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من الشعراء، واتفق له أشياء غريبة، منها أن خطيبه مصنف الخطب النباتية أحد الفصحاء البلغاء، ومنها أن مطربه كان أبو نصر الفارابي ومنها أن شاعره المتنبي[٢].

في ظل هذه الظروف البائسة، ولد المتنبي في بيئة فقيرة واستطاع أبوه على الرغم من فقره أن يرعاه ويعلمه لما لمح فيه من نبوغ، وأخذه إلى البادية كي يتعلم العربية والفصاحة فيها، ولـــم تكن الكوفة آمنة، إذ كانت مجالاً لغزو القرامطة ونهبهم، فخرج بنبوغه من رحم هذه البيئة الفقـــيرة وغـــير الآمنة يعلن رفضه واغترابه، حاملاً هذا الاغتراب على مدى حياته محاولاً أن يعلن عن ذاته علّه يصبح أميراً يحقق حلمه في إنشاء دولة يكون هو سيدها، فإن أخفق في ذلك

---

(١)ابن كثير– البداية والنهاية ، ج١١، ص٢١٧.

(٢)المصدر نفسه ، ص٢٨١

فمـــا عليه إلاّ أن يكون تحت ظل دولة يحقق له سيّدها أحلامه، وهو يرفض أن يكون في دولة ملوكها أرانب كما يقول:

أرانب غير أنهم ملوكٌ مُفتحةٌ عيونهمُ نيام[١]

وحق الشاعر أن يتمرد على زمن تحكم فيه الأوثان إذ يقول:

ولا أعاشرُ مِنْ أملاكهم ملكاً إلاّ أحقّ بضربِ الرأسِ من وثنِ[٢]

---

(١)الديوان، ص٢٥٠

(٢)المصدر نفسه، ص٣٧٥.

الفصل الأول

عذابات المتنبي في اغترابه

أ.عذابات النسب

ب.عذابات السجن

ج.عذابات الموت

د.عذاباته مع الناس وقلة المعين

هـ.إخفاقه في طلب الملك

عذابات المتنبي في اغترابه:

ثمة مواقف في حياة المتنبي أثرت في شعره، وجعلته ميالاً إلى التشاؤم على الرغم من أنه يحمل نفساً ثائرة، وعصية على أن يلجمها لجام، يحمل عذاباته، يهاجر بها في العواصم، هي له وحده، يشد عليها ويكظمها كي تمتد بداخله كبرياءً.

مـــن هذه المواقف قضية نسبه الذي حاول الوصول بوساطته إلى السلطة، وسواء أكان صادقاً فيما ادعاه، أم كان كاذباً، فقد فشل في ذلك.

وثانـــيها، سجنه الذي آذاه وجعله يحجم عن بعض ما يدَّعيه من علويته، وثالثها الموت الـــذي فجعـــه بأمه صغيراً، إذ أصبح الفراق توأمه. وموت جدته، فإذا به يحفر في قلبه أخدوداً حـــاول أن يداريـــه، فانفلـــت في طيات شعره إشارات يحاول أن يداريها، ورابعها: طلبه الملك والسلطة بأية وسيلة، وقد أخفق في ذلك أيضاً :

وَلَستُ أُبالي بَعدَ إِدراكِيَ العُلا ... أَكانَ تُراثاً ما تَناوَلتُ أَم كَسبا(١)

وخامسها : قلة المعين والصديق وخذلان الناس إياه وقد كان يعوِّل عليهم :

وَحيدٌ مِنَ الخُلانِ في كُلِّ بَلدَةٍ ... إِذا عَظُمَ المَطلوبُ قَلَّ المُساعِدُ (٢)

وقـــد أثرت هذه المواقف سلباً في مسيرة المتنبي عندما اغترب باحثاً عن المجد ليحقق ذاتـــه، فسما بها في عالم الشعر والأدب، وأخفق في إنشاء دولة يكون هو سيدها، وبقي في ظمأ إلى الدنيا التي زادت عليه المصائب :

---

(١)الواحدي- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ص١٤٨

(٢)المصدر نفسه، ص٦٦٧

أظمَتنِيَ الدُنيا فَلَمّا جِئتُها مُستَسقِياً مَطَرَت عَلَيَّ مَصائِبا[١]

وإذا مـــا نظرنا في شخص المتنبي وفكره وجدنا أنه كان ينهل من معين صلب، قد غذاه الاعـــتزاز، والانـــتماء، والقوة، والحزم، وكان أول مدرسة تلقى فيها الرعاية صدر جدته بحيث ملأت قلبه حزماً :

فَوا أسَفا أن لا أُكِبَّ مُقَبِّلاً لِرَأسِكِ وَالصَدرِ اللَّذي مُلِئا حَزما[٢]

ومن ثم انتقل إلى البادية؛ فنهل منها الشجاعة، وصفاء الذهن، وجـــرأة القول، وفصاحة اللســـان، وبذلـــك أشرب روح الأسلاف، فقدر القيم الأخلاقية، ومقت المخازي، ومن نُشِّئ هذه التنشئة، في مثل ذاك الزمن، حيث أصبح العبيد فيه أسياداً، لا بد أن يصاب بالحيرة التي أودت به إلى قلق دائم وعدم استقرار، ما راحته إلا محطة بين رحلتين، لا يكاد يطمئن إلى شخص، إذا لمس منه ما ينفره منه، فرَّ لا يلوي عليه.

وكِبَرُ آماله جعله ذا هم كبير، فمقاصده تتجاوز واقعه دائماً، وآخر ما يوصف به القناعة والاكتفاء بما له: طموحه جعله مهموماً، منشغل البال، لا ينتبه إلا إلى ما يتعلق به، ومن الممكن أن يكـــون احـــتفاله بذاتـــه قد جعله فردي النزعة، يحاكم الناس من خلال ذاته، لأن ذاته بؤرة أعماله، واتجاهاته لا ينساها، إن مدح، أو هجا، أو رثى، أو كان في موقف يمجد فيه نصراً، أو موقف حزن أو فرح[٣].

وفـــي معظـــم أحوالـــه نراه ممتلئاً حيوية ونشاطاً لا يكل ولا يمل، يجوب البلاد طولاً وعرضاً، لا يهدأ له بال وهذا يتضح من خلال قوله:

---

(١)الواحدي-شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ص٢٦٦

(٢)الديوان، ص٣٨٦

(٣)سهيل عثمان ومنير كنعان- المحصول الفكري للمتنبي، ١٦-١٧.

"على قلق كأن الريح تحتي "[١] ، "والخيل والليل والبيداء تعرفني[٢]"

وهو يقدر التفوق، لأنه معجب بكل عظيم، ويسخر من كل ساقط همة، أعجب ببدر حين صرع الأسد، وسخر من اللذين استعظما مقتل جرذ، وهاهو ينتشي بسيف الدولة، وببطولاته ضد الروم وسواهم، وقبل كل شيء يمتلئ عجباً بنفسه، فالأحمق من الشعراء الذي يريد أن يلحق به، والذي يقاويه وهو ضعيف، ويطاوله وهو قصير[٣].

والمتنبـــي شديد الانفعال، وحينما حدثت الوقيعة بينه وبين سيف الدولة انتقم منه بذهابه إلى عدوه كافور الإخشيدي[٤]، وتوتره الانفعالي الشديد هو الذي جعله يعبد القوة، ويعدها وسيلته الرئيسة.

---

(١)الديوان، ص٣٢٤.

(٢)المرجع السابق، ص٦٩٣.

(٣)الديوان،ص ٧٧٠.

(٤)سهيل عثمان- مرجع سابق، ص ١٧

أ.عذابات النسب :

كوفيّ المولد، عربيّ صليبة، اسمه أحمد، والده كان سقاءً، ولقبه عبدان السقاء، واختلف في اسمه، فهو الحسين، أو محمد، وكذلك اختلف في بقية أسماء جدوده، واتفق على أنه جُعْفِيُّ العشيرة. قال أبو الحسن محمد بن يزيد العلوي: كان المتنبي ينزل بجواري بالكوفة، وهو صبي، وأبوه يسمى عبدون السقاء، يستقي لأهل المحلة، ونشأ محباً للعلم والأدب، وصحب الأعراب بالبادية؛ فجاءنا بعد سنين بدوياً، وكان لا يعترف بنسب، ويقول: متى انتسبت لم آمن أن يأخذني العرب بطائلة، وادعى أنه علوي حسيني، ثم ادعى بكلب أنه نبي، فأشرف على القتل ثم استتابوه[١].

وجاء في تاريخ بغداد: لما خرج إلى كلب ادعى أنه علوي حسني، ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحبس دهراً طويلاً، وأشرف على القتل، ثم استتيب، وأشهد عليه بالتوبة وأطلق[٢].

وعلى الرغم من أنه لم يذكر في ديوانه شيئاً عن نسبه، الذي تذكر كتب التاريخ أنه ادعاه، وحبس من أجله، وربما يكون قد ذكره ولكنه أسقطه من شعره، ولم يصلنا منه شيء، ولكنه بقي يرهص في إعلان نسبه بكبرياء وقوة، حيث أشارت الحوادث التاريخية إلى أنه حبس بسبب دعواه، وهذا ما نلاحظه في شعره، حيث يميل إلى إعلان نسبه بقوة السلاح، إذ يقول:

وَإِن عَمَرتُ جَعَلتُ الحَربَ والِدَةً وَالسَمهَرِيَّ أَخاً وَالمَشرَفِيَّ أَبا[٣]

وأنه سيد صريح النسب لا يأبه لنباح الكلاب :

---

(١)محمد بن عبدالملك بن إبراهيم الهمداني- تكملة تاريخ الطبري، ج١، ص ١٩٥.

(٢)أحمد بن علي الخطيب البغدادي- تاريخ بغداد، ج٤ ، ص١٠٤

(٣)الديوان، ص٢٤٤.

أنا عَينُ المُســـوَّدِ الجَحجاحِ هَيـــــــجَّتني كِلابُكُم بِالنُبــاحِ
أَيكونُ الهِجانُ غـــَيرَ هِجانٍ أَم يَكونُ الصُراحُ غَيرَ صُــراحِ
جَهِلوني وَإِن عَمَــرتُ قَليلاً نَسَبَتني لَهـُم رُؤوسُ الرِمــاحِ(١)

وعلى ما يبدو فإنّ المتنبي كان يُشاغب عليه في قضية نسبه هذه التي تجرع من جرائها غصـص السـجن وعذابـه، وحاول عن طريقه أن يجمع حوله بعض أبناء القبائل، إلا أن يد السلطان كانت أسرع إليه، فزج في السجن، وتفرق من كان حوله، واستتيب عن فعلته هذه على ألا يعاود إليها.

وجـاء فـي سير الأعلام: وكان يركب الخيل بزي العرب، وله شارة، وغلمان وهيئة، وكان أبوه سقاء الكوفة يعرف بعبدان(٢).

وكأني بالمتنبي يرد على من يشاغب عليه بقوله:

أنا ابنُ مَن بَعضُهُ يَفوقُ أَبا الـ ـباحِثِ وَالنَجلُ بَعضُ مَن نَجَلَه
وَإِنَّـــما يَذكُرُ الـجُدود لَهُم مَـن نَفَروهُ وَأَنفَدوا حِيَلَــه
فَخراً لِعَضبٍ أَروحُ مـُشتَمِلَه وَسَمَـهَرِيٍّ أَروحُ مُعتَقِلَــه
وَلِيَفخَرِ الفَخرُ إِذ غـَدَوتُ بِهِ مُرتَدِياً خَـيرَهُ وَمُــنتَعِلَه
أَنا الَّذي بَيَّنَ الإِلــَـهُ بِهِ الـ أَقدارَ وَالمَـرءُ حـَيثُما جَعَلَه
جَوهَرَةٌ تَفرَحُ الشِـرافُ بِها وَغُصَّةٌ لا تـُسيغُها السَفِلَـة
إِنَّ الكِذابَ الَّذي أُكـــادُ بِهِ أَهوَنُ عِنـدي مِنَ الَّذي نَقَلَه
فَلا مُبالٍ وَلا مُـــداجٍ وَلا وانٍ وَلا عــاجِزٌ وَلا تُكَلَـة(٣)

---

(١)الديوان، ص١٥٣

(٢)محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي- سيرة أعلام النبلاء ،ج١٦، ص ١٩٩

(٣)الديوان، ص٥٢٢.

دعواه هذه زجته في السجن، واستطاع أن ينجو منه، وخصومه يحاولون أن يذكروه بما مضى، ويسألوه، ويجيبهم بشعر ينم عن اعتداده بذاته، وأنه فوق أي نسب، مهما علا هذا النسب.

أمـــا هـــو فقد حاول أن يثبت لنفسه نسباً رفيعاً، فادعى أنه علوي[١]، وقد يكون المتنبي صادقاً فيما ادعاه، فهو يرى في نفسه أنه صاحب حق إذ يقول:

لا بـــــِقَومي شَرُفتُ بَل شَرُفوا بي   وَبِنـَفسي فَخـَرتُ لا بِجُدودي

وَبِهِم فَخرُ كُلِّ مَن نَطَقَ الـضـــــا   دَ وَعَوذُ الجاني وَغَوثُ الطَريدِ [٢]

وبقي هؤلاء يطاردونه ويفر منهم :

وَفارَقتُ شَرَّ الأَرضِ أَهلاً وَتُربَةً   بِها عَلَوِيٌّ جَدُّهُ غَيرُ هاشِمِ[٣]

قـــال ابـــن جني: سألته عن هذا فقال: أردت طبرية، وكان فيها أعداء للممدوح، وأحسبه يعرض بالذين قال فيهم: "أتاني وعيد الأدعياء فيما بعد[٤]".

وقوله يعرض بهؤلاء الذين يشاغبونه :

فـــَلا تَـــسمَعَنَّ مِنَ الكاشِحينَ   وَلا تَـــعبَأَنَّ بِمَحكِ اليَهودِ[٥]

والمتنبي بميزاته الشخصية التي كان يتمتع بها، حاول أن يركب موجة يصل من خلالها إلـــى نفـــوذ كان يطمح إليه؛ ففشل وزج به في السجن، على أن حوادث التاريخ تشير إلى من ركـــب مـــثل هـــذه الموجـــة ونجح، حيث أسس عبيد الله بن ميمون القداح الدولة الفاطمية في أفريقية، ثم امتد بنفوذه إلى مصر، وادعى أنه علوي، علماً بأنه يهودي[٦].

---

(١)ابن كثير- البداية والنهاية، ج١١، ص٢٧٣.

(٢)الديوان، ص٨٤.

(٣)المصدر نفسه، ص٤٥٦.

(٤)أبو الفتح ، عثمان بن جني- الفتح الوهبي على مشكلات شعر المتنبي، ١٥٦.

(٥)الديوان، ص٢٢١.

(٦)ابن كثير- مرجع سابق، ج ١١ ، ص٢٧٣.

فـــإن كـــان المتنبي صادقاً في دعواه فقد فشل في إثباتها، وبذلك يكون هذا مبرراً لحقده واغترابه عن مثل هؤلاء الأدعياء المتنفذين .

يقـــول أحمـــد أمين : " والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندية، ومن كـــان يـــريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كل هؤلاء كانوا يتخذون من حب أهل البيت ستاراً يخفون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم[١]"

وعلى ما يبدو فإن التشيع وادعاء العلوية كان موجةً يركبها كل مغامر يريد أن يصل إلى سدة الحكم ، فلم لا يكون المتنبي أحد هؤلاء المغامرين ؟.

وأيـــاً كانت دوافعه وأصول دعواه فقد أخفق في الوصول إلى مبتغاه من خلال هذه الطريق التي أوصلته إلى السجن بدل أن توصله إلى الإمارة والحكم وقود الخيل .

ب.عذابات السجن:

ومهمـــا كـــان من سوق الشاهد، أو آراء النقاد والأدباء في هذه القضية حول إثبات علوٍّ نســـبه أو وضاعته، وعزوه إلى عقد النقص، فإن المتنبي أخفق في العزف على هذا الوتر، بل أدى بـــه إلـــى قطـــيعة بينه وبين عالمه الخارجي الذي كان يشعر باغترابه عنه، وأوصله إلى اغتراب آخر هو العزل الجسدي أي السجن.

كـــان الفضاء الخارجي عالم المتنبي، الذي امتد وتفاعل معه، وفق منهج رؤيته، أصبح الآن فـــي فضـــاء ضيق منعزل حجَّم حركة الجسد، ومهما حاول المتنبي الإعلاء من شأن هذا التحجـــيم وتصبير نفسه، حيث ضاق ذرعاً بحبسه وشبه نفسه بالدر الذي يسكن الصدف إلا أنه

---

(١)أحمد أمين، فجر الإسلام، ص٢٣٩.

يبقى بلا حراك مهما عظم ثمنه، والمتنبي رغم مكابرته إلا أنه يدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك، فمسـغبة الجوع جعلته يقبل الطعام ممن يزدريه؛ لأنه من أجل البقاء على الحياة ترضى الأسود بالجـيف، وبذلـك يمـتد بشعره بين المكابرة وتحديث النفس بالآمال، وبين واقعه المرير في السـجن. وهنا نلحظ المفارقة في شعره بين حالة قبوله لما يقيم أوده وحالة إصراره على مبدأه ولو كلفه حياته.

أهونِ بِطـولِ الثَّواءِ وَالتَّلَفِ وَالسِجنِ وَالقَـيدِ يا أَبـا دُلَفِ

غَيرَ اِختِيارٍ قَبِلتُ بِرَّكَ بـي وَالجوعُ يُرضي الأُسودَ بِالجِيَفِ[1]

كُن أَيُّها السِجنُ كَيفَ شِئتَ فَقَد وَطَّنـتُ لِلمَوتِ نَفـسَ مُعتَرِفِ

لَو كانَ سُكنايَ فيكَ مَنقَصـةً لَم يَكُـنِ الدُرُّ سـاكِنَ الصَدَفِ[2]

والسجن قد حد من حركته ونشاطه الفيزيائي، على الصعيد العقلي الفكري، فبعد أن كان هذا الفكر خطاباً موجهاً في فضائه الزماني والمكاني بين الناس، و على الصعيد الجسدي، حيث يسهل عليه الحركة والتنقل، أصبحا مقيدين، فقد كان في محفل من الناس يعلن فكره، ويمتد عبر هؤلاء الناس واصلاً ومتواصلاً، أصبح الآن مع شذاذ الآفاق، فهم لا يدركون قيمة ما يُحَدِّثهم به، وبذلـك حصـلت القطيعة في الاتصال الفكري، كما حصلت القطيعة في الحركة الجسمية، فإذا بالذين يساكنهم كالقرود :

وَكُنتُ مِنَ الناسِ في مَحفِلٍ فَها أَنا في مَحفِلٍ مِن قُرودِ[3]

(١)الديوان، ص١٤٦.

(٢)المصدر نفسه.

(٣) نفسه، ص١٤٨.

وبما أن الصراع قد اتجه إلى مسار المحافظة على البقاء والمتمثل في حاجة الجسم إلى الطعام في ظل ظروف السجن والحفاظ على المبدأ والفكر، فقد قبل على نفسه أن يقبل ما يقيم أوده ولكنه رفض أن يساوم على فكره الذي وطّن نفسه من أجله أو الهلاك دونه، وهو في هذه الحالة يعيش مرحلة ضغط نفسي لأنه منقطع عن وسائل الاتصال بالعالم الخارجي، وعاجز عن توفير سبل العيش الكريم في السجن وهذا الامر جعله يعيش مرحلة ضعف رفض أن يعلن عنها فعزاها إلى أمر خارجي وهو صدر أمه الذي يتفطر من أجله وما على الأمير إلا أن يرحمه من أجله.

بيدِي أيُّها الأميرُ الأريبُ　　لا لشيءٍ إلا لأنّي غريــبُ
أو لأمٍّ لهـــا إذا ذكَرتْني　　دمُ قلبٍ بدمع عينٍ سكوبُ (١)
أمـــــالِكَ رِقّيْ ومَن شأنُهُ　　هِباتُ اللـُجَينِ وَعِتقُ العَبيدِ
وَفي جودِ كَفَّيكَ ما جُدتَ لي　　بِنَفسي ولَو كُنتُ أشقى ثَمودِ(٢)

المتنبي الذي اعتد بذاته، وملأ بها الدنيا، وما رأى غيرها، يستحق أن يكون سيداً أصبح الآن رهــن القــيود، فحاول الصمود، والاعتزاز بها، وما قدر على ذلك،عندها استعطف وطلب التوبة، وبعد أن كان دراً أصبح الآن رقيقاً يطلب العتق .

إنها صورة التحطيم بين العالم الخارجي الذي يضغط ويكبل الجسد، والعالم الداخلي الذي يســعى لبقاء هذا الجسد بمتطلباته الأساسية، هذا الضغط جعل الأنا حزينة ومستضعفة، فأنتجت حزناً غير عادي فيه ذل الانكسار بعد أن كانت هذه الذات متمردة على عالميها الداخلي (الجسد)

---

(١)الديوان، ص١١٣٣.

(٢)المصدر نفسه، ص ١٤٨.

بمتطلـــباته، والخارجـــي بتحديه، جاءت القصائد ثائرة تحاكي هذه الذات،وعندما كبّلت أصبحت حزيـــنة ضعيفة، جاءت القصائد محاكية لضعفها، وقد حاول الشاعر أن يوجد معادلاً موضوعياً يـــبرر فـــيه ضعفه، فلجأ إلى أمه (جدته) يخفي من خلال ضعفها ضعفه، و يريد أن يرحم قلبها الممـــزق، وكأنـــه لا يأبه لما هو فيه، لأنه وطن نفسه للموت، فنفسه لا تضعف من أجله، وإنما تضعف من أجل الآخر، وبذلك يصرُّ على أن يبقى معتداً بنفسه في أحلك الظروف التي تحطم النفس.

ج.عذابات الموت

علاقـــة المتنبي مع الموت لازمته منذ كان طفلاً رضيعاً، فحرم صدر أمه واعتنت به جدتـــه، وهي من صالحات نساء الكوفة، أوكلته إلى امرأة علوية من آل عبيد الله كي ترضعه، ويقال إنها أم محمد بن عبيد الله العلوي الذي مدحه المتنبي(١).

وربمـــا لم يؤثِّر موت الأم في المتنبي كثيراً؛ فلم يرث فقدها، لأنّ جدته قد أغنته عنها، ولكنه قد ذكر الفراق وأنه توأمه إشارةً إلى فقد أمه، حيث ولد الفراق معه:

أمّا الفِراقُ فَإنَّهُ مـــا أعـــــهَدُ   هـــُوَ تَوأمي لَو أنَّ بَيـــناً يـــــولَدُ

ولَقَد عَلــــِمنا أنـــّنا سَنُطيعُهُ   لَمــــّا عَلِـــمنا أنّنـــا لا نَخلُدُ

مَن خَصَّ بِالذَمِّ الفِراقَ فَإنَّني   مَن لا يَرى في الدَهرِ شَيئاً يُحمَدُ(٢)

وأمـــا أنه لم يرثِ والده، ذاك الرجل المكافح الذي رعاه، ورباه، وعلمه، وانتقل به إلى البادية كي يتعلم الفصاحة؛ فلأن أمر هذا الرجل مختلف فيه، والمتنبي نفسه لم يعترف بنسب كما

---

(١)عمر بن أحمد بن أبي جرادة – بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ٢، ص٦٤١

(٢)الديوان ، ص٤٣٨

تروي الأخبار التي نقلت عنه لأنه يخاف أن يؤخذ بغائلة بين الأعراب، وبين قومه الذين ينتسب إليهم[١].

وقد خاض في هذه المسألة غير كاتب من المحدثين، منهم من جعله ابناً غير شرعي مثل: طه حسين الذي يتساءل حول معرفة المتنبي لأبيه، ويقول: " قال المؤرخون: نعم، ولم يقل شيئاً، لم يمدحه، لم يفخر به، ولم يرثه"[٢].

بينما نجد كلاً من محمود شاكر في كتابه "المتنبي"، وعبد الغني الملاح في كتابه: "المتنبي يسترد أباه"، وناجي علوش في كتابه: "أبو الطيب المتنبي، دراسة في هويته، وشعره" يرتفعون في نسبه، متمسكين بدعواه التي ادعاها، وهو أنه علوي حسني أو حسيني، وإن صحت ادعاءات المتنبي يكون هذا الرجل السقاء وصياً عليه، أو موكلاً برعايته، لذلك لم يرثه، ولم يعلن عنه في شعره. وعلى جميع الأحوال فإن المتنبي لم يرث أمّه ولا أباه في شعره، وإنما رثى جدته رثاء شخص موتور بها، وراح يفخر بنفسه ويعلن أنه سيأخذ الثأر فيها من العدا.

١. موت الجدة:

حظ المتنبي العاثر لا ينفكُّ يلاحقه ، فثنائية الموت والحياة، مولده وموت أمه، ورسالته إلى جدته التي ظن أنها ستكون مثار فرح لها بلقائه القريب تقتلها، فإذا به يحرِّم السرور على نفسه:

حَرامٌ عَلى قَلبي السُرورُ فَإِنَّني أُعَدُّ الَّذي ماتَت بِهِ بَعدَها سُمّا[٣]

---

(١)انظر في هذه القضية: بغية الطلب، ج٢ ، ص٦٤١، وتكملة تاريخ الطبري، ج١، ص١٩، وتاريخ بغداد: ج٤، ص١٠٢.

(٢)طه حسين، مع المتنبي، ص١٢.

(٣)الديوان، ص٣٨٣.

هــذه الثنائية الضدية، ثنائية الموت والحياة، تحفر في نفس المتنبي أخدوداً عظيماً تجعله يميل إلى الحدية، وإذا بكوامن النفس تعيد إلى رأسه ذاكرة الأم التي استعاض عنها بصدر الجدة الحنون التي احتضنته ولم تُعيِّره، بل بكت معه على مصابه، والآن يبكيها وحده فقد كانت تبكي معه فقد ابنتها، وهو يبكي فقد أمه:

بــكَــيتُ عَلَيها خيفَةً في حَياتِها وَذاقَ كِلانا ثُكلَ صاحِبِهِ قِدما

عَرَفتُ اللَيالي قَبلُ ما صَنَعَت بِنا فَلَمّا دَهَتني لَم تَزِدني بِها عِلما

لقــد كــان حريصــاً عليها، ففجعه الموت بها وتركه وحيداً، وكأن حدسه أشعره بهذه اللحظــات التي سيصبح بها وحيداً، بعد فقد الصدر الذي أحبه، فالمصائب تلاحقه، وتسرق منه أعز أنيس له، وتتركه وحيداً:

كَيفَ الرَجاءُ مِنَ الخُطوبِ تَخَلُّصاً مِن بــَعدِ ما أَنشَبنَ فِيَّ مَخالِبا

أَوحَدنَني وَوَجــَدنَ حُزناً واحِداً مُتــَناهِياً فَجَعَلنَهُ لي صاحِبا

وَنَصَبنَني غَرَضَ الرُماةِ تُصيبُني مِحَنٌ أَحَدُّ مِنَ السُيوفِ مَضارِبا

أَظــمــَتنِيَ الدُنيا فَلَمّا جِئتُها مُستَسقِياً مَطَرَت عَلَيَّ مَصائِبا[1]

وحدس المتنبي ورؤيته للمستقبل تنبع من معرفته بالماضي الذي جعله وحيداً، وإن كان يؤمل من الدنيا غير الذي تعطيه، فميلاده ←—— موت أمه، جعله يتخوف من هذه الدنيا، وفيما بعد كتابه إلى جدته سبب لها السرور←—— فماتت وتركته وحيداً:

ظامئاً إلى صدر أمه ليرضع لبنها وينعم بحنانها: النتيجة = الموت

ظامئاً إلى صدر جدته الذي ملئ حزماً وحناناً: النتيجة = الموت .

---

(١)المصدر نفسه، ص٢٦٦.

وغربة الموت تحفر في نفسه ألماً عظيماً، حاول أن يفْلِتَ من غلوائه، ففجأه وهو بأمس اللحظات إلى أن يكون بعيداً عنه، وجاءه في لحظات الضعف إذ هو طفل صغير، والسرور بلقاء جدته، وتركه وحيداً ظامئاً.

يقول عبد الفتاح نافع :"وفي هذه الأثناء يخطف القدر جدته العجوز، آخر من بقي له من أقاربـــه فـــي هذه الدنيا، فعصف الألم بقلبه، وغمرت الأحزان نفسه وبدا له أن كل من في هذه الدنيا يتآمر ضده، و يسعى للنيل منه، فسيطر عليه شعور بالمرارة، و الحقد، و التشاؤم، ففاضت نفسه تعبر عن كل هذه المشاعر، وعن نظرته للوجود و الحياة، في حِكَم خالدة نابعة من معاناته وشقائه"[١].

في حين يرى هادي الخفاجي في هذه القصيدة ضعف العاطفة، و يتساءل: فأين اللوعة؟ وأين الفجيعة؟ وأين هو الحزن؟ لا شيء من ذلك[٢].

و لا أدري هل نحاكم الشاعر على ما لم يقله أو أن فلاناً قال كذا[٣]، أو لم يقل هو مثل قوله. و كلٌ ينزع من منزع مختلف، وكل ينظر الى الحياة نظرة تختلف عن الآخر، ويتفاعل مع الموقف من حيث هو وبما عنده لا بما عند غيره.

وإن كان الشريف الرضي بكى أُمَّهُ فلأنه يرى أن الموت هو الذي فجعه بها فحقها عليه أن يبكيها، وأن يموه دموعه بأناملِه، وأن يسترها متجملا بردائه:

كَم عَبرَةٍ مَوَّهتُها بِأَناملِي وَستَرتُها مُتَجَمِّلاً بِردائي[٤]

---

(١)عبد الفتاح نافع- لغة الحب في شعر المتنبي، ص٣٢.

(٢)هادي الخفاجي- سنوات ضائعة من حياة المتنبي، ص٧٥.

(٣)أنظر الهادي الخفاجي في معرض مقارنته بين مرثية المتنبي لجدته و مرثية الشريف الرضي لأمه، ص٧٥ – ٧٩.

(٤)ديوان الشريف الرضي، شرح محمود مصطفى حلاوي ج١ ، ص٧٣ .

والمتنبـــي يرى أن جدته لم يكن موتها طبيعياً، فهو موتور بها، والموتور عند العرب لا يبكـــي حتى يأخذ بثأره، وإن كان قد بكاها في حياتها خوفاً عليها فهو لن يبكيها الآن، وأما هو يحرم على نفسه السرور، وما خرج من عندها الا لأمر عظيم قد نذرته له:

بكَيتُ عَلَيها خيفَةً في حَيـاتِـها وَذاقَ كِلانا ثُكلَ صـاحِبِـهِ قِـدمـا

حَرامٌ عَلى قَلبي السُرورُ فـإِنَّني أعـدُّ الَّـذي مـاتَت بِهِ بَعدَها سُمّا

فَأَصبَحتُ أَستَسقي الغَمامُ لِقَبرِها وَقَد كُنتُ أَستَسقي الوَغى وَالقَنا الصُمّا

هَبيني أَخَذتُ الثَأرَ فيكِ مِنَ العِدا فَكَيفَ بِأَخذِ الثَأرِ فـيكِ مـنَ الحُمّى

وَما انسَدَّتِ الدُنيا عـلَيَّ لِضيقِها وَلَكِنَّ طَـرفـاً لا أَراكِ بِهِ أَعمى[1]

وهـل أعمق من هذا الحزن غير العادي الذي يدعو النفس إلى التماسك، والتصلب حتى لا تقـع رهينة الضعف، والحزن والبكاء في مثل هذه المواقف التي تحتاج إلى القوة والصلابة، فهـو إن لم يبك فقد حرم على نفسه السرور، وكلاهما ينزع إلى منزع اللين، والرقة، البكاء كما قلنا ضعف، والسرور أريحية، فإن تماسك إزاء الأولى؛ فقد حرم الثانية على نفسه ليبقى في حالة من الاتزان الذي يخوله بأخذ الثأر، فلا يركن إلى هذه ولا يركن إلى تلك.

ويـتابع الهـادي الخفاجـي قوله: (وعلى الرغم من أنني لم أورد أبيات الشريف بهدف الموازنـة بيـنه وبين المتنبي، ولكني فقط أردت أن أعطي صورة لشاعر فعل كما فعل المتنبي فنجح حيث أخفق المتنبي، أخفق لأنه لم يستطع أن يجعل من جدته أمّاً بمعناها الصحيح، وإنه لم يستطع أن يتصور أمه لأنه لم يرها ولم يعرفها[2])

---

(١)الديوان، ص٣٨٢.

(٢)هادي الخفاجي،مرجع سابق، ص٧٩.

٢. موت المحبوبة :

وإذا كـــان الموت قد ترك أثراً في نفس المتنبي في فقد الأم جعله يستشعر معاني الفراق والوجـــد، فأصبح له صاحباً وفجعه بأخذ الجدة، هذا الصدر الذي حنا عليه فعمَّق في نفسه مأساة هـــذه الحـــياة التي يرى أن صدقها كذب، فقد فجع بموت امرأة تعز عليه فرثاها رثاءً حاراً يكاد يضاهي رثاء جدته إن لم يكن أعمق، إنه رثاء خولة أخت سيف الدولة.

تقول نورة الشملان:" ولأبي الطيب رثاء صادق مؤثر نابع من عاطفة حزينة، تخلى فيه عـــن المديـــح، ويمثل ذلك رثاؤه لأبي شجاع فاتك الرومي، ورثاؤه لجدته، ورثاؤه لخولة أخت سيف الدولة، التي يبدو أن الـــشاعر كان يخصها بود صـــادق، واعتراف بالجميل[١]."

وقد عقد محمود شاكر فصلاً يناقش فيه قضية حب المتنبي لخولة، فيه كثير من التحليل الذي يكاد يكون مقنعاً[٢].

بينما يرى طه حسين أن هذا الكلام عارٍ من الصحة، وإنما كانت تبره، وتحسن إليه دون أن يقع بينهما حب[٣].

وأيـــاً مـــا كـــان الأمر، فإن المتنبي في رثائه هذا يشعرك بذاك الحب، إن لم يكن من الطرفين فمن طرف واحد هو المتنبي على الأقل، كما تشعر بعظم هذا المفقود في نفس المتنبي لأن مـــوت هـــذه المرأة صَعَقَه، وزلزل كيانه، وقد رثى غيرها من النساء، وما كان بعمق هذا الـــرثاء، ولم يتأثر بموت امرأة مثلما تأثر لموت هذه المرأة. وحينها عاتب الموت عتاباً شديداً علـــى فعلـــته وغدره، وقد وفى له أخوها عندما كان يحصد له رقاب الأعداء. ومحاورة المتنبي

---

(١)نورة الشملان- المتنبي الإنسان والشاعر، ص١١٦.

(٢)شاكر، مرجع سابق، ص٣٣٣-٣٥٣.

(٣)طه حسين، مرجع سابق، ص٢١١-٢١٢.

المـــوت جعله يقف مذهولاً أمامه، مستشعراً عمق الاغتراب أمام هذه الحقيقة الكونيَّة، التي كان يؤمل منها ألاً تحدث، وإذا بالذي يحاذره قد وقع، وإذا بالقهر يبكيه حتى يغرق بدمعه .

وذهب محمود شاكر إلى أن المتنبي قد قال أول ما قال من قصيدته هذين البيتين:

طَوى الجَزيرَةَ حَتّى جاءَني خَبَرٌ   فَزِعتُ فيهِ بِآمالـــي إِلى الكَـــذِبِ

حَتّى إِذا لَم يَدَع لي صِدقُـــهُ أَمَلاً   شَرِقتُ بِالدَمعِ حَتّى كادَ يَشرَقُ بي(١)

وعلـــى ما يبدو أن المتنبي قد نسي نفسه أنه يعزي أميراً بأخته لعظم هذه المصيبة عليه فنفث ما في صدره من حرقة، وألم مخاطباً سيف الدولة:

أَرى العِراقَ طَويلَ اللَيلِ مُذ نُعِيَت   فَكَيفَ لَيلُ فَتى الفِتيانِ في حَلَبِ

يَظُنُّ أَنَّ فُؤادي غَيـــرَ مـــُلتَهِبٍ   وَأَنَّ دَمعَ جُفوني غَيرُ مُنسَكِبِ(٢)

وبعـــد هـــذا الحـــزن الشديد، وتأنيب الموت تمنى أن تتغيرسنن هذا الكون، لأنها كانت بالنسبة لعالمه شمساً تنير له قلبه وكيانه، وعندما فُقدت أظلم عالمه رغم سطوع الشمس.

رؤيـــة المتنبـــي لهذا الوجود أصبحت تغاير رؤية العالم له، إذ أخذ هذا الكون منه شمسه؛ فتمنى أن تذهب شمس هذا الكون، وفي ظني أن نظرة العداء قد استفحلت بين هذا الكون بقوته، والمتنبـــي بضـــعفه المتمرد، فاشتط بتمنيه(والتمني ضعف) فكأنه يقول لتذهب شمس هذا الكون على أن تبقى شمسي:

فَلَيتَ طالِعَةَ الشَمسَينِ غائِـــبَةٌ   وَلَيتَ غائِبَةَ الشَمسَينِ لَم تَغِبِ

---

(١)شاكر، مرجع سابق، ٣٤٠

(٢)الديوان ، ص٨٦٣ .

يقول العكبري :" وهذا ليس مليحاً في حق امرأة أجنبية أن يخاطبها بمثل هذا. " شرح العكبري، ج١ ص (٨٩) وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: "لو عزاني إنسان عن حرمة لي بمثل هذا لألحقته بها وضربت عنقه على قبرها " الثعالبي ،يتيمة، ج١، ص (٢٠٩) وأظن أن المتنبي في خطابه هذا لم يصدر إلا عن نفسه ولم يلتفت إلى ما ذهب إليه هؤلاء النقاد، وإنما كان حزنه عليها وحبه لها أكبر من كل ذلك.

وَلَيتَ عَينَ الَّتي آبَ النَهارُ بِها فِداءُ عَينِ الَّتي زالَت وَلَم تَؤُبِ[١]

وفـــي رأيـــه أن مصـــدر هذا العداء الحسد، لأنه استكثر أن يمتع الدنيا بمثل هذه المرأة الكريمة، لذلك أرسل عليها الموت لتضمها الأرض غيرة وحسداً، فخطفها منه:

قَد كانَ كُلُّ حِجابٍ دونَ رُؤيَتِها فَما قَنِعتِ لَها يا أَرضُ بِالحُجُبِ

وَلا رَأَيتِ عُيونَ الإِنسِ تُدرِكُها فَهَل حَسَدتِ عَلَيها أَعيُنَ الشُهُبِ

وَهَل سَمِعتِ سَلاماً لي أَلَمَّ بِها فَقَد أَطَلتُ وَما سَلَّمتُ مِن كَثَبِ[٢]

هـــذه المرأة متفردة في حياتها، وهي متفردة في مماتها، الموت لم يخطفها إلا لأنه حسد أهـــل الدنيا عليها، بل وحسد عليها النجم في السماء إذ يطالعها وتطالعه، وبعد هذا الحوار الذي جرى بينه وبين الموت، وقف من أمر هذه الدنيا عاجزاً قد أتعبته:

وَمَن تَفَكَّرَ في الدُنيا وَمُهجَتِهِ أَقامَهُ الفِكرُ بَينَ العَجزِ وَالتَعَبِ[٣]

وبذلـــك يقف المتنبي حائراً أمام هذه الدنيا المخادعة التي لا تستطيع أن تدافع عن أهلها فتسلمهم للموت، وعلى الرغم من سعي الإنسان فيها وإعماره لها، واستماتته في الدفاع عنها، إلا أنها تكافئه بالموت، وهذا ما يتعب الإنسان ويعجز فكره، فلا منطقية في فعل هذه الدنيا:

أَبَني أَبينا نَحنُ أَهلُ مَنـــــازِلٍ أَبَداً غُرابُ البَينِ فيها يَنعَقُ

نَبكي عَلى الدُنيا وَما مِن مَعشَرٍ جَمَعَتهُمُ الدُنيـــا فَلَم يَتَفَرَّقوا[٤]

والواقـــع أن الفعل يحتمل جانبين، أحدهما: الجانب الموضوعي للفعل، و الآخر الجانب الذاتي. حادثة الموت أمر طبيعي، ولكن بُعد هذا الفعل على نفسية المتنبي جعله يحمل بعداً ذاتياً

---

(١)الديوان، ص٨٦٣.

(٢)المرجع السابق، ص ٨٦٣

(٣)نفسه، ص٨٦٤.

(٤)نفسه، ص ٩٣.

لا يراه إلا المتنبي ضمن ظروفه النفسية، وعندما يصبح الخطاب حاملاً هذا البعد، تصبح العلاقة مـــع الكون علاقة عداء، وعلاقة اغتراب، يتمنىمن خلالها أن تهلك شمس هذا الكون، كما أهلك الكون شمسه.

ولأن الأهـــداف العامة لسنن هذا الكون قد تعارضت مع الأهداف الخاصة للمتنبي، أنكر هذا الفعل من الكون، واغترب عنه، وحمل له العداء لأنه قد آذاه، وبذلك أنتج لنا هذه الصورة التـــي تشعرنا بغرابتها، وحينها تعامل مع الفعل برؤيته الخاصة فجاءت صورته، وتخيله ضمن هذه الرؤية.

وقـــد ذهب ديفيد وايزمان في تحليله للشخصية لفهم البعد الشخصي للاغتراب بالتعرف إلـــى الأهداف الداخلية كمصدر لتوجيه الفعل من ناحية، والجانب الاجتماعي من ناحية أخرى، فـــيقول: " وبذلك يشير فهمنا لهذا الجانب إلى التأكيد على الجانب الموضوعي، والجانب الذاتي للفعـــل، ومـــن ثم تتطور معالجتنا لهذا الجانب بتحليل صراع الأهداف الشخصية والعامة، وبعد الـــتعرف علـــى درجة إلحاح الأهداف الشخصية بالنسبة لتوجيه الفعل، والسلوك المغترب، وفي ضوء ذلك نجد أن العديد من الاستخدامات لمـــفهوم الاغتراب تعالج الظاهرة كظاهرة فردية"[١]

ويبدو أن قضية الفقد عند المتنبي جعلته يعيش في حالة اغتراب عن هذا الفعل، فقد أخذ منه صدر الأم، والجدة، والمحبوبة، وهو في أمَسِّ الحاجة إليهن.

وقد ذهب محمود شاكر إلى أن كثيراً من شعره يحمل إشارات إلى فقد زوجته، ويؤرخ هذا الفقد بالمرحلة التي التقى فيها بسيف الدولة الحمداني، وأن هذا هو الذي أخره عن أن يلتحق بـــه، ثم بعد ذلك التحق به بعد أن نظَّم أمره، وأمر أسرته، وإن لم يرثِ زوجته فقد أثّر فيه مثل

---

(١)سيد علي- نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، ص٣٣٣.

هذا الفقد، وظهر في شعره إشارات إلى التفجع على فقد زوجه[١]، وهو بذلك يعزو سبب تأخره عن اللحاق بسيف الدولة لوفاة زوجته فيقول:" اجتمع على أبي الطيب كما ترى في أول صحبته لسيف الدولة أفراح قلبه بلقاء أمير العرب الذي أحبه، وأمّل فيه الخير، والبركة، والنصر لآرائه وأفكـــاره السياسية، وأحزان قلبه بفقد امرأته، ثم صغيره الذي جدَّد له ما بقلبه من أحداث الزمن ومصائبه من الآلآم، فكان تنازع الحزن والفرح في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة، سبباً في استخراج كوامنها، ومضموناتها، وذخائرها.

وأخـــذ أبـــو الطيب يروز ما عنده من العواطف والأفكار، ويتأمل ما تجدد في قلبه من المعانـــي التي ولّدتها الأفراح والآلآم، ويستوعب ما في ضميره من الأحداث القديمة التي تركت وسمها فيه، ويرمي ببصره إلى ما يستقبله في ظل سيف الدولة"[٢]

وكأن الدنيا من طبعها ألا تجعل قلب هذا الشاعر يفرح إلا وأحزنته بعزيز:

مولده يقابل موت أمّه — عودته تقابل موت الجدة .

لقاؤه بسيف الدولة يقابل موت الزوجة والولد .

عشقه وحبه يقابل موت المحبوبة خولة .

فَذي الدارُ أخوَنُ مِن مومِـــسٍ — وَأَخـــدَعُ مِن كَفَّةِ الحابــــلِ

تَفانى الرِجالُ عَلى حـــُـــبِّها — وَمـــا يَحصُلونَ عَلى طائــلِ [٣]

أَبَداً تَستَرِدُّ ما تَــهَــبُ الدُنــ — يا فَيا لَـيتَ جودَها كانَ بُخلا

---

(١)محمود شاكر، مرجع سابق، ص٣١٨-٣٢٢

(٢)المرجع نفسه، ص٣٢٢.

(٣)الديوان، ص٥٨٢.

فَكَفَت كَونَ فَرحَةٍ تورِثُ الغَمـــ   مَ وَخِلٍ يـــُـغادِرُ الوَجدَ خِلاّ

وَهيَ مَعشوقَةٌ عَلى الغَدرِ لاتَحـــ   فَظُ عَهــداً وَلا تُتَمِّمُ وَصلاّ(١)

د.خيبة أمله في الناسِ وقلة المعين

إذا كـــان حال المتنبي مع الدنيا هكذا، فإن حاله مع الناس لم يكن أفضل من ذلك، فكان على خلاف معهم، لأنه لم يجد فيهم المعين والناصر؛ بل قد ناصبوه العداء والحسد:

وَمِن نَكَدِ الدُنيا عَلى الحُرِّ أَن يَرى   عَدُوّاً لَهُ ما مِن صَداقَتِهِ بُدُّ(٢)

أعلن غضبه على الناس لأنه رسم لهم غير ما وجدهم عليه من عالم المثل فذمهم، يريد مـــنهم أن يكونوا رجالاً أشداء يسمون إلى المعالي، فإذا هم يعلنون نصرهم على جرذ فيسخر منهم:

لَقَد أَصبَحَ الجُرَذُ المُستَغيرُ   أَسيرَ المَنايا صَريعَ العَطَب

رَماهُ الكِـــنانِيُّ وَالعامِرِيُّ   وَتَـــلاهُ لِلوَجهِ فِعلَ العَرَب

كِلا الرَجُلَـــينِ اتَّلا قَتلَهُ   فَأَيُّكُمـــا غَـــلَّ حُـــرَّ السَلَب

وَأَيُّكُما كانَ مِـــن خَـــلفِهِ   فَإِنَّ بـــِهِ عَضَّـــةً في الذَنَب(٣)

وجـــاءت هذه السخرية سخرية موجعة(تضحك وتبكي في آن)، ويصف طه حسين هذه الأبيات فيقول: "فلن نرى سخرية ألذع من هذه السخرية، ولا هجاءً أمضّ من هذا الهجاء، ولن نرى أشد من هذا الازدراء للحضريين من أهل الكوفة المعاصرين له(٤)".

" ولا أظن المتنبي ضحك في حياته إلا عندما قال هذه الأبيات".

---

(١)الديوان، ص٨٢٣.

(٢)المصدر نفسه، ص٤٣٠.

(٣)المصدر نفسه، ص٦٦.

(٤)طه حسين، مرجع سابق، ٤١.

والمتنبـــي لـــم يقصـــد الضحك والإضحاك بهذه الأبيات بقدرما هو باكٍ من أفعال أهل الزمان، إنها السخرية المخزية التي تقلب الصورة، فكما أنه من العار أن يفاخر الرجلان في قتل جـــرذ وقــد فعـــلا، جعل المتنبي من هذا الجرذ فارساً لا يشق له غبار، وإذا به يستعظم فعلهما بطريقة (كاريكاتورية) لأنهما ظنا أن فعلهما عظيم.

وبمـــا أن حال الناس هكذا، وقد وصفها المتنبي من خلال رجلين من رجال هذا العصر بهـذه السخرية، فإن أفعال غيرهما لم تكن أفضل من هذا؛ لأنهم يستعظمون الصغائر، وهمتهم فاترة فازداد أسى المتنبي وذمَّ الزمان وأهله، وانتزع نفسه من بينهم مغترباً عنهم:

فُؤادٌ ما تُسَلّيــهِ المُـــدامُ وَعـــُمرٌ مِثلُ ما تَهَبُ اللِئامُ
وَدَهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِـــغارٌ وَإِن كانَت لَهُم جُثَثٌ ضِخامُ
وَما أَنا مِنهُمُ بِالعَيشِ فيهِم وَلَكِن مَعدِنُ الذَهَبِ الرَغامُ(١)

وقد وضع لنفسه قالباً معيناً وألزم نفسه بمثالية أراد أن يلزم الناس بها، فلم يتحقق له مثل ذلـــك الأمر فذم الناس، وأفرد نفسه من بينهم. وبذلك يكون المتنبي قد دخل في اغترابين، غربة مثاليته والتزامه بالنماذج، وغربة صراعه مع الناس(العالم الخارجي):

وَهَكَذا كُنتُ في أَهلي وَفي وَطَني إِنَّ النَفيسَ غَريبٌ حَيثُما كانا(٢)

ويمتد بهجائه من ذم الناس إلى ذم السلاطين، الذين تربعوا على عروش لا يستحقونها، ولكن ضعف الهمم، وقلة العقول أوصلتهم إلى هذه المناصب:

أَرانِبُ غَيرَ أَنَّهُمُ مُلوكٌ مُفَتَّحَةٌ عُيونُهُمُ نِيامُ(٣)

---

(١)الديوان، ص٢٥٠.

(٢)المصدر نفسه، ص٣٩٩.

(٣)نفسه، ص٤٣٠.

وقــد اتخــذ مــن الصورة البشريةصوراً شتى لكثير من الحيوان، وجعل من الصورة الحيوانية هذه أنماطاً من الضعف والقوة، واسماً بها أهل زمانه:

أرى أُناساً وَمَحصولي عَلى غَنَمٍ وَذِكرَ جودٍ وَمَحصولي عَلى الكَلِمِ[١]

لَوَ اِستَطَعــتُ رَكِبتُ الناسَ كُلَّهُمُ إِلى سَعيــدِ اِبنِ عَبدِ اللَهِ بُعرانــا[٢]

وإذا أراد أن يــرفع مــن ذم أهل زمانه درجة نقلهم من الصورة البشرية إلى الصورة الحيوانية التي تمثل جانباً من القوة :

أَذُمُّ إِلى هَذا الزَمــانِ أُهــَيلَهُ فَأَعلَمُهُم فَدمٌ وَأَحزَمُهُم وَغدُ

وَأَكرَمُهُم كَلبٌ وَأَبصَرُهُم عَمٍ وَأَسهَدُهُم فَهدٌ وَأَشجَعُهُم قِردُ[٣]

إن المتنبي يبرع في رسم الصورة أو اللوحة التي يمايز فيها بين مذهبه في الحياة، ومذهب الــناس، لأن أخلاقهم أخلاق حيوانات لئيمة حُكل، لا يكادون يفصحون، فيضطر لمعايشتهم وهو باكٍ ومشفق، لأنه يحمل الصورة البشرية التي يحملونها، ولهم نفس الهيكل، وإن اختلفت الأفكار والأخلاق، فكما أنه ينكر عليهم أخلاقهم فإنهم ينكرون عليه خلقه وفكره فيعذرهم بذلك.

وأرْحَمُ أقوَماً من العيِّ والغبى وأعْذُرُ في بُغْضي لأنهم ضِدُ

وأهــل الزمان رغم نقصهم لا يشعرون بهذا النقص، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، يتوجه بــاللوم إلى من يرى فيهم القدرة، ولكنها قدرة كلامية لا تتجاوز إلى الفعل، لأن سيوفهم مغمدة وألسنتهم مشرعة، والأمر يتطلب الجد والعمل:

مُحِبّي قِيامي ما لِذَلِكُمُ النَصلِ بَريئاً مِنَ الجَرحى سَليماً مِنَ القَتلِ[٤]

---

(١)الديوان، ص٤٣٠.

(٢)المصدر نفسه، ص٣٩٩.

(٣) نفسه، ص٤٣٠.

(٤) نفسه، ص٧٣.

ويلــوم أولــئك الذيــن يرضــون حياة الذل والمهانة، ولا يحركون ساكناً وكأنهم دائمو الإحــرام، فالمحرم يبتعد عن القتل والقتال مدة الحج فقط، بينما الضعيف دائم الإحرام، وماعليه ألاّ يخلع ضعفه، ويشد ساعده، ويقبض على سلاحه، متكلاً على ربه :

إِلى أَيِّ حــينٍ أَنــتَ في زِيِّ مُحرِمِ وَحَتّى مَتَــى فــي شِــقوَةٍ وَإِلى كَـــم
وَإِلا تَــمُت تَحتَ السُيــوفِ مُكَرَّماً تَــمُـــت وَتَــقــاسِ الذُلَّ غَيرَ مُكَــرَّمِ
فَثِب واثِقاً بِــالــلَهِ وَثبَةَ ماجِـــدٍ يَرى المَوتَ في الهَيجا جَنى النَحلِ في الفَمِ (١)

ويســتدل طــه حسين على قرمطية المتنبي بهذه الأبيات حيث يقول:" وأظهر قرمطيته العملية في هذه الأبيات الثلاثة التي قدمتها لك"(٢).

والــذي أراه فــي هذه الأبيات إنْ هو إلا تشبيه حال الناس بحال المحرم الذي يقعد عن ســفك الدماء طيلة أشهر الإحرام والحج، إلا أن المحرم يتحلل من إحرامه بعد انقضاء المناسك، بيــنما هــم فــي إحرام دائم، وما عليهم إلا أن يتحللوا من خوفهم وضعفهم ويعودوا إلى بارئهم متكلين عليه.

والمتنبــي قد ينتقل في هجائه من الناس إلى الدهر لأنه رضي على نفسه أن يضم مثل هؤلاء الناس:

وَقِلَّةِ ناصِرٍ جوزيــتَ عَنّي بِـــشَرٍّ مِنكَ يا شَرَّ الدُهورِ
عَدُوّي كُلُّ شَيءٍ فيكَ حَتّى لَخِلتُ الأُكمَ موغَرَةَ الصُدورِ (٣)

وقد يهجو المكان لأنه حوى من الناس الأدعياء والأقزام :

---

(١)الديوان، ص٧٥.

(٢)طه حسين، مرجع سابق، ص٩٠.

(٣)الديوان، ص٣٧٢.

وَفارَقتُ شَرَّ الأَرضِ أَهلاً وَتُربَةً بِها عَلَوِيٌّ جَدُّهُ غَيرُ هاشِمِ[١]

وبعـد أن يصـف بحيرة طبرية وصفاً جميلاً، يقول إن ثمة شيئاً يشينها ويعكر صفوها وهو جريانها على بلدٍ، والعيب ليس في البلد وإنما في سكان هذا البلد:

يَشينُها جَريُها عَلى بَلَدٍ تَشينُهُ الأَدعِياءُ وَالقَزَمُ[٢]

وهو مع ذلك لا يحابي بهذه القيم التي آمن بها وعادى من أجلها الناس، محاولاً تارة أن يسـتنهض هممهم، أو عاذراً إياهم، أو مفارقاً لهم حتى ولو كانوا أقرب الناس إليه، منكراً على الأجداد أن تكون أخلاق أحفادهم غير أخلاقهم رافضاً أن يكتفي بمجد أجداده، إنما يريد أن يصنع لنفسه مجداً :

وَأَنَفُ مِن أَخي لأَبي وَأُمّي إِذا ما لَم أَجِدهُ مِنَ الكِرامِ

أَرى الأَجدادَ تَغلِبُها كَثيراً عَلى الأَولادِ أَخلاقُ اللِئامِ

وَلَستُ بِقانِعٍ مِن كُلِّ فَضلٍ بِأَن أُعزى إِلى جَدٍّ هُمامِ[٣]

وإذ لم يجد المتنبي في المقام خيراً شد على رواحله وعزم على الرحيل، مستعظماً نفسه، يقلقـل سـكون الـناس وخضوعهم باعثاً فيهم الهمم، فإذا بالناس يتساءلون عن هذا الذي حرك سكونهم، ماذا يريد ؟:

تَغَرَّبَ لا مُستَعظِـماً غَيرَ نَفسِهِ وَلا قابِلاً إِلا لِـخـالِقِهِ حُكما

وَلا سالِـكاً إِلا فُؤادَ عَجاجَةٍ وَلا واجِـداً إِلا لِمَكرُمَةٍ طَـعما

يَقولونَ لي ما أَنتَ في كُلِّ بَلـدَةٍ وَما تَبتَغي؟ ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى[٤]

---

(١)الديوان، ص٤٥٦.

(٢)المصدر نفسه، ص٢٣٦.

(٣)نفسه، ص٩٥٦.

(٤) نفسه، ص٣٨٤.

إنهـــا الحركة الدائمة التي لا تعرف استقراراً، وتأنف المكان وتغادره لتصبح الألفة في الارتحـــال، وتتـــبدل علامات الانتماء، حيث أصبح الرحيل انتماءً، وظهرُ ناقته أرضُه، فالقلق الفكـــري واهتياج الأفكار بداخله وأمل تحقيقها، أدى به إلى هذا الرحيل القلق الذي لا يعرف له وجهة:

أَلِفتُ تَرَحُّلي وَجَعَلتُ أَرضي قُـــتودي وَالغُرَيرِيَّ الجُلالا

فَما حاوَلتُ في أَرضٍ مُقاماً وَلا أَزمَعتُ عَن أَرضٍ زَوالا

عَلى قَلَقٍ كَأَنَّ الريحَ تَحتـــي أُوَجِّهـــــُـها جَنوباً أَو شَمالا (١)

ولأن الفكـــر هو الذي يحرك الإنسان، ويمتد به عبر الزمان والمكان، فقد عبر المتنبي عن ذلك بأن سكونه لا يعني سكون فكره:

أُعادي عَلى ما يوجِبُ الحُبَّ لِلفَتى وَأَهدَأُ وَالأَفكارُ فِيَّ تَجولُ (٢)

إن فهم هيجل للاغتراب الذاتي لا يكاد يبتعد عن هذه الأبيات، فيقول:

" إن الأهـــداف لـــيس لها مكان إلا أفكارنا وتحقيقها وهو العنصر الثاني للفعل يقتضي عنصـــراً ثالـــثاً يتمثل في الإرادة، أي فاعلية الإنسان بأوسع المعاني، وذلك لأن القوة التي تدفع الأهداف إلى العمل وتكسب وجوداً محدداً، هي حاجة الإنسان، وميله، وانفعاله، وذلك لأن تحول أي فكـــرة لدي إلى فعل ووجود، يتمثل في رغبتي الحادة في تأكيد شخصيتي بالنسبة لها، وفي إرضـــاء ذاتـــي بتنفيذها، ومن ثم كي أبذل جهدي في سبيل هدف ما، لا بد أن يكون ذلك هدفي بمعنى من المعاني، ولا بد لتحقيق الفاعل لهذا الهدف، أو ذاك أن يجد نية إرضاء له"(٣)

---

(١)الديوان، ص٣٢٤.

(٢)المصدر نفسه، ص٧٤٠.

(٣)إيكن هنري- عصر الأيديولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، ص ١١٦.

ومن ثم فإن الفكر الذي يحمله المتنبي، وعدم قدرة الناس على فهمه، أو التعامل معه من أجل تحقيقه أدى به إلى القطيعة بينه وبين الناس، فذم الناس، وذم الزمن، والدنيا .

يقـول علـي شلق: " لأبي الطيب هجاء مبثوث ... وأخطر ما فيه هجو الزمن والناس والحـياة جملة، وذلك نوع من وعي المصير، ورفض الواقع، واتهام الوجود باللاجدوى، والإثم قبل أن تتركز الوجودية المعاصرة فلسفة عدمية، أو التزامية[١].

الآخـرون عـبء عليـنا، أشواك في وجوهنا، والتخلص منهم صعب، والاندماج فيهم أصـعب، فلم يبق إلا التجمل والصبر، والنظر إليهم كلا شيء، إلا في الحال التي يكونون عليها ممهديـن لطريقنا، وهذه الطريق بطبيعتها مزروعة بالتكاليف والشقاء، وهذا الدهر" شر الدهور" مطـرقة لسـحقنا، أفنسـتكين ؟ كـلا بل لنزحف فلا موقف إلا موقف الصراع حتى المصير المحتوم."[٢]

ومشـكلة المتنبـي لـم تتجسـد فقط مع الدهر والناس حين أظهر قلة قدراتهم العقلية، وضعفهم، بل امتد الأمر به إلى وجود الحساد الذين زادوا في تنغيص عيشه، لأنه يجدهم في كل مكان يحل به، حتى انه أطلق اسم(مُحَسَّد) على ابنه لكثرة ما عانى من الحساد، فهو بين مقاوم لهم ، وبين معترف بهم، ولائم لهم، إنهم كالمرض العضال الذي لا دواء له، فهو لا يدري علام يحسـدونه، أعلـى حياته؟ أم على مصائبه؟ ولكن هيهات لهذا الحاسد الأحمق أن يلحق به لأنه فـرس أصـيل، تجاوزه وأطلق خلفه الغبار، وهو البرق بسرعته فلا يجارى، وإذا بهذه الأبيات تمتد عبر ديوانه :

هو عقوبة لهم : إني وإن لمت حاسديَّ فما أنـكر أني عقوبة لهم

---

(١)علي شلق- المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً تأسر الزمان، ص٨٧.

(٢)المرجع نفسه، ص٨٧.

وَكَيفَ لا يُحسَدُ امرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلى كُلِّ هامَةٍ قَدَمُ[١]

وهم لا يستطيعون لحاقه:

فَأَبلِغ حاسِدِيَّ عَلَيكَ أَنّي كَبا بَرقٌ يُحاوِلُ بي لَحاقا[٢]

إِذا شاءَ أَن يَلهو بِلِحيَةِ أَحمَقٍ أَراهُ غُباري ثُمَّ قالَ لَهُ الحَق

وَما كَمَدُ الحُسّادِ شَيئاً قَصَدتُهُ وَلَكِنَّهُ مَن يَزحَمِ البَحرَ يَغرَقِ[٣]

إنه لا يقصد هؤلاء الناس، وإنما هم الذين يتطاولون فيغرقون في بحر فنّه. ومثل هؤلاء لقمة سائغة على مائدة المتنبي قادر على كشف معادنهم ونفسياتهم:

إِذا ما الناسُ جَرَّبَهُم لَبيبٌ فَإِنّي قَد أَكَلتُهُمُ وَذاقا

فَلَم أَرَ وُدَّهُم إِلا خِداعاً وَلَم أَرَ دينَهُم إِلاّ نِفاقا[٤]

ولكن الحساد يتكاثرون على المتنبي مع اشتداد المصائب عليه مع ذلك لا ينالون منه :

قَليلٌ عائِدي سَقِمٌ فُؤادي كَثيرٌ حاسِدي صَعبٌ مَرامي[٥]

والناس يحسدونه وهم لايدرون أنهم يحسدونه على مصائبه التي تبكيه :

ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُهُ أَنّي بِما أَنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ

إِنّي نَزَلتُ بِكَذّابينَ ضَيفُهُمُ عَنِ القِرى وَعَنِ التَرحالِ مَحدودُ[٦]

فَلَو أَنّي حُسِدتُ عَلى نَفيسٍ لَجُدتُ بِهِ لِذي الجَدِّ العَثورِ

وَلَكِنّي حُسِدتُ عَلى حَياتي وَما خَيرُ الحَياةِ بِلا سُرورِ[٧]

---

(١)الديوان، ص٢٥٣.

(٢)المصدر نفسه، ص٦١٨.

(٣) نفسه، ص٧١٥.

(٤) نفسه، ص٦١٥.

(٥) نفسه، ص٩٥٦.

(٦) نفسه، ص٩٧٧.

(٧) نفسه، ص٣٧٢.

وإن كـــان هذا هو حاله في الغربة فليس حاله في بلده، وبين أهله ليس بأفضل من ذلك، فهو فريد، لذلك هو يُحْسد:

إذا قَدِمتُ عَلى الأهـــوالِ شَيَّعَني قَلبٌ إذا شِئتُ أن يَسلاكُمُ خانا

أبدو فَيَسجُدُ مَن بِالسوءِ يـَذكُرُني وَلا أُعاتِبُهُ صَـــفحاً وَإهوانا

وَهَكَذا كُنتُ في أهلي وَفي وَطَني إنَّ النَفيسَ غَريبٌ حَيثُما كانا

مُحَسَّدُ الفَضلِ مَكذوبٌ عَلى أثَري أَلقى الكَمِيَّ وَيَلقاني إذا حانا[1]

وإذا بالحساد جواسيس وعيون عليه، وإذا بالليل يشعر معه ويقاسي:

كـــأنَّ الجَوَّ قاسى مـــا أُقاسي فَصارَ سَوادُهُ فيهِ شُحوبا

كَأنَّ دُجـــاهُ يَجذِبُها سُهـــادي فَلَيسَ تَغيبُ إلا أن يَغيبـــا

أُقَلِّبُ فيهِ أجـــــفاني كَأنّي أُعَدُّ بِهِ عَلى الدَهرِ الذُنوبا

وَما لَيلٌ بِأطوَلَ مِـــن نَهارٍ يَظَلُّ بِلَحظِ حُسّادي مَشوبا

وَما مَوتٌ بِأبغَضَ مِن حَياةٍ أرى لَهُمُ مَعي فيها نَصيبا

عَرَفتُ نَوائِبَ الحَدَثانِ حَتّى لَوِ انتَسَبَت لَكُنتُ لَها نَقيبا [2]

إن رؤيـــة الشاعر لهؤلاء الحساد جعلته يرسم لهم صورة مفزعة فقد سدوا عليه طرقه ومـــنافذ عيشه حتى أن الدنيا اسودّت في وجهه، ولن يجد مفراً منهم فهم كالمرض الذي يلازمه ليلاً ونهاراً، وما الموت بأفضل من الحياة إذا شاركوه فيه، فإذا كان للإشراف نقيب، فإن المتنبي نقيـــب المصائب، وعلى الرغم من ذلك فإنه يبقى الشاعر وغيره الشويعر ولن يضره ذلك شيئاً فإن كانوا يحاولون طمسه بحسدهم ودسائسهم فإنه يعلن عن ذاته بشعره.

---

(١)الديوان، ص٣٩٨.

(٢)المصدر نفسه، ص٤٢٢.

أفي كُلِّ يَومٍ تَحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ [(١)]

والممدوح فضَّله عليهم، فجعلهم يحسدونه وما عليه أن يكبتهم:

أزِل حَسَدَ الحُسّادِ عَنّي بِكَبتِهِم فَأَنتَ الَّذي صَيَّرتَهُم لِيَ حُسَّدا[(٢)]

ويتمنى على ممدوحه أن يعمل سيوفه بالحساد كما يعملها بالأعداء:

فَلَيتَ سُيوفَكَ فـــي حـــــاسِدٍ إِذا ما ظَهَرتَ عَلَيهِم كَئـــب

وَلَيتَ شَكاتـــــكَ في جِســـمِهِ وَلَيتَكَ تَجزي بِبُغضٍ وَحـــُب

فَلَو كُنتَ تَجزي بِهِ نِلتُ منــــ كَ أَضعَفَ حَظٍّ بِأَقوى سَبَب[(٣)]

فـــإذا بالحســـد والحســـاد داء لا يقدر عليه الشاعر، ولا يقدر عليه الممدوح الذي يطيح بـــرؤوس الأعداء، فيوصله الأمر إلى حكمة مفادها أن الحسد داء عضال مقره القلب، ولا دواء له، وأن الحاسد لا مودة عنده لمن يحسده، وإن حاول أن يبدي ذلك، وأن المحسود يجب عليه أن يكون حذراً، ولا يطمع من حاسده بتلك المودة وإن أبداها له:

أُعادي عَلى ما يوجِبُ الحُبَّ لِلفَتى وَأَهدَأُ وَالأَفــكارُ فِيَّ تَجولُ

سِوى وَجَعِ الـــحُسّـــــادِ داوِ فَإِنَّهُ إِذا حَلَّ فـــي قَلبٍ فَلَيسَ يَحولُ

وَلا تَطمَعَن مِن حـــاسِدٍ في مَوَدَّةٍ وَإِن كُـــــنتَ تُبديها لَهُ وَتُنيلُ [(٤)]

وإذا كـــان هذا الداء يصيب الأجسام فلا ضير، على أن لا يتعرض للأعراض، أو يغير الأفكار التي تجول في عقولنا، لأننا نقدم أرواحنا فدىً لها، ونعتبر ذلك قليلاً:

---

(١)الديوان، ص٧٧٠.

(٢)المصدر نفسه، ص٧٥٠.

(٣) نفسه، ص٨٧٨.

(٤)نفسه، ص٧٣٧.

وَإنّا لَنَلقى الحادِثـــاتِ بِأنفُسٍ كَثيرُ الرَزايا عِندَهُنَّ قَليلُ

يَهونُ عَلَينا أن تُصابَ جُسومُنا وَتَسلَمَ أعراضٌ لَنا وَعُقولُ(١)

وإذا كان المتنبي قد ذم الناس بسبب ضعفهم، وقلة حيلتهم، وعدم مقدرتهم على مواجهة الأمـــور، وافتخارهم بصغائر الأمور، وذم الدهر ببعديه الزماني والمكاني لأنه ضم مثل هؤلاء الـــناس، وقـــد حاول أن يغير فيهم بلا جدوى، فاتهم هذا الوجود بتآمره وتمالُئه عليه رافضاً إياه لأنه شر الدهور:

وَقِلَّةِ ناصِرٍ جوزيتَ عَنّي بِشَرٍّ مِنكَ يا شَرَّ الدُهورِ(٢)

فقـــد هجـــا المتنبـــي أشخاصاً بأعينهم هجاءً مقذعاً يصل إلى ذكر الأعراض وشتمها ، ووصفها بأبشع الأوصاف تدل على نزق المتنبي ، وإسفافه عندما هجا ضبة :

ما أنصَفَ القَومُ ضَبَّة وَأُمَّهُ الطُرطُبَّة(٣)

وهجا ابن كيغلغ مثل هذا الهجاء الذي يتعرض للأعراض، بعد أن يقدم لقصيدته بمقدمة حكمية:

لِهَوى النُفوسِ سَريرَةٌ لا تُعلَمُ عَرَضاً نَظَرتُ وَخِلتُ أَنّي أَسلَمُ(٤)

وضمنها هذه الحكمة الرائعة :

ذو العَقلِ يَشقى في النَعيمِ بِعَقلِهِ وَأَخو الجَهالَةِ في الشَقاوَةِ يَنعَمُ(٥)

وإذا به بعد أبيات يخوض في عرض ابن كيغلغ، ويسف أيما إسفاف، وكأنك ترى بحراً

---

(١)الديوان، ص٧٣٧.

(٢)المصدر نفسه، ص٣٧٢.

(٣)نفسه، ص١٠٢٠.

(٤) نفسه، ص٤٩٠.

(٥)نفسه، ص٤٩.

هادئـاً فـي بدايـة هذه القصيدة، إلى أن يصل البيت الذي يقول فيه:(يحمي ابن كيغلغ الطريق وعرسه)[١] ، وإذا بالأمواج تتلاطم في نفس المتنبي فتخرج من طمي البحر المنتن أقذع الألفاظ، فتصم أذني السامع، فيعتو بأمواجه إلى أن يصل بقوله:

وَإذا أَشارَ مُحَدِّثاً فَكَأَنَّهُ قِردٌ يُقَهقِهُ أَو عَجوزٌ تَلطِمُ[٢]

ثم تخف حدة نفسه في هجائه لهذا الشخص بأنه قد جاوز قدره عندما طلب المديح وكأنه أفرغ شحنته من خلال هذا الإقذاع في القول، وحال لسانه يقول" اطرق الباب تسمع الجواب ":

أَرسَلتَ تَسأَلُني المَديحَ سَفاهَةً صَفراءُ أَضيَقُ مِنكَ ماذا أَزعُمُ[٣]

ومن بين الذين هجاهم وقد آذوه وردان الطائي عندما مر به محاولاً أن يؤلب عليه عبيده عـن طـريق زوجته، فأقذع له في القول، وتعرض لذكر عرضه، وأنه يتكسب بإباحة عرضه للناس:

أَشَذَّ بِعِرسِهِ عَنّي عَبيدي فَأَتلَفَهُم وَمالي أَتلَفوهُ[٤]

وإنْ تعـرَّضَ المتنبـي لذكر أعراض مهجويه، نجده تعرَّضَ لغيرهم بصفاتهم الجسدية، عندما هجا ابن كرّوس الأعور ، وكافور الإخشيدي العبد الأسود .

فـبعد أن اعتد المتنبي بشجاعته وفروسيته، وأنه أحب وطءَ أرض المعارك، ولم يركن إلـى النسـاء والتنعم بهن، وذكر ترحله ، وأنه ألف السير في الليل كأنه القمر المنير، وذم هذا الدهـر الذي ناصبه العداء، وأنه محسود حتى على عمره، تعرض لهجاء ابن كرّوس الذي كان يؤذيه عند بدر بن عمار، فيقول فيه:

---

(١)الديوان، ص٤٩١.

(٢)المصدر نفسه،ص٤٩١.

(٣)نفسه ، ص٤٩١.

(٤)نفسه، ص٩٨٣.

فَيا ابنَ كَرَوَّسٍ يا نِصفَ أعمى وَإِن تَفخَر فَيا نِصفَ البَصيرِ

تُعـــاديـــــنا لأنّا غَيرُ لُكنٍ وَتـــــُبغِضُنا لأنّا غَيرُ عورِ

فَلَو كُنتَ امرَأً يـــُهجى هَجَونا وَلَكِن ضـــاقَ فِترٌ عَن مَسيرِ(١)

ثـم نصـــل إلى هجاء كافور هذا الذي مدحه مدحاً مبطناً ذا وجهين: مديح وهجاء؛ لأن المتنبي عندما غادر إلى كافور كانت تتنازعه أهواء شتى، فنفسه بكبريائها، تأنف عليه أن يذهب إلـــى ذاك العبد الأسود، ولكن أمله في أن يحصل على ما يريد، جعله يذهب إليه ويضغط على كـــبريائه، وكأنـــه أصبح في صراع ما بين " الأنا الأعلى "و" الأنا "فجاءت قصيدته" أغالب فيك الشوق" تمثل هذا الصراع:

أُغالِبُ فيكَ الشَوقَ وَالشَوقُ أَغلَبُ وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصلُ أَعجَبُ

أَما تَـــغلَطُ الأَيّامُ فِيَّ بِأَن أَرى بـــَغيضاً تُنائي أَو حَبيـــباً تُقَرِّبُ(٢)

أن مـــرحلة المتنبـــي فـــي ديار كافور قد تجسدت فيها الغربة النفسية، حيث تعارضت شخصـــيته الذاتية مع مُثُلِهِ التي كان ينادي بها قبل ذلك في سائر أشعاره، وهذا الصراع أدى به إلـــى أن يبطـــن مدحه بالهجاء، وإنك لترى هذا الصراع النفسي في مطلع قصيدته آنفة الذكر، وتلاحظ تنازعه ذلك في أبيات القصيدة، إذ يقول :

فَإِن لَم يَكُن إِلاّ أَبو المِسكِ أَو هُمُ فَإِنَّكَ أَحلى في فُؤادي وَأَعذَبُ(٣)

فرغم هذا المديح الطيب ، إلا أن تنازع الأمر بداخله جعله يرتد إلى مديح مبطن بهجاء مؤلم مضحك :

---

(١)الديوان، ص٣٧٢.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٣٥.

(٣)نفسه، ص٢٩٦

وَما طَرَبي لَمّا رَأَيتُكَ بِدعَةً لَقَد كُنتُ أَرجو أَن أَراكَ فَأَطرَبُ[١]

إن هــذا الصــراع الذي كان داخل أبي الطيب جعله يصبِّر نفسه، ويقبل لها ما لم يكن يقــبله، وعندها أصبح يعاني من أمرين: عدم رضاه عن نفسه التي كان من أجلها يحتقر جميع خلــق الله ، لأنهم دونه ، وعدم رضاه عن ممدوحه وهو عبد أسود ، ولكنه باتباعه هواه انحدر إلى مدح مثل هذا العبد ، وصبَّر نفسه، فهو لم يأتِ إلا ليشاهد أمراً مضحكاً :

أُريكَ الرِضا لَو أَخفَتِ النَفسُ خافِيا وَما أَنا عَن نَفسي وَلا عَنكَ راضِيا

تَظُنُّ اِبتِساماتي رَجــــاءً وَغِبطَةً وَمــــا أَنا إِلاّ ضاحِكٌ مِن رَجائِيا

فَإِن كُنتُ لا خَيراً أَفَدتَ فَإِنــــّني أَفَدتُ بِلــــَحظي مِشفَرَيكَ المَلاهِيا

وَمِثلُكَ يُؤتى مِن بِلادٍ بَعيــــــدَةٍ لِيُضحِكَ رَبــــــّاتِ الحِدادِ البَواكِيا[٢]

إنها مرحلة من عدم الاتزان، جعلت اللغة تقف موقف النقيض من قائلها، وتخلخل بنيته النفسية، لأنه يفعل ما يرفضه، فبدأ يحاسب ذاته (أو أناه) التي اعتَدَتْ على الأنا الأعلى، وعلى المُثُلِ التي كان يترسمها، وعندما استشعر هذا الشرخ الذي كاد يمزقه بين مُثُلِه وأناه، وجد المنفذ الذي يوائم بين صراعاته، إنه لم يأت إلا ليضحك من هذا العبد، فمثله يُضحِك النساء الثاكلات، هذا المنفذ جعله يتماسك، ويجد المبرر أمام أناه الأعلى، حتى لا يقع رهين هذا الصراع النفسي.

هــو لا يرضى أن يمدح مثل هذا العبد ، ومع ذلك يفعل ويُرجِع الأمر في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الذي يدبر الأمر :

---

(١)الديوان، ص٩٧٣. قال ابن جني : لما قرأت على أبي الطيب هذا البيت قلت له : أجعلت الرجل أبا زنّة ؟. فضحك لذلك ، شرح الواحدي (٩٤٣)

قول محمد مندور: "فالمدح المبالغ فيه لا يمكن أن يفلت من مجاورة الذم أو الانقلاب إليه على نحو ما هو واضح في كثير من شعره في كافور " النقد المنهجي عند العرب ، (١٩٥) ولي رأي في مدائح المتنبي في كافور وفي ابن العميد وعضد الدولة ، سأبسطه في الفصل الذي أتحدث فيه عن ضمير المخاطب أو الغائب في شعر المتنبي

(٢)الديوان،٨٩٤

وَلِلَّهِ سِـــرٌّ في عُلاكَ وَإِنَّما   كَلامُ العِدا ضَربٌ مِنَ الهَذَيانِ

قَضى اللَهُ يا كافورُ أَنَّكَ أَوَّلٌ   وَلَيسَ بِقاضٍ أَن يُرى لَكَ ثانِ [١]

إنهـــا أبيات رغم محاولاته أن يتماسك أمام هذا العبد السيد ورأس الدولة، إلا أنها تنفلت مـــنه كأصدق ما تكون النفس مع ذاتها، فهو لم يتعود المحاباة والادعاء، وعندما حاول أن يرغم نفسه على ذلك، أبت عليه أن تنصاع له، وهل حقيقة أن كافور فوق المدح، أم أنه إذا مُدِحَ تحول مدحه إلى ذم؟:

تَجاوَزَ قَدرَ المَدحِ حَتّى كَأَنَّهُ   بِأَحسَنِ ما يُثنى عَلَيهِ يُعابُ[٢]

الـــناس تمـــدح بالأصل وهو عبد، والناس تمدح بالإشراق والبياض وهو أسود، فإذا ما مدحته بذلك أكون قد عبتُه، وبَيَّنْتُ هذه المعايب، وما أظن المتنبي إلا قد فعل:

تَفضَحُ الشَمسَ كُلَّما ذَرَّتِ الشَمـــ   سُ بِشَمسٍ مُنيرَةٍ سَوداءِ[٣]

إن قـــدرة المتنبـــي علـــى محاورة اللغة، وجعلها قادرة على الامتداد بين قطبي المديح والهجاء قدرة عجيبة، إنها اللغة الساحرة التي قد تؤذي أكثر من الهجاء نفسه:

يا رَجاءَ العُيونِ في كُلِّ أَرضٍ   لَم يَكُن غَيرَ أَن أَراكَ رَجائي[٤]

---

(١)الديـــوان، ص٩٥١-٩٥٢، وصـــف الثعالبي هذه الأبيات بقوله ومنها قبح المقاطع كقوله بعد أبيات أحسن فيها نهاية الإحسان وترقى الدرجة العالية ...وذكر الأبيات) يتيمة الدهر، ج١، ص٢١٦. بينما وصف ابن فورجة هذه القصيدة بقوله: وهـــذه القصيدة من أولها إلى آخرها هجوٌ (لكافور) ومدح لشبيب، ومعرضها مدح كافور وذمُّ شبيب، فتأمل، فالصنعة فيها عجيبة جداً. الفتح على أبي الفتح، ٣٤٠. ويبدو أن كافور قد استشعر مثل هذا التعريض عندما قال المتنبي:

وقد قتل الأقران حتى قتلته   بأضعف قرنٍ في أذل مكان

قال أبو الفتح: فقال كافور: لا والله إلا بأشد قرنٍ في أعز مكان، فرواه الناس كقول كافور (شرح العكبري للديوان ج٤/ ص٢٤٤.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٦٤

(٣)المصدر نفسه، ص٨٩٦.

(٤)المصدر نفسه، ص٨٩٦.

وقــد برع المتنبي في استخدام مثل هذه اللغة الساخرة في مدحه كافور الإخشيدي، وإن كان لها أصول في شعره قبل هذا، عندما كان في ديار بدر بن عمار، حيث يقول:

يا بَدرُ إنَّكَ وَالحَديثُ شُجونُ مَن لَم يَكُن لِمِثالِهِ تَكوينُ

لَعَظُمتَ حَتّى لَو تَكونُ أَمانَةً ما كانَ مُؤتَمَناً بِها جِبرينُ[١]

وتنــبه محمــود شــاكر لقضية المديح الذي يحمل بعدين، أو المديح الساخرعندما ذهب المتنبي لأرض فارس ومدح عضد الدولة بقصيدته:

مَغاني الشِّعبِ طيباً في المَغاني بِمَنزِلَةِ الــرَبيعِ مِنَ الزَمانِ

وَلَكِنَّ الفَتى العــــــرَبِيَّ فيها غَريبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللِسانِ

مَلاعِبُ جِنَّةٍ لَو سارَ فــــيها سُــــلَيمانٌ لَسارَ بِتَرجُمانِ[٢]

حيــث قال: " فهذا هجاء بيِّنٌ لأرض فارس وأهلها، فقد زعم أن سليمان (عليه السلام) الــذي عُلِّــمَ منطق الجن، والطير، والحشرات، والبهائم، لو دخل أرضهم لاحتاج إلى ترجمان، فأخــرجهم بذلــك مــن منزلة من ذكرنا، وجعلهم دونهم، وأنهم من هوانهم على الله وقلتهم في الأرض لم يعلِّم اللهُ سليمانَ لغتهم، وليس يخفى هذا على مثل عضد الدولة"[٣].

وقــد عقد محمود شاكر في كتابه "المتنبي" عدة صفحات يتحدث فيها عن مدائح كافور، وما تضمنته من هجاء، فيقول :

" ..... لم يجد بداً من أن يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصي، علَّه يصيب عنده

---

(١)الديوان، ص٣٥٥.

(٢)المصدر نفسه، ص١٠٩٤.

(٣)محمود شاكر ، مرجع سابق، ص ٣٨٣.

مــا فاتــه عند غيره من الفحول البيض، وعزّى نفسه بذلك، ولكنها أبت عليه أن تكون خالصة لكافور، فرمت في وجه كافور بأبياتها لا أبيات أبي الطيب:

كَفى بِكَ داءً أن تَرى المَوتَ شافِيا وَحَســبُ المَنايا أن يَكُنَّ أمانِيا

تَمَنَّيتَها لَمّا تَمَنَّيتَ أن تَـــرى صَـــدِيقاً فَأعيا أو عَدُوّاً مُداجِيا

واستقبل كافور بهذين البيتين هجاءً دونه كل هجاء، فيه إقذاع وفحش وسخرية وتهكم"[١].

" ثم يقول في البيت التالي :

يا رَجاءَ العُيونِ في كُلِّ أرضٍ لَم يَكُن غَيرُ أن أراكَ رَجائي

ثــم يجعلــه بعد ذلك رجاء العيون في كل أرض، وذلك لأنه عجيبة من عجائب الدهر، وتدبــر كل شعر الرجل في مدح كافور، تجد مثل ذلك بيّناً دالاً على نفسه، وتنبه لألفاظ الرجل فإنها هي التي كان يطوي تحتها معاني تهكمه بكافور، كقوله: (يا رجاء العيون)، وتنبه إلى قلبه المعانيَ ولفتها عن وجوهها[٢]."

ويستشــهد محمود شاكر في البيتين التاليين على قضية قلب المعاني ، وإخراج الذم بما يشبه المدح :

وَما كُنتَ مِمَّن أدرَكَ المُلكَ بِالمُنى ولَـــكِن بِأيّامٍ أشَبنَ النَواصِيا

عِداكَ تَراها في البِلادِ مَـــساعِياً وَأنتَ تَراها في السَماءِ مَراقِيا [٣]

" وهــذا البيــت الأخير تعريض بسقوط همة كافور، وليس بمدحٍ، وكان حق المعنى أن يكون:

---

(١)محمود شاكر ، مرجع سابق ، ص٣٦٢.

(٢)المرجع نفسه، ص٣٦٥.

(٣)الديوان، ص٨٨٦.

وغـــادر مصر وذمَّ أهلها، وكان هجاؤه مشوباً بحزن وحكمة تنم عن جرح سبر أعماق نفســـه، فجعله في حالة سكون كأنه لا يريد لهذا الجرح أن يتحرك حتى يلتئم، إنها حالة السكون التي تعيد للنفس اتزانها لتنطلق من جديد، بعد أن تنفث ما بداخلها من ألم وحقد لتواصل المسير:

عيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ بِما مَضى أَم لأَمرٍ فيكَ تَجديدُ[١]

إنهـــا حالة الحزن في وقت الفرح، والرغبة في كسر هذا الحزن، والرغبة في التجديد، ولكـــنه الواقـــع المؤلـــم الذي يقيد هذا الانطلاق، لأن جميع هذه المعطيات ضد رغبته، الأحبة بعـــيدون، والكأس الذي يُفْرِح يتحول إلى كأس همٍ وتسهيد،هذه حال الشاعر، وما على المشاعر إلا أن تتجمد وتتحجر، حتى لا يزداد تفتتاً:

أَصَخرَةٌ أَنا مالي لا تُحَرِّكُني هَذي المُدامُ وَلا هَذي الأَغاريدُ[٢]

وبعـــد ذلك تثور اللغة متفجرة بتفجر صاحبها، وتتبثق لهباً في وجوه من فعلوا به ذلك، وتركوه على مثل هذه الحال:

إِنّي نَزَلتُ بِكَذّابـــــــينَ ضَيفُهُمُ عَنِ القِرى وَعَنِ التَرحالِ مَحدودُ

ما يَقبِضُ المَوتُ نَفساً مِن نُفوسِهِمُ إِلاّ وَفـــي يـــــَدِهِ مِن نَتنِها عودُ

أَكُلَّما اِغتالَ عَبدُ السوءِ ســـــَيِّدَهُ أَو خانَهُ فَلَهُ في مـــــصرَ تَمهيدُ

صارَ الخَصِيُّ إِمامَ الآبِقيـــنَ بِها فَالحُرُّ مُستَعبَدٌ وَالعَبـــــدُ مَعبودُ

نامَت نَواطيرُ مِصرٍ عَن ثَعالِبِها فَقَد بَشِمنَ وَما تَفنى العَناقيـــــدُ[٣]

---

(١)الديوان، ص٩٧٧.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٧٧.

(٣)المصدر نفسه، ص٩٧٧-٩٧٨.

إنـــه هذيان الفكر، وغلواء النفس، الذي أشعل في الكلمات لهيباً حارقاً يقذف به وجه من آذاه، إنـــه فــن اللعــب بالكلمات في حالة الرضى وحالة السخط، فإذا بها تسير مسير النار في الهشيم، فلا تبقي ولا تذر:

العَبدُ لَيسَ لِحُرٍّ صــــالِحٍ بــأَخٍ   لَــوَ أَنَّهُ في ثِيابِ الحُرِّ مَولودُ
لا تَشتَرِ العَبدَ إِلاّ وَ العَـصا مَعَهُ   إِنَّ العــــبيدَ لأنجاسٌ مَناكيدُ
مَن علَّمَ الأَسوَدَ المَخصِيَّ مَكرُمَةً   أَقَومُهُ البيــضُ أَم آبائُهُ الصيدُ

وجـــاء في مجمع الأمثال (إن من البيان لسحراً)[1]، واستطاع المتنبي ببيانه الساحر أن يخــتزل كــافوراً ويجعله عبداً فقط، وليس له إلا العصا، ولكنه السيد المطاع في مصر، فأصبح الأمر مضحكاً مبكياً، شكلاً من أشكال الهستيريا، ضحك كالبكاء، لأن المعادلة أصبحت مقلوبة :

وَماذا بِمِصرَ مِنَ المُضحِكاتِ   وَلَكِنَّهُ ضَحِــكٌ كــالبُــكا
بِها نَبَـــطِيٌّ مِنَ اهلِ السَوادِ   يُدَرِّسُ أَنســـابَ أَهلِ الفَلا
وَأَسوَدُ مِـــشفَرُهُ نِـــصفُهُ   يُقالُ لَهُ أَنــــتَ بَدرُ الدُجى
وَشِعرٍ مَدَحــتُ بِـــهِ الكَركَدَ   نَّ بَينَ القَريضِ وَبَينَ الرُقى
فَما كانَ ذَلِـــكَ مَـدحاً لَهُ   وَلَكِنــــهُ كانَ هَجوَ الوَرى[2]

العبد أصبح سيداً، والأسود صار بدر الدجى، وشعر المديح أمسى رقية، والضحك بكاء، ومدح مثل هذا الشخص أصبح ذماً للناس .

---

(١)أبو الفضل الميداني- مجمع الأمثال، ج١،ص٧.
(٢)الديوان، ص٩٨٩.

ومـــن الملاحـــظ علـــى هجـــاء المتنبي أنه يمهد له بحكمة يحاول من خلالها أن يكسبه مشروعية ما ذهب إليه من هجاء حيث ينفث كمدات صدره.

وقد ذهب زهدي الخواجا إلى أن " اتجاهات المتنبي الحكمية في الهجاء تنبع من وجدان معـــذب يحاول فيه أن يثأر للكرامة الممتهنة، فازدرى واحتقر كل من عاداه ، ولهذا جاء هجاؤه فاحشاً يصدرعن نفس مشمئزة ، ساخطة على البشر[١]".

" والمتتـــبع قصائد الهجاء عند المتنبي، يجد أنه يحاول أن يجرد المهجو من كل فضيلة ومكـــرمة، وفـــي هجائـــه إيلام، وكلماته كأنها السهام القاتلة، فيفتك بالمهجو بلا رحمة، ويثير الســـخرية به، ويجر المستمع أو القارئ إلى الضحك على المهجو رغم أنه قد يشمئز لألفاظ في غاية السفالة، وعدم الاحتشام [٢]".

والمتنبي قد جانب الصواب في هجائه للناس عامة، أو لبعض الشخصيات بأعيانها، لأن لهـــا قوة سياسية، أو قوة قبلية من جانبين: الأول أنه يؤلب الناس عليه، وقد كان مصرعه بدير العـــاقول كمـــا يروى بسبب هجاء ضبة على يد خاله فاتك الأسدي[٣]، أو أنه قتل بمكيدة دبرها عضد الدولة عقب خروجه من عنده خوفاً من أن يهجوه كما فعل مع كافور الإخشيدي، أو سهل الطـــريق لقاتليه والمتآمرين عليه من أجل أن يقتلوه على أن لا يفعلوا ذلك بدياره، فأكرمه وبالغ في إكرامه عندما خرج من عنده، وعلى ما يبدو فإنَّ المتنبي قد استشعر مثل هذا الأمر فقال:

وَمَن يَظُنُّ نَثرَ الحَبِّ جوداً وَيَنصِبُ تَحتَ ما نَثَرَ الشِباكا[٤]

---

(١)زهدي الخواجا- موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري، ص١٣٠.

(٢)المرجع نفسه، ص١٣٤.

(٣)يوسف البديعي- الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ص١٧٠.

(٤)الديوان، ص١١١٩.

أو أن بعض القبائل التي هجاها عندما كان بحضرة سيف الدولة قد سعت في مقتله، وهم من بني أسد وبني ضبة :

مَهلاً ألا لِلَّهِ ما صَنَعَ القَنا في عَمروُ حابِ وَضَبَّةَ الأَغتام[١]

وأن كافوراً قد بذل لهؤلاء مالاً كثيراً[٢]، وبذلك يكون لسان المتنبي قد جر عليه الويلات والهلاك.

والثانـــي أن المتنبي كان يحاول أن يصل إلى منصب قيادي كما وصل غيره، ومن يرد مـــثل هذا الأمر وليس له عصبة تحميه، لا بد وأن يكون لين العريكة مع الناس حتى يقفوا إلى جانـــبه، وهو الذي يشكو قلة الناصر، وكيف يناصر الناس شخصاً يحط من أقدارهم، والناس لا يجتمعون لرجل إلا رهباً، أو طمعاً، أو رغباً، والمتنبي لم يكن له من القوة ما يرهب به الناس، ولا كـــان صاحب غزو ومال فيطمع الناس فيما عنده، فما عليه إلا أن يرغِّب الناس فيه بعذب قـــوله، وسحر بيانه، وحكمته، ولكنه جاوز هذا الأمر إلى ضدِّه، حين ذم الناس فخذلوه، وعندها اتجه إلى أصحاب السلطان يركب الناس بعراناً إليهم، فلم يرجع من عندهم بشروى نقير .

وقـــد وصـــف المستشـــرق –ويدعى رايك– المتنبي بقوله:" إنه دعيّ متغطرس، مليء بالقسوة، وحب الذات، لا يجد في الكون ما يعجبه، ولا يرى حوله إلا الأعداء [٣]".

فـــي حيـــن وصـــفه الخواجا بقوله: (فأكثر ما يميز شعره كبرياؤه، و ثورته، وإعجابه بنفســـه، ولغـــروره تـــرفع علـــى معاصـــريه فأبغضوه، وحقدوا عليه، فتظلم من غدر الزمان والأصـــحاب، ونسي أنه السبب في ذلك، والشيء الغريب أنه كان يظن أن الناس يرون فيه ما

---

(١)الديوان، ص٨٤٠.

(٢)شاكر، مرجع سابق، ص٣٨٧-٣٩١.

(٣)جوزف الهاشم– أبو الطيب المتنبي، دراسة ونصوص ، ص ٨٧.

كـــان يرى في نفسه، ويكبرونه كما كان يكبر نفسه، ويعتدون به كما كان يعتدُ بنفسه، ومن هنا طالبهم بما لا يستحق أن يعطى، و منحهم ما لا يستحقون من نقد و تعنيف)[١]

وَمَن عَرَفَ الأَيّامَ مَعرِفَتي بِها وَبِالناسِ رَوّى رُمحَهُ غَيرَ راحِمِ[٢]

هـــ. إخفاقه في طلب الولاية والملك

المتنبي كان يرى في نفسه أبعد من كونه شاعراً، وإنما كان يصبو إلى الملك، وقد ذكر ذلك في شعره :

وَفُؤادي مِنَ المُلوكِ وَإِن كا نَ لِساني يُرى مِنَ الشُعَراءِ[٣]

أعطـــي همـــة ملكٍ، ولسان شاعر، فما استطاع أن يلائم بين روحه و واقعه فاغترب[٤] يبجث عن المجد المؤثل، أو أن يقتل دونه فيعذر.

وقـــد كان يتعاظم إلى حد الجنون، فلا أحد فوقه إلا الله، و كأن إبليس اللعين قد نفث فيه من سحره، فاشتط في قوله و أصابه الغرور المهلك:

أيَّ مَحَـــلٍّ أرتَقـــي أيَّ عَظـــيمٍ أتَّقـــي

وَكُلُّ ما قَد خَلَقَ الـــ ـــهُ وَمـــا لَم يَخلُقِ

مُحتَقَرٌ في هـــمَّتي كَشَعرَةٍ في مَفرِقـــي[٥]

---

(١)الخواجا، مرجع سابق، ص٨٩.

(٢)الديوان، ص٤٥٥.

(٣)المصدر نفسه، ص٨٩٦.

(٤)الهاشم، مرجع سابق، ص٢٨.

(٥)الديوان، ص١٢٠.

واستعظام المتنبي نفسه وصل به إلى أقصى حالات الاغتراب، باحثاً عن المجد والسلطان مستعلياً على كلِّ إنسان، ولكن خيبات الأمل تلاحقه، ومع ذلك لا يقنع بأمجاد ليست من صنعه، بل يسعى إليها بنفسه:

وَلَستُ بِقانِعٍ مِن كُـلِّ فـَضلٍ بِأَن أُعزى إِلى جَدٍّ هُمـــامِ

عَجِبتُ لِمَن لَهُ قَـــدٌّ وَحـــدٌّ وَيَنبو نَبوَةَ القَضبِ الكَهـــامِ

وَمَن يَجِدُ الطَريقَ إِلى المَعالي فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنـــامِ

وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئاً كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَمامِ[1]

من يجد في نفسه قوة وقدرة، ولم يسع بها إلى الوصول يُعدُّ من أنقص الناس.

إن غاية المتنبي غاية مجنونة لن يقدر على تحقيقها، وكأنه يرنو الى الخلود :

أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ[2]

وعلو همته جعلته يرى أن جميع المطالب سهلة التحقيق بل هي أحقر من أن يجهد همته فيها لأنها دون همته:

تُحَقِّرُ عِندي هِمَّتي كُلَّ مَطلَبٍ وَيَقصُرُ في عَيني المَدى المُتَطاوِلُ[3]

إنهـــا لـــذة الامتداد، والسطوة التي كانت تسيطر على المتنبي، ولكنها لذة استعلائية لو امـــتدت حباً وحناناً، ربما كان من أمرها شيء، ولكنها كانت تمتد لتحقِّر، وكانت تركب المركب الوعر، وتلتذ به فيما كان غيره يراه غاية الألم، ومن يطيق من كانت نفسه مرة ليحكمه:

سُبحانَ خالِقِ نَفسي كَيفَ لَذَّتُها فيما النُفوسُ تَراهُ غايَةُ الأَلَمِ[4]

---

(١)الديوان، ص٩٥٦.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٤٤.

(٣) نفسه، ص١٠٨.

(٤) نفسه، ص١٠١٤.

لقد ذهب إلى كافور بلسان شاعر، و قلب ملك، وغناه آماله و آلامه و أحزانه؛ عله يوليه ولاية مهما حقرت ليبدأ منها، وإذا بكافور يخذل هذه الآمال.

وكــان كافور هو الذي مناه بالولاية إذا أتاه، فأسرع أليه مؤملاً بهذه الولاية بعد أن كان يطلــب الملــك والأمــلاك، وكان يحتقر كل شيء، وكان فيما مضى يجيّش الجيوش، و يهزم الممالك، ويرعب العدى، وينظمهم تحت لوائه

أَيَملِكُ المُلكَ وَالأَسيــافُ ظــــامِئَةٌ   وَالطَيرُ جائِــــعَــةٌ لَحمٌ عَلى وَضَمِ

مَن لَو رَآنِيَ ماءً مـــــاتَ مِن ظَمَأٍ   ولـــــو مـــثَّلتُ لَهُ في النَومِ لَم يَنَمِ

ميعادُ كُلِّ رَقيـــــقِ الشَفرَتَينِ غَداً   وَمَن عَصى مِن مُلوكِ العُربِ وَالعَجَمِ

فإن أجــــابو فما قصدي بها لهم   و إن تــولوا فــما أرضـــى لها بِهِمِ [١]

وعلـــى ما يبدو إن كافوراً قد بدأ يماطله، والمتنبي يؤملُ فهو الذي دعاه إليه(أتراه يبلغ الرملة ولايأتينا)[٢]، فجاءه يحمل قلباً جريحاً:

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا   وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

فقصد البحر عله يرجع ملكا للعراقين :

قَواصِدَ كافــــورٍ تَوارِكَ غَيرِهِ   وَمَن قَصَدَ البَحرَ اِستَقَلَّ السَواقِيا

وَغَيرُ كَثيرٍ أَن يَزورَكَ راجِــلٌ   فَـــيَــرجِعَ مَــلَكاً لِلعِراقَينِ والِيا[٣]

وعـــاش المتنبي بين رجائه، وسخطه على نفسه قلقاً في ظل كافور مماجعله يبدي أمراً، ويخفي غيره.

---

(١)الديوان، ص١٢٢.

(٢)شاكر، مرجع سابق، ص٣٦٢.

(٣)الديوان، ص٨٨٦.

وقـــد عاش المتنبي في مصر حياة مشحونة بالهموم بعيدة عن الرغد النفسي، ولعل من الإنصـــاف أن نذكر أن كافور الإخشيدي لم يكن مسؤولاً عن قلق المتنبي في مصر، وإنما كان المتنبـــي نفسه مسؤولاً عن ذلك، فإن المتنبي كان يرى نفسه أحق بالملك والإمارة من كثير من ملوك زمانه وأمرائه، وكان حتى هذه الفترة متعصباً للعرب محتقراً لغيرهم، وكافور بداهة ليس مـــن العـــرب، وقـــد ترجم المتنبي عن دخيلة نفسه هذه منذ فجر شبابه، وقبل أن يتصل بسيف الدولة(١)

والغريب في الأمر أن المتنبي كان فيما قبل سيف الدولة يطالب بالملك، ولكنّه قد ستر هذا الأمر في ظل سيف الدولة، ولم يطالب به، وإنما عاش على وفاق شابه بعض الحسد، ولم يطالبه بولاية على الأقل في شعره الذي تغنى فيه ببطولات سيف الدولة، بينما نلاحظ أن هذه الظاهرة قد ألحت عليه عندما ذهب إلى كافور، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده إلا ويطالبه بولاية يكون عليها أميراً:

فَارِمِ بي ما أَرَدتَ مِنّي فَإِنّي   أَســدُ القَلبِ آدَمِيُّ الرُواءِ

وَفُؤادي مِنَ المُلوكِ وَإِن كـا   نَ لِساني يُرى مِنَ الشُعَراءِ(٢)

وبيـــن الـــرجاء، والشكوى، والإعلان، والتعريض فيما يبتغيه، يشعر بتعب من تقصير حظه لأنه لا يصل إلى ما يأمل:

وَأَتعَبُ خَلقِ اللَهِ مَن زادَ هَمُّهُ   وَقَصَّرَ عَمّا تَشتَهي النَفسُ وُجدُهُ

فَإِن نِلتُ ما أَمَّلتُ مِنكَ فَرُبَّمـــا   شَرِبتُ بِماءٍ يُعجِزُ الطَيرَ وِردُهُ

وَوَعدُكَ فِعلٌ قَبلَ وَعدٍ لِأَنَّهُ   نَظيرُ فَعالِ الصادِقِ القَولِ وَعدُهُ(٣)

---

(١)مصطفى الشكعة– ابو الطيب المتنبي في مصر و العراقين، ص٢٦٢.

(٢)الديوان، ص٨٩٦.

(٣)المصدر نفسه، ص٩١٠.

والانتظار قد بلغ منه مبلغه، ولو علم كم عمره؛ لقسمه بينه وبين انتظار مواعيد كافور:

أَبا المِسكِ أَرجو مِنكَ نَصراً عَلى العِدا   وَآمُلُ عِزّاً يَخضِبُ البيضَ بِالدَمِ
وَلَـــو كُنتُ أَدري كَم حَياتي قَسَمتُها   وَصَيَّرتُ ثُلثَيها اِنتِظارَكَ فَاعلَمِ
وَلَكِنَّ ما يَـــمضي مِنَ العُمرِ فائِتٌ   فَـــجُد لي بِحَظِّ البادِرِ المُتَغَنِّمِ
رَضيتُ بِما تَرضـــى بِهِ لي مَحَبَّةً   وَقُدتُ إِلَيــكَ النَفسَ قَودَ المُسَلِّمِ[(١)]

ولم أر في ديوانه أبياتاً امتهن فيها نفسه بغية أن يصل إلى مراده كمثل هذه الأبيات، فبعد أن كـان يتوعد إذا به ينقاد وينتظر، وقد استشعر المتنبي هذا الانكسار في أول لقاء له بكافور، حيـث رأى أن الـداء الذي به لا يشفيه إلا الموت، إنه حب السلطة الذي جعله يمتهن نفسه عند مثل هذا العبد الخصيّ، وجعله يطلب فضل كأسه:

أَبا المِسكِ هَل في الكَأسِ فَضلٌ أَنالُهُ   فَإِنّي أُغَـــنّي مُنذُ حينٍ وَتَشرَبُ
وَهَبـــتَ عَلى مِقدارِ كَفّى زَمانِنا   وَنَفســي عَلى مِقدارِ كَفَّيكَ تَطلُبُ
إِذا لَم تَنُـــط بي ضَيعَةً أَو وِلايَةً   فَجودُكَ يَــكسوني وَشُغلُكَ يَسلُبُ[(٢)]

وحفاظاً على تماسك ذاته، نظر إلى ما قام به من زيارة كافور، وأخذه ما يؤمّل به عملاً عظيماً، يعجز الطير بما تملك من أجنحة أن ترقى إليه:

فَإِن نِلتُ ما أَمَّلتُ مِنكَ فَرُبَّما   شَرِبتُ بِماءٍ يُعجِزُ الطَيرَ وِردُهُ

وهـو بذلـك يطوع اللغة والموقف لصالحه رغم انكساره، وابتذاله لنفسه، إلا أنه وجد مخرجاً لها ليبقى محافظاً على تماسكها:

وَإِن تَأَخَّرَ عَنّي بَعضُ مَوعِدِهِ   فَما تَأَخَّرُ آمالي وَلا تَهِنُ[(٣)]

---

(١)الديوان، ص٩٢٠.
(٢)المصدر نفسه، ص ٩٦٣.
(٣)المصدر نفسه، ص٩٤٥.

وحال المتنبي بين الرجاء، والسخط ،يؤمّل أن يصل إلى ما يصبو إليه، وكافور لا يبالي به، أو بمطالبه، وكأنه استشرف حاله فيما مضى:

وَبَينَ الرِضا وَالسُخطِ وَالقُربِ وَالنَوى مَجالٌ لِدَمعِ المُقلَةِ المُتَرَقرِقِ[١]

وتصـــريح المتنبي بمطالبه لم يلق أذناً صاغية عند كافور، والمتنبي يلح في طلبه وهو دائم التذكير لكافور فإن لم يكن تصريحاً فتعريضاً:

وَفي النَفسِ حاجاتٌ وَفيكَ فَطانَةٌ سُكوتي بَيانٌ عِندَها وَخِطابُ[٢]

ومـــا حاجته إلى المال، ولكنه إلى الود الذي يرتقي إلى الثقة ثم الولاية، ولكن كافوراً لم يثـــق به:

إِذا نِلتُ مِنكَ الوُدَّ فَالمالُ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابُ[٣]

لقد ترك الدنيا والصحاب وجاء إليه، راجياً الأستقرار، ولكنه وجد الجفوة والبعاد

وَما كُنتُ لَولا أَنتَ إِلاّ مـــُهاجِراً لـــَهُ كُلَّ يَومٍ بَلدَةٌ وَصِحابُ

وأظن أن الخطاب في هذا البيت من الخطاب الموجه الذي يحمل أوجهاً في تفسيره، فقد يقصد بالضمير "أنت" كافور، وبذلك لا يتم الانقطاع عن البيت الذي يليه، وقد يقصد به سيف الدولة فيتم الانقطاع عن البيت الذي يليه:

أَرى لي بِقُربي مِنكَ عَيناً قَريرَةً وَإِن كانَ قُرباً بِالبِعادِ يُشابُ

يقـــول محمود شاكر تعليقاً على هذه الأبيات: (ولم يكن أبو الطيب يؤّمل من كافور ماله أو عطاياه، أو هداياه، فقد كان غنيا بما أعطاه سيف الدولة، أو ما ادخره من عطائه، أو إقطاعه

---

(١)الديوان، ص٧١٥.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٦٤.

(٣) نفسه.

الذي كان له بالشام، بل كان يريد أن يلي بعض بلاد الصعيد، أو صيداء كما ذكروا، وذلك ليحقق مـــا استطاع آماله السياسية التي تترامى إلى غاياتها...، وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجـــته:" أنت في حال الفقر، و سوء الحال، وعدم المعين، سمت نفسك إلى النبوة،، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك ؟ "[١]).

ويرى خليل مطران أن المتنبي غادر سيف الدولة إلى كافور بسبب أطماعه، "وإنما كان الســـبب – فيما اعتقدت – أنه رأى مُطمعهُ لدى سيف الدولة قد حُدَّ بحد لا سبيل إلى مجاوزته، وأن إلحـــاح الإخشيدي استزارته قد حرك فيه أقوى عوامل نفسه؛ وهو الطمع، فخيل إليه أن في مصـــر الواسعة، وعلى رأسها خصيّ فدم غاصب للمُلك ولاية يستطيع أن يتصيدها، ومن يدري بعد بلوغه الولاية وتمكنه فيها ما تهيئه له الأقدار من غصب الغاصب، على حد قوله:

وَتَضريبُ أعناقِ المُلوكِ وَهامِها لَكَ الهَبَواتُ السودُ وَالعَسكَرُ المَجرُ[٢]

علـــى أن تـــركه لسيف الدولة، وانتقاله من يقين إلى ريب وتبدله من رخاء وجاه بآمال تحقيقها في يد الغيب، كل أولئك لم يكن بهين عليه. وفي ذلك يقول كأنه يستدرج سيف الدولة إلى إرضائه واستبقائه:

يا مَن يَعِزُّ عَلَينا أَن نُفارِقَهُم وِجدانُنا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ[٣]

ثم يدلف بذلك الاستدراج إلى الإغراء فيقول في ختام القصيدة التي هي من لباب الشعر وخلاصته الصافية:

إِذا تَرَحَّلتَ عَن قَومٍ وَقَد قَدَروا أَن لا تُفارِقَهُم فَالراحِلونَ هُمُ[٤]

---

(١)محمود شاكر، مرجع سابق ، ص ٣٦٣.

(٢)الديوان، ص٤١٤.

(٣)المصدر نفسه، ص٦٩٤.

(٤)نفسه، ص٦٩٤.

عرف المتنبي مقدار ما يفارقه، ولكن مطمعه غلب عليه ففارق... ولقي كافوراً وحظي عنده زمناً ومُنِّي بما تمنى خداعاً وزوراً، غير أنه أخذ بسحر الرغيبة، وأنشد في الخصي شعراً هو أجود منظومه ... ومضى على سليقته في استنزال إلهامه، وفي اختيار روائع المباني لبدائع المعانـــي، حتى إذا طالت غلته، وبدا له ما وراء رفيف السراب من حرقة تزيده حرقاً تولى عن مصـــر، ولم يكتف لخيبته بهجو كافور، بل هجا أهل مصر، فأركبه طمعه في هذه اللحظة نكراً وحملة وزرا"[١].

ويتساءل زهدي الخواجا عن سر تهافت المتنبي على الولاية: أكان المال؟ أم الجاه ؟ أم أشـــياء أخرى ؟فيقول:" أرى أن المال قد توفر لديه، وأنه كان يحصل عليه بولاية وبغير ولاية، أما الجاه فقد عمت شهرته الآفاق، وجالس الملوك وصادق الأمراء، بلغ في الجاه ما لم يبلغه والٍ أو وزيـــر، فما الأشياء الأخرى التي كان يجري لاهثاً لتحقيقها ؟ ربما الزعامة والسلطة، وكان لهذا بريق يخطف بصره، ولكن أكان ينشد السلطة لذاتها ؟ وما السر في ذلك ؟ من المحتمل أنه كان يخفي هدفاً حقيقياً وراء الهدف المرئي، فلربما أنه كان ينشد السلطة ليحقق المجتمع الصالح المثالي، الذي كان يصفه دوماً في أشعاره "[٢].

أمـــا ســـهيل عثمان ومنير كنعان في كتابهما المحصول الفكري للمتنبي، فإنهما يأسفان لمـــوت المتنبـــي لأمور كثيرة، منها أنه حرمنا سؤاله: هل تعلم الدهاء والتقية فأخفى ما يضمر، فجمع المال في الشرق الإسلامي، ثم عاد إلى العراق والشام حاملاً ثروة ضخمة، وتجربة طويلة ليـبدأ العمـــل مـــن جديد على تحقيق مطمعه الأساسي، خائضاً غمار السياسة بقوة لا بضعف،

---

(١)خليل مطران – مقاله " أبو الطيب المتنبي كان عبقرياً ولكن " ضمن كتاب (أبو الطيب المتنبي حياته وشعره) لعدة أقلام، ص٢٥-٢٦.

(٢)الخواجا، مرجع سابق، ص٨٣.

وبـنظام لا بفوضـى، ولكن هذا السؤال ليس إلا خيالاً لا يمتلك أيَّ دليل على ضرورة قيامه، ناهيك على ضرورة الجواب عنه[١].

أما ســؤاله الآخر أو الأخـير كما يقول هو: لماذا ألح على طلب الولاية عند كافور؟. ويجيـب على ذلك: " إننا لا نستبعد أن يكون رسول الأستاذ الذي أغراه بالمجيء إليه قد داعب وتره الحساس، ولمح أو أكد استعداد كافور منحه ما يريد كما تروي بعض المصادر، وعلى نحو ما ذكره ابن رشيق في كتابه العمدة[٢].

ويـتابع: "وقصائده التي أنشدها في وجه كافور تدل على وجود وعد، ولو لم يكن الوعد موجوداً لما تجرأ على مجابهته به، وقد تشجع على تصديق الوعد الكافوري بسبب ما يعرفه من عـدم وجود عائلة مالكة قوية في مصر، فكافور ليس له أقارب بارزون ، وربما غير بارزين، وأسـرة الإخشيد لفها أبو المسك بعباءته لفاً أستاذياً محنكا ، وربما شجعه على توسيع الأمل قلة احـترامه لكـافور، فقـد كانـت هيـبة سيف الدولة في نفسه تمنعه من مزاحمته، وأما مولى الإخشيديين فبالإمكان منافسته، كما تصور في أول الأمر على الأقل[٣]".

أضف إلى ذلك أن سيف الدولة كانت له عشيرة قوية تحمي ملكه.

ويـرى طه حسين في المتنبي (أنه كان في بداية الأمر، أو في صباه وشبابه، لا يطلب الحكم والسلطان لنفسهما، ولا يراهما غاية لما كان يلقى من مشقة، ويحتمل من عناء، وإنما كان

---

(١)سهيل عثمان ومنير كنعان، المحصول الفكري للمتنبي، ص ١٨٢.

(٢)قال ابن رشيق " وقد خطب أبو الطيب هذه الرتبة إلى كافور الإخشيدي فوعده بها، وأجابه إليها، ثم خافه لما رأى من تحامله وكبره، واقتضاه أبو الطيب مراراً ، وعاتبه فما وجد عنده راحة ، فمن ذلك قوله يقتضيه :

وَهَبتَ عَلى مِقدارِ كَفَّى زَمانِـنا ... وَنَفسي عَلى مِقدارِ كَفَّيكَ تَطلُبُ
إِذا لَم تَنُط بي ضَيعَةً أَو وِلايَـةً ... فَجودُكَ يَكسـوني وَشُغلُكَ يَسلُبُ
وَفي النَفسِ حاجاتٌ وَفيكَ فَطانَةٌ ... سُـكوتي بَيانٌ عِندَها وَخِطابُ

" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ،ج١/ص٤٥.

(٣)سهيل عثمان ومنير كنعان، مرجع سابق، ص١٨٣.

يــراهما وسيلة إلى إصلاح النظام السياسي والاجتماعي، ورد الأمن والعدل والعافية إلى الناس، وهــو الآن يكتفي من الحكم بالحكم، ومن السلطان بالسلطان، يراهما الغاية كل الغاية ، والأمل كل الأمل ، لا يفكر في إصلاح النظام السياسي والاجتماعي، لأن أحداً من الذين ثاروا لإصلاح هــذا الــنظام لم يحاول إصلاحه، ولأن الناس الذين يكرهون هذا النظام، ويشكون منه يريدون تغيــيره، لا يغــيرون ولا يعينون أحداً على هذا التغيير...، فهو لا يريد أن يصلح أمور الناس رغــم أنوفهــم، وحسبه أن يصلح أمر نفسه، وأي إصلاح لأمر نفسه أكثر من أن يتولى الحكم وينهض بأعباء السلطان ، ويصبح رجلاً يأمر فيطاع وينهى فيستمع له)[١].

وقبل ذلك يتحدث عن طمعه في الحكم، وأنه نشأ طامعاً في ذلك، طامحاً إليه مجاهداً في ســبيله، وقد احتمل الأذى في سبيل ذلك وذاق العذاب، وتخيل أن الحكم قريب منه وأن السلطان ســعى إليه فما له لا يسعى إليه، لقد وعده المصريون بأنه سيتولى الحكم في ولاية من الولايات أو إقليم من الأقاليم[٢].

ويرى طه حسين أن المتنبي قد حرص على أن يترفع عن منزلة الشاعر المأجور كما كــان فــي بلاط سيف الدولة، بل سيكون والياً من الولاة أميراً من الأمراء، سيجمع بين إمارة الشــعر وإمــارة الحكم...، فما له لا يسرع إلى هذه الأمنية التي تريد أن تتحقق بعد أن استيأس منها وتعزى عنها[٣].

ولا أظــن المتنبــي إلا مُــتحاملاً عليه عندما وُصِف بأنه مأجور عندما كان عند سيف الدولة، ولو كان كذلك لما أصفى سيف الدولة كل هذا الحب، وهذا الشوق والحنين عندما غادره،

---

(١)طه حسين، مرجع سابق، ص٤٨٤.

(٢)المرجع نفسه ، ص٢٨٣.

(٣)نفسه ، ص٢٨٣.

ولمـــا حضر كل هذا الحضور في شعره عندما أصبح عند كافور، ولما اشتعل جمر الرحيل في صـــدره. فجاءت مقدمات قصائده في كافور تحاكي حاله النفسية على فراق حبيبه سيف الدولة، فإذا بألم الفراق يجعله يتمنى الموت، وإذا بالذين فارقهم لا يُنمون:

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا وَحَسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا[١]

فِراقٌ وَمَن فارَقتُ غَـــيرُ مُذَمَّمٍ وَأَمٌّ وَمَـــن يَمَّمتُ خَيرُ مُيَمَّمِ[٢]

أَوَدُّ مِنَ الأَيّامِ مـــــالا تـــــوَدُّهُ وَأَشكو إِلَيها بَينَنا وَهيَ جُندُهُ

يُباعِدنَ حِبّاً يَجـــــتَمِعنَ وَوَصلُهُ فَكَيفَ بِحـــبٍّ يَجتَمِعنَ وَصَدُّهُ

فالعلاقـــة بيـــن المتنبـــي وسيف الدولة كانت علاقة تكامل، أو علاقة تحقيق للذات على صـــعيد المتنبي، إذ كان يرى فيه كثيراً من الصفات التي كان ينشدها، ولا أظن أن سيف الدولة كان غافلاً عن قدرات المتنبي في مجال السياسة والحكم والحرب، ولو لم يكن له مثل هذا الشأن لما شعر بكل هذا الاستقرار في ظله.

وهـــذا مـــا ذهـــب إليه عبد العزيز دسوقي ، فقد رأى أن سيف الدولة حقق له شيئاً من المشـــاركة الفعلـــية في السلطة، فقد كان يصطحبه في كل غزواته، ليتيح له الإسهام في العملية الحربـــية مـــن الناحـــية الإعلامية والفكرية، وكان سيف الدولة يشركه أيضاً في أيام فراغه في مشاغل الدولة والحكم[٣].

وكـــان هـــذا الأمـــير يكرم المتنبي ويحترمه، وينزله منزلة رفيعة، وأشبع في نفسه ذلك الشوق العظـــيم إلـــى الســـلطة وإلـــى الحكـــم وإلى المجد، وأشبع في نفسه أيضاً ذلك النزوع العربي

---

(١)الديوان، ص٨٨٥.

(٢)المصدر نفسه، ص٩١٩.

(٣)عبد العزيز دسوقي- في عالم المتنبي الشعري، ص١٩.

والإســـلامي الـــذي كان يؤرق أحلام أبي الطيب، فلا عجب أن تتحول علاقة أبي الطيب بسيف الدولة إلى تجربة من أعمق التجارب الفكرية والعاطفية، وتصبح من أهم التحولات في حياته[١].

وربمـــا أن حـــدوث هـــذا التفاهم والتناغم بين الأمير والشاعر، قد جعل المتنبي يشعر بالاســـتقرار وإرضاء الطموح إلى أن حدث التنافر بينهما ،فعاد المتنبي إلى قلقه الذي كان يحس بـــه دائماً، وصدر عنه إلى كافور حاملاً هذا القلق والعودة لطلب السلطة والولاية، والحق أن أبا الطيـــب كان يحس – دائماً– هذا القلق الوجودي المدمر، وكان يشعر بالفقد المستمر، وغروب الحياة، مع شهوة عظيمة للسيادة والسيطرة.

وقد كانت ظروف الحياة من حوله تفرض عليه هذا النمط الأسيف من الحياة، ومن أجل هـــذا ظـــل يتمزق، و يصارع حتى سقط قتيلاً، قبل أن يحقق أي حلم من أحلامه الكبيرة، ولكنه ظل محتفظاً بكبريائه طوال حياته، على الرغم مما كان يلقى من غدرٍ وإخفاق[٢].

وأيـــاً كان الأمر، ومهما اختلفت وجهات النظر في قضية طلب المتنبي الحكم من قبل الدارســـين والنقاد، فإنه قد أخفق على هذا الصعيد، ولم ينعم بملك أو حتى ولاية، أو قيادة مهما صغرت ليصل إلى مبتغاه الذي كان يترسمه في حياته، فعاش غربة الإخفاق في تحقيق الآمال، وسارع بخيله إلى بلاد فارس يطلب العسكر، فوجد عندهم الموت والهلاك فقال لابن العميد:

إن لَم تُغِثْني خَيلُهُ وَسِلاحُهُ فَمَتى أَقودُ إِلى الأَعادي عَسكَرا[٣]

واستشعر النهاية عند عضد الدولة بحدس الشاعر رغم مبالغة الإكرام:

وَأَيّا شِئتِ يا طُرُقي فَكوني أَذاةً أَو نَجاةً أَو هَلاكا[٤]

---

(١)دسوقي، مرجع سابق، ص١٩.

(٢)المرجع نفسه، ص ٧.

(٣)الديوان، ص١١٣٣.

(٤)المصدر نفسه، ص١١٢١.

لقـد تحولــت نفس المتنبي إلى رماد بعد أن كانت جمراً تتوقد، فأصبحت جميع الأمور عـنده سـواء، إنها عبثية الوجود والتسليم إلى الأقدار، وبذلك يكون المتنبي قد اغترب في هذه الأرض سـاعياً إلـى تحقيق المجد والشهرة، والعزة والكبرياء يحاور روحه ويصدر عنها فيما يقول لا يعبأ بمن حوله إلا بمقدار ما يحققون له من ذاته بآمالها العريضة:

أُعادي عَلى ما يوجِبُ الحُبَّ لِلفَتى وَأَهـدَأُ وَالأَفكارُ فِيَّ تَجولُ (١)

وسقط الفارس دون أن يصل إلى مبتغاه .

يقول أحمد أمين بهذا الصدد: " فتباً لهذا الزمان الذي وضعه هذا الوضع منحه صفة الملوك ولم يجعله ملكاً، وحرمه المال ولم يحرمه النفس، فلم يوائم بين نفسه وحاله، يرى أن الناس لو عقلوا لثاروا، ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤ س وشقاء، ولملّكوا عليهم خيارهم، ولعله يعني نفسه، ولكنهم خاضعون مستسلمون يقيمون على الذل، ولا يأنفون من عارٍ"(٢).

أَمـا في هَذِهِ الدُنيا كَريمُ تَزولُ بِهِ عَنِ القَلبِ الهُمومُ
أَمـا في هَذِهِ الدُنيا مَكانٌ يُـسَرُّ بِأَهلِهِ الجارُ المُقيمُ
تَـشابَهَتِ البَهائِمُ وَالعِبِدّى عَلَـينا وَالمَوالي وَالصَميمُ
وَمـا أَدري أَذا داءٌ حَديثٌ أَصـابَ الناسَ أَم داءٌ قَديمُ(٣)

وبهـذا يكون المتنبي قد اغترب وربما يكون المتنبي في اغترابه، قد سعى لتحقيق ذاته وفكـره، الذي آمن به عن طريق الوصول إلى السلطة فأخفق في ذلك، وقضى نحبه وبقيت في النفس حاجات لم تتحقق، وجراحات رسمها الدهر في نفس المتنبي وعلى خريطة روحه الشامخة

(١)الديوان، ص٧٤٠.
(٢)أحمد أمين، مقاله : هل كان المتنبي فيلسوفاً، ص ٢١.
(٣)الديوان، ص٩٧٣.

الأبـــية،فجاءت كلماتـــه مليـــئة بالجراحات وسالت منها الدماء ،وكراهية الضعف، والحقد على الضعفاء وخساس الناس ،والانتماء إلى الفارس المثال.

وما كان فرار المتنبي من السهولة بمكان من دولة يمتد نفوذها من مصر إلى بلاد الشام إلاّ بوجـــود معيـــن يدبر الأمر له، ومن الممكن أن يكون هذا المعين من أولئك الذين عفا عنهم ســـيف الدولة عندما أوقع بهم في معركة الرستن سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة[١]، وإذا صح مثل هذا الكلام فإننا نجد تفسيراً لكثير من شعره الذي قاله في كافور، وجعل الضمير فيه مبهماً، وهو أنـــه يتوجه بشعره إلى سيف الدولة ولا يقصد به كافوراً الإخشيدي، وبذلك يبقى المتنبي منتمياً إلـــى سيف الدولة ويعمل تحت أمره، وما هو إلا جندي أو قائد في موقع اختاره له سيف الدولة وهو القائل

رضيتُ بما ترضى لي به محبَّةً ... وقدتُ إليك النَّفْسَ قَوْدَ المُسَلِّم[٢]

وسرّكـــم فـــي الحشـــا ميّتٌ ... إذا أُنْشِـــرَ الســـرُّ لا يُنْشَـــرَ[٣]

---

(١)محمد بن أحمد الذهبي- العبر في خبر من عبر، ج٢/ ص٢٣٨.

(٢)الديوان، ص٩٢١.

(٣)المصدر نفسه، ص٧٣٣.

الفصل الثاني

تضخم الذات في ميزان النقد

١.تمرد الذات على الشاعر المدّاح

٢.موقف النقاد من الذات المتمردة

أ.جنون عظمة أم مبالغات فنية

ب.مقدمات المتنبي تعكس نفسيته

ج.تمرده على وحدة البيت.

د.الغلو في شعره

هـ.التصغير وعلاقته بالاغتراب

و.استخدام ذا الإشارية تحمل بعداً استعلائياً

ز.اغتراب الكلمة من خلال انفتاح دلالتها.

١.تمرد الذات على الشاعر المدّاح

تمـتد الـذات عبر لغتها معلنة عن ولادة النص الذي يبقى مسكوناً بآمالها وآلامها، وقد تتقـنع الذات خلف النص رهبة وتقية فتبقى في مرحلة اغتراب عن كونها مقيدة بواقع مفروض علـيها أو تعلن عن سفورها مجترحة ذلك الواقع معلنة اغترابها عنه. وقد يؤدي هذا الاغتراب إلـى مفارقـة الواقع الاجتماعي كما حدث عند الشعراء الصعاليك، وبذلك تغنى هؤلاء الشعراء ذواتهـم خارج حدود القبيلة كونهم رافضين أو مرفوضين، أو نتيجة لظروف سياسية كما حدث لدى الفرق التي أعلنت رفضها لبنية الدولة وكان لها شعراء يدافعون وينافحون عنها، ولكلٍ منهم سـند يحميه إذا أعلن عن ذاته بما يخالف الواقع، فالصعاليك يعتمدون على قوتهم الجسدية وأن الصحراء بامتدادها عمقٌ لهم يحميهم من غائلة القبيلة التي خرجوا عليها أو أخرجتهم، وشعراء الفرق تحميهم فرقهم.

أمـا أن يعلن شاعر عن ذاته ويبقى ينافح عنها ويعلي من شأنها ، ويدرج شعره ضمن قائمـة الشـعراء المداحين التي من أول صفاتها نكران الذات أو الذات المقزمة المستخذية التي تصل إلى الممدوح وقد أنهكت قواها وما عليها إلا أن تسبِّح بحمد ولي النعم كي يغدق عليها من عطائه ، فلا تخرج من أفواههم كلمة " نابية " تنغص عليه عيشه، فهذا يعد بدعاً من بين هؤلاء الشعراء. ومن ينتهك دائرة المألوف أو يكسر حواجزها دون أن يكون له عصبة تؤويه فلا شك سينسب للجنون .

والمتنبـي قـد أعلـن غير مرة توكيد ذاته، وإعلاء شأنها في مواقف تعد بطولية على الصعيدين الفني "الشعري" والذاتي بعلاقته الاجتماعية التي حدد من خلالها أبعاد شخصيته، وما فرضه لها من هيبة، واحترام أمام الممدوحين، بل إن الممدوح ربما جلس بين يديه يستمع إنشاده وأجلسـه علـى كرسـيه، فعندما ذهب إلى أبي القاسم العلوي ومعه حاشية وجده في فريق من

أشـــراف قومـــه علـــى سريره وقد نزل لأبي الطيب عن سريره ولقيه بعيداً وأقبل عليه يحدثه ويؤنسه ويجلسه على سريره، ثم يجلس هو بين يديه[١] وقد أنشده قصيدته التي مطلعها:

أعيدوا صَباحي فَهوَ عِندَ الكَواعِبِ وَرُدّوا رُقادي فَهوَ لَحظُ الحَبائِبِ[٢]

وعـــندما حاول بدر بن عمار أن يمتهن شاعرية المتنبي وهو الذي يعتبر نفسه صاحب قضية أعلن رفضه لذلك وغادر بدر بن عمار يرعد بقصيدته :

لا اِفتِخارٌ إلاّ لِمَن لا يُضامُ مُدرِكٍ أَو مُحارِبٍ لا يَنام[٣]

وعـــندما بسم له الدهر، والتقى الفارس الذي جسّد له آماله بما يمتلك من فروسية، وفكر وقف أمامه موقف الندّية فإن كان ذاك فارس السيف والقوة، فالمتنبي فارس الكلمة والقلم، وكلا الفارسين يحتاج صاحبه، وقد عرَّف المتنبي سيفَ الدولة ما هو من الرجال فعرف له حقه وأقره على ذلك، فقد اشترط على سيف الدولة أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إياه إلا وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه، فنسب إلى الجنون[٤] ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط.

ويـــرى محمـــد شـــرارة أن المتنبي بموقفه هذا قد أعلن عن ثورة في عالم القيم السائدة فيقول: "قد يكون المتنبي من أقوى الشعراء إحساساً بهذه الغربة إن لم يكن أقواهم على الإطلاق، ولهـــذا الســـبب من أقواهم هجوماً على الواقع الذي ولدها واستولدها، وقد يكون اعتداده بنفسه، وإحساســـه بقيمته، واعتقاده بأنه شيء نفيس من جملة العوامل التي ساعدت على ذلك، وأول ما يصـــادفك من اعتداده ذلك الموقف الذي اتخذه من سيف الدولة عندما طلب منه أن يكون شاعره الخاص، فقد وافق على الطلب ولكن بـــ "شروط "، ولم تجد تلك الشروط رفضاً بل وجدت قبولاً

---

(١)البرقوقي- مقدمة شرح البرقوقي للديوان، ص٣٥.

(٢)الديوان، ص٤٧٤.

(٣)المصدر نفسه، ص٣٦٣.

(٤)يوسف البديعي، مصدر سابق، ص٧١، وعبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب، ص٣٥٠.

تامـــاً وموافقـــة كاملة بالقدر الذي كانت هذه الشروط ثورة في حينها على وضع قائم لا يشرف الشعر والشعراء كانت من جانب الإمارة اعترافا بقيمة الشعر الرفيع كما كانت تنازلاً عن عرف سائد أمام شاعر استطاع بفنه أن يرفع الشعر إلى مرتبة القيادة. وبالقدر الذي يفرض الشعر نفسه ويركـــز رايته في الريح يدل الأمير أيضاً على أنه شيء نفيس، وأنه غريب بين الأمراء، فليس بقلـــيل فـــي ذلك الوقت الذي كانت السلطة السياسية كل شيء أن يقبل أمير شروط شاعر وأن يرضـــى لنفسه مثل هذا التواضع، ولكن سيف الدولة كان على ما يظهر بدعة بين الأمراء كما كان شاعره بدعة بين الشعراء [١]".

وقـــد أخالف محمد شرارة الرأي في بعض كلامه، فكون الشاعر بدعة بين الشعراء لا يعني ان الأمير بدعة بين الأمراء، لأن المتنبي كان يرفض أن يمتهن ذاته عند سائر الأمراء؛ بل وكان يحاورهم حوار الند، فعندما كان في ديار كافور الإخشيدي كان يقف بين يديه، وفي رجليه خفان، وفي وسطه سيف، ومنطقة، و يركب بحاجبين من مماليكه، وهما بالسيوف، والمناطق[٢].

وقـــد كـــان كافور يتخوف منه، وحين سأله المتنبي أن يوليه صيداء من بلاد الشام، أو غـــيرها من بلاد الصعيد، قال له كافور: أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين قد سمت نفسك إلى النبوة، فإن أصبت ولاية وصار لك أتباع فمن يطيقك ؟[٣].

وقد ذهب عبد المجيد ذياب إلى أن سبب تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المســـتظلين بظله والمبتدرين في طاعته وخدمته، لم يكن من أجل الشعر وحده فحسب بل للذي بلاه سيف الدولة من آراء أبي الطيب، وأفكاره وعواطفه في الأمور السياسية التي كان يسعى

---

(١)محمد شرارة– المتنبي بين البطولة والاغتراب، ص٣٦.

(٢)يوسف البديعي، مرجع سابق، ص١١٢.

(٣)المرجع نفسه، ص١١٢.

إلـــى تحقـــيقها والقيام عليها بسيفه، وخيله، ورجله، ورجاله المحنكين من ذوي الدهاء والخبرة والمعرفة والعلم [١].والمتنبي يعرف فضل الكلمة وأهميتها وامتدادها عبر الزمان والمكان، وكان يعرف حكامُ عصره فضل أن يمدحهم شاعر مثل المتنبي، أو أن يهجوهم ويضع من أقدارهم.

يحدثـــنا أبو الفتح عثمان بن جني عن علي بن حمزة البصري قال: كنت مع المتنبي لما ورد أرجان، فلما أشرف عليها، وجدها ضيقة البقعة والدور والمساكن، فضرب بيده على صدره وقـــال: تركت ملوك الأرض وهم يتعبدون بي وقصدت رب هذه المدرة فما يكون منه. ثم وقف بظاهـــر المدينة وأرسل غلاماً على راحلته إلى ابن العميد، فدخل عليه وقال: مولاي أبو الطيب خارج البلد _ وكان وقت القيلولة، وهو مضجع في دسته _ فسار من مضجعه واستثبته، ثم أمر حاجـــبه باســـتقباله فركـــب واستركب من لقيه فدخل على أبي الفضل، فقام له من الدست قياماً مستوياً، وطرح له كرسياً عليه مخدة ديباج، وقال أبو الفضل: كنت مشتاقاً إليك يا أبا الطيب ، ثم أفاض أبو الطيب في حديث سفره"[٢].

وعـــندما طلب ابن العميد من المتنبي أن يزور عضد الدولة وقد طلب عضد الدولة ذلك من ابن العميد، قال له المتنبي: مالي وللدَّيلم، فقال أبو الفضل: عضد الدولة أفضل مني، ويصلك بأضعاف ما وصلتك به، فأجاب: إني ملقىً من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد، وأملكهم شـــيئاً يـــبقى بـــبقاء النيرين، ويعطونني عرضاً فانياً ولي ضجرات واختبارات؛ فيعوقونني عن مرادي، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه[٣].

فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث. فورد الجواب بأنه مملك مراده في المقام

---

(١)عبد المجيد نياب- خلاصة المتنبي، ص٣٤.

(٢)البغدادي ، مصدر سابق، ص٣٥٦.

(٣)المصدر نفسه، ص٣٥٨.

والظعن، فسار المتنبي من أرجان، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبـــي عمـــر الصباغ أخي أبي محمد الأبهري صاحب كتاب حدائق الآداب. فلما تلاقيا وتسايرا استنشـــده، فقال المتنبي: الناس يتناشدون فاسمعه، فأخبر أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس العالي، فبدأ قصيدته التي فارق مصر بها:

أَلا كُلُّ ماشِيَةِ الخَيزَلى فِدا كُلُّ ماشِيَةِ الهَيذَبى[١]

ثم دخل البلد فأنزل داراً مفروشة، ورجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى، وأنشده أبياتاً من كلمته وهي :

فَلَمّـــا أَنَخنا رَكَزنا الرِماحَ فَـــوقَ مَكـــــارِمِنا وَالعُلا

وَبـــــتنا نُـــقَبِّلُ أَسيافَنـــا وَنَمسَحُها مِن دِمـــاءِ العِدا

لِتَعلَمَ مِصرُ وَمَن بِالعِراقِ وَمَن بِالعَواصِـــمِ أَنّي الفَتى

وَأَنّي وَفَيتُ وَأَنّي أَبَيـــتُ وَأَنّي عَتَوتُ عَلى مَن عَتا[٢]

وقـــد فهـــم عضـــد الدولة هذه الرسالة التي أرسلها المتنبي إليه فقال: ها هو ذا يتهددنا المتنبي[٣].

ونحـــن نعرف أن الشعراء المداحين يقفون أمام أبواب السلاطين يرجون أن يُمَنَّ عليهم حـــتى يدخلوا مقبلين الأرض بين أيديهم، بينما يُستقبل المتنبي استقبال الملوك والأمراء فتخرج حاشـــية الأمـــير لاســـتقباله. وينزل في منزل مكرماً، ومع ذلك فهو يعلن عن ذاته بكل وضوح

---

(١)الديوان، ص٩٨٨.

(٢)الخيزلى: مشيةٌ فيها استرخاء من مشية النساء، الهيذبا: مشية فيها سرعة من مشية الإبل.

(٣)البغدادي- خزانة الأدب، ص٣٥٩.

وصـــراحة، فـيفهم الأمير من معنى الرسالة التهديد والوعيد.والمتنبي مستعل على الحكام على الرغم من أنه يمدحهم فقد قال عنهم: الملوك قرود يشبه بعضهم بعضاً، على الجودة يعطون[١].

وحتى عندما سأله ابن جني عن شعره قال له: أوتظن أني أصنعه لهم، فإنما يكفيهم منه القليل ولكن أصنعه لك ولأمثالك[٢].

بـــل كان يفرض ذاته ويتغناها على مسمع من السلطان ويفرض لها هيبة قائد أو وزير كما كان حاله عند كافور وغيره ممّن مدح.

وغرضي من سوق الشواهد التي حفلت بها كتب الأدب التي تحدثت عن حياة المتنبي أن أدلـــل علـــى أن الرجل كان يرسم لنفسه بعداً أكثر من كونه شاعراً مداحاً وأنه يعرف قدر نفسه ويجلهـــا علـــى مسمع من الأشهاد وأصحاب السلطان، ولم يكن ينشد ذاته ويتغناها بمعزل خلف الكواليس وهو القائل:

وَإذا ما خَلا الجَبانُ بِأرضٍ طَلَبَ الطَعنَ وَحدَهُ وَالنِزالا[٣]

ثم هو لا يتنزل إلى مدح غير العظماء، وإذا أنشد شعره أنشده في علو وكبرياء، فإذا لم يتحقق غرضه أو أحس بتيه ممدوحه عليه ثار ثورة من جرحت عزته ونيل من كبريائه، وكأنما تجلت له الحقيقة وهي صعوبة الجمع بين نفس تمتلئ عزة، وشاعر يقف شعره على المديح[٤].

يقول عبد الرحمن صدقي في مقال له بعنوان جنون العظمة مرض نفسي :

" وإذا كـــان على هذا المثال مسلكه من الملوك والأمراء وهم ممدوحوه يقصدهم للنوال، فقـد غنيـــنا عن إطالة الكلام في تعاظمه على سائر الناس، وتعرضه لعداواتهم وإعراضه عن

---

(١)المصدر نفسه، ص٣٥٧.

(٢)يوسف البديعي، مصدر سابق، ٩٨.

(٣)الديوان، ص٨٣١.

(٤)أحمد أمين- هل كان المتنبي فيلسوفاً ؟ مرجع سابق، ص٢٤.

شانئيه من رجال الدولة والمتأدبين، وتعمده تجاهلهم. ولقد روى أبو علي الحاتمي وروده بغداد، وكيف كان ملتحفاً رداء الكبر والعظمة، لا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه مزية عليه، ويخيل إليه أنه نسيج وحده، وأن العلم مقصور عليه، والشعر لا يعذب من غيره حتى ثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام [١]".

وإذا كان المتنبي يتعاظم على أهل بغداد؛ فلأنه رأى فيهم من التماجن والسخف ما ينكره طبعه، ولهذا السبب لم يمدح المهلبي كما جاء في خزانة الأدب:

" وانتظر المهلبي إنشاده فلم يفعل، وإنما صده ما سمعه من تماديه في السخف، واستهتاره بالهزل، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه، وكان المتنبي مُرَّ النفس صعب الشكيمة حاداً مجداً[٢]".

والمتنبي كان جوّاب آفاق ما له إلا جنانه، ولسانه، وسيفه، وحصانه، هم صحابه إذا قل الصحاب، وإذا عز المركوب اعتمد على رجليه يبحث عن مجد يؤمله.

يقول سامي الكيالي عنه: " فلم ينكمش في عقر داره ولم يشغل نفسه بالتوافه، ولا عرف الضعف والوهن، بل زجَّ نفسه في هذا الأتون الملتهب، وأخذ يجوب البلاد ويبلو أخلاق الناس، ويتصل بالأمراء، وكان الشعر وسيلته في المدح، فإذا مدح أشاد بنفسه وقوته وأدبه، وأشار إلى مطامحه، وصرح أنه ليس كغيره من شعراء المديح الذين يكتفون بالتافه اليسير من أغراض الدنيا .

وَفي الناسِ مَن يَرضى بِمَيسورِ عَيشِهِ وَمَركوبُهُ رِجلاهُ وَالثَوبُ جِلدُهُ

---

(١)عبد الرحمن صدقي- مقالجنون العظمة مرض نفسي، ضمن كتاب (أبو الطيب المتنبي حياته وشعره)، ص٦٣.

(٢)البغدادي، مصدر سابق، ص٣٥٥.

وَلــَكِنَّ قــَلباً بــَينَ جَــنبَيَّ مالَـــــهُ مَدىً يَنتَهي بي في مُرادٍ أَحُدُّهُ[١]

وفـــرق كبير بين الشاعر الذي يرتمي بين أعتاب ممدوحيه ضعيف النفس ذليلها، وبين الذي يرسل شعره قوي النفس عزيزها، ويعلن عن شخصية لها طمحات ورغبات لا حد لها ولا أحد، هذا هو المتنبي في مجموعه[٢]."

٢.موقف بعض النقاد القدامى والمحدثين من شخصيته وشعره

أ.جنون عظمةٍ أم مبالغات فنيّة

كثـــير من الكتاب في العصر الحديث حاول أن ينسب اعتداد المتنبي بذاته إلى أمراض نفسية كعقدة النقص، أو النرجسية، أو جنون العظمة.

وتستشـــهد نـــورة الشملان بقول عالم غربي لم تذكر اسمه من كتاب غير مترجم تحت عـــنوان الصحة النفسية والعلاج النفسي، عن المصاب بداء العظمة أنه يؤمن بأهميته، وامتيازه وعظمـــته وخطورته، ورفضه وقد يعتقد أن لديه قوى خارقة أو سحرية، ويلاحظ عليه الحديث عن الذات، والتعالي، والمباهاة، والمفاخرة، وتبني أهداف غير عملية يستحيل تحقيقها، ويلاحظ عليه أيضاً تقلب المزاج، وحدة الطبع، والمناوأة، والاستياء، والغضب.

وتعقب على هذا التعريف بقولها:" ولو أردنا أن نُعَرِّف نفسية المتنبي كما يرسمها شعره لما أتينا بتعريف أدق وأوضح وأشمل مما عرّف به الباحث المصاب بداء العظمة." [٣]

وفـــي ظني أن هذا الكلام قدْ يكون صحيحاً إذا جردنا المتنبي من ظروفه المحيطة به، والبيـــئة التـــي كان يحياها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المتنبي كان دائباً بتحقيق ذاته

---

(١)الديوان، ص٩٠٩.

(٢)سامي الكيالي – لمحة من المنازع القومية في شعر المتنبي، ص٣٨.

(٣)نورة الشملان– المتنبي الإنسان والشاعر، ص٢٨–٢٩.

التـــي يرســـمها قـــولاً وفعـــلاً، فجاب الأفاق محاولاً تحقيق ما يؤمن به، ومن ناحية ثالثة فإن المـــبالغات التي نجدها في شعر المتنبي هي من أجل تحقيق غرض مركوز في نفسه، لعظم ما يـــرى من صغار في نفوس الناس، وما كان يؤمل من ملوك عصره فإذا بهم دون ذلك، وإذا به يجـــد المفارقـــة الكبيرة بين ما يرنو اليه، وبين واقعه المرير، وهذه المفارقة تحتاج إلى مبالغة بحجمهـــا، فســـورة الغضب التي ملأت نفسه جعلته يؤسطرها، ويبالغ في امتدادها، وهو أدرى بقدارتـــه الحقيقية، ولكنه أيضاً يعبر عما في نفسه، وما يعتمل فيها فلو تجسد هذا الغضب على أرض الواقع لكان مخيفاً بهذا القدر الذي رسمه.

والقضية الأهمُّ هي متى كان يؤخذ على الشاعر مبالغاته الفنية، و يوصم من خلالها بأنه مصاب بمرض ما ؟

فالمتنبـــي الفـــنان الذي تعتمل بداخله قضية معينة يبدأ بوضعها تحت مجهره و يكبرها مـــئات المرات حتى تبدو واضحة للعيان كأكبر أحجامها شكلا. و أعمقها في نفسه حدة، ورؤية الفنان حق من حقوقه يصورها كيف شاء.

فنورة الشملان تستشهد على قول الباحث الغربي بأن المصاب بداء العظمة يعتقد أن لديه قوى خارقة كقول المتنبي:

أَيَملِكُ المُلكَ وَالأَسيافُ ظامِـئَةٌ ... وَالــطَــيرُ جــائِعَةٌ لَحمٌ عَلـــى وَضَمِ
مَن لَو رَآنِيَ ماءً ماتَ مِن ظَمَأٍ ... وَلَو مَثَلتُ لَهُ في النَـــومِ لَــــم يَنَــمِ
ميعادُ كُلِّ رَقيقِ الشَفرَتَينِ غَــداً ... وَمَن عَصى مِن مُلوكِ العُربِ وَالعَجَمِ
فَإِن أَجابوا فَما قَصدي بِهـــا لَهُمُ ... وَإِن تَوَلَّـــوا فَـــما أَرضى لَـــها بِهِمِ[1]

(١)الديوان، ص١١٢.

ولا أرى في هذه الأبيات داء عظمة أو امتلاك قوة خارقة، وإنما سورة غضب اجتاحت الشاعر فملأت نفسه فجاءت الصورة التي رسمها بحجم هذا الغضب، و في اعتقادي أن إخضاع الفنان والحكم عليه من خلال فنه إجحاف بحقه، كما إن إخضاع الفن لمثل هذه النظرية إجحاف بحق الفنان، فأين حق الفنان في إعلان رؤيته، وتضخيمها لتصبح واضحة، وأين حقه في الإعلان عن ذاته؟ وهل كل من يعلن عن ذاته وعن وجوده مصاب بعقدة النقص؟.

وتستأنس برأي علماء النفس ، معتمدة على كتاب مصطفى فهمي المعنون بـ" الشخصية في سوائها وانحرافها" بقولها: يشير علماء النفس الى العلاقة بين الإحساس بالعظمة وعقدة النقص، ويذكرون أن عقدة النقص تنشأ من كبت الشعور بالنقص، فالفرد المصاب بعقدة النقص لا يفطن الى وجودها، ولا يعرف منشأها، لكنها تسوقه إلى أنواع غريبة من السلوك لا يفهم دلالتها، ولا يدرك الصلة بينها وبين الشعور الدفين بالنقص، ومن مظاهر هذا السلوك الإسراف في تقدير الذات، والرغبة في التباهي، والتظاهر بالشجاعة، وتكلف الوقار، والرغبة في السيطرة، والعدوان، والاستعلاء[١].

وهذا الكلام قد يصدق على إنسان ضمن ظروفه الطبيعية، أما الإنسان الذي يعيش ضمن ظرف خاص يرى فيه أنه قد امتُهنت كرامته، وأن مجد آبائه قد أصبح في يد الأعاجم، والعبيد يتلهون به فلا بد له وإن يتغنى ذاته ويعلي من شأنها ويعلن عن عظمتها وعن غضبها.

وتعلق الشملان على هذا الكلام الذي استأنست به بقولها: يبدو لي أنّ تعلق المتنبي بذاته وإعجابه بها يعود الى ذلك السبب أي عقدة النقص، و يعود أيضاً إلى سبب آخر ربما كان أقوى أثراً وهو تفوقه في الشعر[٢]، وتفسر عقدة نقصه بوضاعة نسبه[٣].

---

(١)الشملان، مرجع سابق، ص٣٠.

(٢)المرجع نفسه، ص٣٠.

(٣)نفسه ، ص٣١.

وفي ظني أن علم النفس قد يساعد في الكشف عن بعض العلاقات التي يكون لها أثر في الشعر (كأن تمر به حادثة معينة يكون لها أثر في شعره)، وقد أشار محمود شاكر لمثل هذا في قولـه : " فممـا عرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل به أمر، أو جدَّ في حياته جديد، فسرعان ما يتلجلج ذلك في صدره، ولا يستقر حتى يشير إليه في شعره، لكثرة ما تلد الحوادث في شاعرية هذا الرجل من المعاني والآراء[1] ". لكن أن نقحم علم النفس في إصدار أحكام على الشـاعر مـن خـلال مبالغاته الشعرية التي تعدُّ من الأدوات الفنية التي يستخدمها الشاعر في معماره الفني نكون قد جانبنا الصواب لأن مجال بحثنا الأدب، فيجب علينا أن نستخدم أدواته في حكمنا عليه، ولا نمتلك أدوات الطبيب السريرية التي نحكم من خلالها على الشاعر أنه مجنون بالعظمة، أو أنه يعاني من عقد النقص.

وفي اعتقادي أن المتنبي في تعبيره عن ذاته لم يكن لسان حاله فقط؛ بل كان لسان حال أمة استشعرت مثلما استشعر من الظلم والهوان، فامتد عبرهم وامتدوا عبره، ومن هنا كان سر عظمـة المتنبـي فتغنى ذاته، لكن عبر أمته معبراً عنها، ولما كان له مثل هذا الأمتداد اشرأبت أعناق الحكام، و استطالت علّها تظفر من معين شعره بنغبة يمتدون خلالها، و يظفرون بنوع من تأييد هذا الشاعر الذي امتد بدوره عبر الأمة.

وعلـى الرغم من استغلاق معانيه فإن الناس قد شغفوا بتعلمه كما يقول الواحدي:"ومع شـغف الناس وإجماع أكثر أهل البلدان على تعلم هذا الديوان لم يقع له شرح شافٍ يفتح الغلق، ويسيغ الشَرَقَ ولا بيان عن معانيه كاشف الأستار، حتى يوضحها للأسماع والأبصار، فتصديت

---

(١)محمود شاكر ، مرجع سابق، ص٢٤٠.

بمـــا رزقنـــي الله تعالى من العلم، ويسره لي من الفهم لإفادة من قصد تعلم هذا الديوان، وأراد الوقوف على مودَعه من المعاني، ويقف على المغزى المقصود، والمرمى المطلوب "[١].

ولا أعـــتقد أن الناس يشغفون بتعلم هذا الديوان إلا لأنه يشبع فيهم منزعاً هم أحوج ما يكونون إليه، بل إن هذا المنزع قد فاق صعوبة بعض معانيه التي استغلقت على الفهم، ولو كان يعانـــي المتنبـــي من "جنون "أو "عقد نقص" لما امتد كل هذا الامتداد عبر العصور، وإنما كان يحرك بوعيه وامتلاكه ناصية اللغة جموداً، ويؤلّف من شواردها قلقاً فكرياً، يشعرك بالموجود ونقيضـــه؛ ليفجر فيك معاني الحياة، بين أن تحيا بكرامة، أو أن تبقى مجرد كائن فقط، بين أن تعلن عن ذاتك في حالة موت يفجر الكون من حولك، أو أن تبقى حياً في حالة ســـكون مخزٍ.

وعـــندما ســـأل أحد المغاربة إذ جاء الى مصر عن سبب إكباب أهل مصر على ديوان المتنبي أجيب بأنه ينطق عن أهواء الناس" فالمتنبي و إن كان فردي النزعة إلا أنه يصف حالة إنسانية تمتد عبر الزمان، وعبر المكان [٢]".

ويقول علي شلق مدافعاً عن المتنبي: لم يكن المتنبي مريضاً، ولا مهووساً، إلاّ إذا سميت العـــبقرية هوساً، وتعقيداً، بل كان رجلاً طماحاً مؤمناً بحقه، ذكياً، مثقفاً، لم يسعفه نسبه، بل دار بـــه فـــي الأفـــاق أدبه، فرغب في الأجمل، والأفضل، وعاش عمره بين الناس في غربة يسكن الـــريح، والجراح، والغبار، وليس له من وطن إلا هذه الكلمة التي ضجت بشعر هز الدنيا، وما زال[٣]. ويتابع قوله "وجد المتنبي أن الحياة لا تستحق أن تعاش، فاختار ما يسمونه المجد فيها و اقتحم "[٤].

---

(١)الديوان، ص٤٩.

(٢)محمد مندور– النقد المنهجي عند العرب، ص ١٧٨.

(٣)علي شلق، مرجع سابق، ص١١.

(٤)نفسه، ص١١.

ثم إن المتنبي كفنان يحيى بين الناس فيخفق لأنه يتهم واقعهم، ويرفض سلوكهم، وينظر نحـــو الأفـــق فيجد الأكمل والأجمل، فيسير متعثراً في دروبه، لكن عينيه مسمرتان في مهارج وفراديس الأفق حيث عالم الغبطة والخلاص، ذلك العالم الذي ارتسم في أعماق ذاته وطفا على مشارف أهدابه[١].

ويعلـــق محمد فتوح على ذات الأبيات التي ترى فيها نورة الشملان أن المتنبي مصاب بداء العظمة، بقوله:" يصبح البحث في حجم دلالتها على واقع حياة الشاعر نوعاً من المصادرة، لأن صـــاحبها لم يكن حريصاً على تسجيل هذا الواقع بقدر حرصه على أن يرسم بهذه الصورة مـــثالاً يتغياه، أو هاجساً من هواجس الخوف يناوشه، و راسباً من رواسب الإحباط يكاد يحول بينه وبين مثاله"[٢]:

تُنسى البِلادَ بُروقَ الجَوِّ بارِقَتي وَتَكتَفي بِالدَمِ الجاري عَنِ الدِيَمِ[٣]

ثـــم يقول:" قاس بعض الشراح هذه الصورة وأمثالها بمدى مطابقتها للأصل نعني بقدر دلالتها على واقع حياة الشاعر، وشخصيته، وحين ظهر لهم حجم المفارقة بين الأصل، والصورة حملـــوا هـــذه المفارقـــة علـــى محمل المبالغة ثم لاحظوا ما في هذه المبالغة من غلو وإسراف فوصـــموها بالادعـــاء، ومجافـــاة المعقول، وسجل العكبري هذا الملحظ قائلاً: وهذا كلام مشبع بالحماقـــة حـــتى لـــو قاله أحد بني بويه، أو بني أرتق، أو بني أيوب لنسب إلى ذلك وهم ملوك الأرض، وحماتها، وأرباب المغازي، وولاتها [٤]"

---

(١)علي شلق- مرجع سابق، ص١١.

(٢)محمد فتوح، شعر المتنبي، قراءة أخرى، ص٦٠.

(٣)الديوان، ص١١٢.

(٤)محمد فتوح، مرجع سابق، ص٦٠.

ويعلق على كلام العكبري: " والمسألة ليست مسألة حماقة، أو مجافاة للمعقول فليس من الضـــروري أن تكـــون صـــورة الشخصية تكراراً لواقع الشخصية، وحتى إذا بدا الأمر، وكأن الشـــاعر يركز على الملامح الذاتية لهذه الشخصية عن طريق إسناد الحديث إلى ضمائر المتكلم أو إضافته إليها؛ فإن هذه الملامح لا تعدو أن تكون خطوطاً في الصورة الفنية، وليست توثيقاً في الأصل [١]"

وحيـــن تتحول الشخصية إلى حيث تصبح صورة، أو قناعاً فنياً، فإنها لا تجد حرجاً أن تســـتعير بعض القسمات والألوان التي ليست لها في واقعها، إن هذه المبالغة ليست سوى ملمح من ملامح ذلك القناع الذي آثرت الشخصية أن تتقنع به [٢]"

وهـــذه المبالغات التي يلجأ إليها الشاعر نوع من أنواع الاغتراب عن الواقع الذي يسعى الشـــاعر لتحطـــيمه، وبناء عالم جديد وفق رؤية خاصة به، تخلط الواقع بالأسطوري، والحقيقة بـــالحلم، لـــيوائم بذلك بين واقعه المرير الذي لا يرغب أن يكون فيه، وبين نفسه بآمالها الكبيرة وآلامهـــا المريـــرة التـــي تمزقها معلناً بذلك عن بطل بهذا الحجم، كي يجسر هذه الفجوة التي تصطرع بداخله.

وفـــي اعتقادي أن المتنبي فارس الكلمة لم يكن كذلك لو أنه وجد في عصره من يجسد معاني الرجولة التي كان يبحث عنها، فلم يجدها إلا في ذاته، أو أنه كان يراها هو في ذاته، وأنه كـــان يرى مَنْ حوله أقزاماً، لا يستحقون أن يستفهم عنهم" بمن "، فراح يعلي من شأنها بمقارنة ضـــدية بينه وبين أهل عصره، فهم يمثلون الخنوع ،والصغار، والخوف من الحكام، وهو يمثل

---

(١)فتوح، مرجع سابق، ص٦١.

(٢)نفسه، ص٦١.

القيم، والمبادئ، والتحدي، واحتقار الحكام، وإذا كان السؤال: فلماذا كان يمدحهم ؟؛ فلأنه لم يجد في جزيرة الأقزام سواهم يتواصل معهم فينفخ فيهم من روحه علَّهم يصلون إلى ما يبتغي منهم .

وكان أكثر لجوء المتنبي إلى الذات يتغناها إذا رأى ما ينكره من ممدوحه، أو إذا حاول أحد أن يمس كرامته أو يمتهنه :

إذا صَـديقٌ نَكِرتُ جانِبَـــهُ لَم تُعِني في فِراقِهِ الحِيَلُ

في سَعَةِ الخافِقَينِ مُضطَرَبٌ وَفي بِلادٍ مِن أُختِها بَدَلُ[1]

فالمتنبـــي شاعر مسكون بمعاني الرجولة، وارتحاله ما كان إلا من أجل أن يحقق مُثُلَه التـــي يؤمن بها، لم يأسره مكان في الأرض العربية أو يشعر أنه غريب عن هذه الأرض على الـــرغم مـــن ترحاله المستمر، وما كان هاجسه وغربته إلاّ تحقيق فكرته، ولكنه استشعر غربة المكـــان عـــندما تـــرك البلاد العربية متجها إلى بلاد فارس، فحن إلى وطنه عندما مدح عضد الدولة:

ولَكِنَّ الفَتى العَرَبِيَّ فـــيها غَرِيبُ الوَجهِ وَاليَدِ وَاللِسانِ

ولَو كانَت دِمَشقَ ثَنى عِناني لَبِيقُ الثُـــردِ صينِيُّ الجِفانِ[2]

وفي أول لقاء له به تذكر بلاد الشام، وقد حن إليها فقال :

شـــامِيَّةٌ طالَما خَلَـــوتُ بِها تُبصِرُ في ناظِري مُحَيّاها

فَقَبَّلَـــت ناظـــرِي تُغالِطُني وَإِنـــَّما قَبَّلَت بِهِ فـــاها

فَلَيتَهـــــا لا تَـــزالُ آوِيَةً وَلَـــيتَهُ لا يَـــزالُ مَأواها

فيهِنَّ مَن تَقطُرُ السُيوفُ دَمـــاً إِذا لِســـانُ المُحِبِّ سَمّاها

---

(١)الديوان، ص٣١٥.

(٢)المصدر نفسه، ص١٠٧٤.

أُحِبُّ حِمصاً إلى خُـــناصِرَةٍ   وكُلُّ نَفسٍ تُـحِبُّ مَحياها

حَيثُ التَقى خَدُّها وتُفّاحَ لُـبـ   نانَ وثَغري عَلى حُـمَيّاها[١]

علاقــة المتنبي بوطنه علاقة عشقية يختلط فيها عالم المرأة بالمكان " الوطن "، وتتعمق صــورة العشــق فــي إطــار تبادلي بين العاشق والمعشوق، ولكن المتنبي يصر على نرجسية المعشوق " الوطن "، فما قبّلت ناظره إلا لأنها فيه، وعلى الرغم من أنها مخادعة بفعلها ولم تقدر أن تحتويه إلا أنه يبقى العاشق الوفي، ويتمنى أن تبقى آوية في عينيه وعيناه مأواها، إنها علاقة تكاد تشفُّ ولا توضح، أهو يتحدث عن امرأة ؟ أم عــن وطن؟ أم عن كليهما معاً؟.

ب. مقدمات المتنبي تعكس نفسيته

إنهــا المشاعر والأحاسيس التي ملكت عليه نفسه عندما توجه إلى فارس واستشعر ألم الفراق عندما ترك وطنه فلم يعبأ إلا بنفسه وأحزانها فصرخ متألماً :

أَوهِ بَديلٌ مِن قَولَتي واهاً   لِمَن نَأَت وَالبَديلُ ذِكراها[٢]

ومــا عليه إلا يصرخ وكأنه قد لدغته عقرب، فأنكر عليه النقاد مثل هذه الصرخة؟ فقال الثعالبي:

" وهو برقية العقرب أشبه منه بافتتاح كلام في مخاطبة ملك[٣]"

ولكنه لم ينكر على ذاته أن تصرخ بالذي يؤلمها، غير عابئ بمن يخاطب؛ لأنه ذاته قبل كل شيء :

---

(١)نفسه، ص١٠٦٥.

(٢)الديوان، ص١٠٦٥.

(٣)الثعالبي– اليتيمة ، ج١، ص١٨٢.

لا تَجسُرُ الفُصَحاءُ تُنشِدُ هَهُنا بَيتاً وَلَكِنّي الهِزَبرُ الباسِلُ
ما نالَ أَهلُ الجاهِلِيَّةِ كُلُّهُم شِعري وَلا سَمِعَت بِسِحرِيَ بابِلُ
وَإِذا أَتَتكَ مَذَمَّتي مِن ناقِصٍ فَهِيَ الشَهادَةُ لي بِأَنِّيَ كامِلُ
مَن لي بِفَهمِ أُهَيلِ عَصرٍ يَدَّعي أَن يَحسُبَ الهِندِيَّ فيهِم باقِلُ [(١)]

وكأن المتنبي يرد على من ينتقده؛ لأنه رائد والرائد لا يتبع بل يكشف سُجفَ الغيب، ويمتد مخلفاً وراءه جميع القواعد والأعراف باحثاً عن التجديد، مخلفاً وراءه الانتقاد للمتقوقعين على ذواتهم، لأن فكرهم قد تصنَّم وتحجر حول التمثال الذي صنع لهم، فأخذوا يقيسون عليه كل شيء، ويتعبدون في محرابه متناسين ما يطرأ وما يستجد في العصر من متغيرات على المستوى الاجتماعي، والثقافي، والنفسي .

ج.تمرده على وحدة البيت

قد يتسع نظر الشاعر، ويمتد بآفاقه في طرح فكرته، أو دفقته الشعورية إلى مدى لا يتسع له إهاب البيت الواحد، فإذا به يمتد إلى عدة أبيات، فعُد عليه هذا من العيوب ـ حيث يعد التضمين في الشعر العربي من العيوب، ويرى إحسان عباس أن هذه النظرة تعود إلى أن البيت وهو الوحدة الشعرية، إنما هو وليد البيئة التي تعتمد على الحفظ، والاستشهاد، والتمثيل بالأبيات المفردة السائرة، مثلما هو نتاج المفاضلة الساذجة في نطاق الموضوع الواحد، وسيكون النظر إلى البيت المفرد السائر – أو الأبيات المفردة السائرة – محكاً للجودة ما دام الحِفْظُ لا يسمح بتصور القصيدة جميعاً[(٢)].

---

(١)الديوان،ص٣٩١.

(٢)إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٤٦.

القاضي الجرجاني يبقى مشدوداً إلى نظرية البيت مع أنه يحاول أن يفلت منها، " التقطنا من عروض الديوان أبياتاً لم تذهب إن شاء الله في أكثرها عن جهة الإصابة ، فإن وقع خلالها البيت أو البيتان فلأن الكلام مقصود به والمعنى لا يتم بدونه، وما تقدمه، وما يليه مفتقر إليه، أو لغرض لا تعظم الفائدة إلا به.[١] "

وكما نلاحظ من النص أن الناقد يحاول أن يفلت من إسار النظرة النقدية التي يرى فيها أنهـــا غـــير قادرة على مواجهة النص الجديد الذي تمرد عليها، وهم بذلك يردون القصور إلى النص لا إلى النظرية.

يقـــول المستشـــرق هاملتون جب في معرض حديثه عن الارتباط العضوي في قصائد المتنبـــي:" وقلما قدَّر هذه الصفة لديه النقاد العرب الذين انتقوا أبياتاً مفردة متبعين التراث القديم لمدحها أو ذمها بغض النظر عن علاقتها بالسياق "[٢].

ويقول إحسان عباس:" وقد يكون المتنبي رسم فعلاً خطاً فاصلاً في الشعر العربي ووقف وحـــده وقفة شاهرة، ولكنه في الوقت نفسه أثبت عجز النقد ودورانه حول نفسه لا لأن الأدوات الـــنقدية عجـــزت عن أن تفسر كنه تفوقه وحسب، بل لأن هذا النقد نفسه لم يستطع أن يقيم أية علاقة بينه وبين مختلف المستويات الشعرية بعد المتنبي (قبولاً أو رفضاً)[٣] ".

كمـــا يـــرد عباس قيام المعركة الشعرية العنيفة التي دامت طويلاً حول المتنبي إلى أنها منبعثة في أكثر الأحيان من عداء للشخص نفسه، وكانت غايتها إخراج المتنبي من دائرة الشعر جملة، وهو بذلك يتصور المشكلة بأنها مزدوجة، وهي وضع التراث كله جملة في ناحية ووضع شعر المتنبي في ناحية أخرى، ومحاولة الموازنة بينهما للقضاء على الثاني.

---

(١)علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص١٧٧.

(٢)جاسم محسن عبود- التطلع القومي عند المتنبي، ص٤٥، وعصام السيوفي، ص٣١.

(٣)إحسان عباس، مرجع سابق، ص٢٣.

د.الغلو في شعره:

والمتنبـــي فـــي جميع حالاته لا يصدر إلا عن نفسه معلناً تمرده، ومخترقاً اللغة مغرِّباً فيها، ومبالغاً حد الإفراط والإحالة غير عابئ بما بعد ذلك:

أَنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ [١]

يقول ابن رشيق: فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً ؟ وأبعدهم فيه همة، حتى لو قدر ما أخلى منه بيتاً واحداً[٢].

والثعالبي يأخذ عليه هنات يعدها من عيوب شعره، منها: الإفراط في المبالغة، والخروج فيه إلى الإحالة [٣]، ومنها تكرير اللفظ الواحد من غير تحسين[٤].

يقـــول ابن سنان الخفاجي:" إن المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولـــم يكن خافياً أو مستغلقاً كالمعاني التي وردت في شعر أبي الطيب، وأمثلة الكلام الذي يظهر معناه ولا يحتاج إلى الفكر في استخراجه كثيرة، وعامة شعر البحتري عليه، فأمّا الذي يسأل عن معـــناه، ويفكّـــر فـــي فهمه، فكالأبيات التي في شعر المتنبي، وقد نعاها عليه الصاحب بن عباد – رحمه الله – وكان يسميها رقى العقارب[٥] "

كمـــا يقول عبده بدوي :"والمتنبي بعمله هذا تمرد على نظرية النقد، وبتمرده هذا حاول الـــنقاد تحطـــيمه أو فهم معانيه، ودارت حوله معركة نقدية بين مؤيد، ومعارض، ومحاول أن ينتصف للحقيقة، وكأن المتنبي كان يعمل ذلك عن قصد، وهو القائل :

---

(١)الحسن بن رشيق القيرواني– العمدة في صناعة الشعر وآدابه، ج٢، ص٦٤.

(٢)الثعالبي، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٤.

(٣)المصدر نفسه، ص٢٠٥.

(٤)نفسه، ص٢٠٥.

(٥)عبد الله محمد بن سنان الخفاجي– سر الفصاحة، ص١٩٥.

أَنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ[١]

وكان المتنبي على خلاف ما قرره النقاد، ذلك أنه شابك بين بعض المعاني وعقّد، ولأنه كـــان وراء ذلك الاتصال بنفسيته أكثر من الاتصال بقوانين اللغة فهو في كثير من المعاني التي يوردهـــا يحب أن يستثير، وأن يلهو، وأن يكون غامضاً، وإن تعددت حول ما يريد الآراء وحقاً لقد تعددت[٢]"

وإذا كان المتنبي قد اغترب بشخصه عن المجموع، واستطاع أن يثبت وجوده في الموقع الذي يريده، وكان يستطيع أن يحدد الزمان، والمكان، والشخص الذي يريد أن يصل إليه، ويحدد طبيعة هذه العلاقة مع هؤلاء على الرغم من شخصياتهم الاعتبارية فقد استطاع أن يحدد طريقة تعاملـــه مـــع اللغـــة مكونـــاً منها علاقات أوقعت علماءها في حيرة جعلتهم يختصمون في فهم مقاصـــده، فهـــو يشـــكل من علاقات اللغة ذاته قبل كل شيء معلناً عن أسلوب جديد غير تلك الأساليب التي بنى النقاد نقدهم عليها .

ويقـــول بـــدوي:" خـــرج على خصائص الأسلوب المتعارف عليها والمتمثلة أساساً في الصـــحة، والوضوح، والدقة، فهو هنا يقيم جدلاً بين الشيء ونقيضه، ويتحدث بمفهوم المخالفة وينجح في الكشف عن علاقات جديدة بينه وبين الأشياء؛ فهو يستجدُّ طريقة محكومة به شخصياً قبل أن تكون محكومة بقوانين اللغة، وأعراف الناطقين بها، صحيح أنه تعامل مع عناصر عربية صحراوية غزيرة، ولكن كل ذلك قد حكم بمحور رئيس هو المتنبي "[٣].

---

(١)الديوان، ص ٦٩٣.

(٢)عبده بدوي، قضايا حول الشعر، ص٢٠٢.

(٣)المرجع نفسه، ص٢٠١.

ونجـد أن مـن النقاد المحدثين من يدافع عن مثل هذه المبالغات، والإحالات عاداً إياها دلالة أكيدة على قدرة الشاعر على التشكيل الشعري، وتمثل التجربة الشعرية.

وقـد تُـرد مثل هذه المبالغات إلى الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر مغترباً عن واقعه الاجتماعي حالماً بقوة أسطورية تغير هذا الواقع.

يقـول عدنان عبيدات: " ولا ننسى أن نذكر أن المتنبي وعى الظروف التاريخية لأمته آنـذاك، ومـا كانـت تواجه من أخطار محتمة، تزداد فتكاً يوماً بعد يوم، لهذا فلا بد من عذر الشاعر هنا لمبالغته، ففي زحمة الانفعالات، والإرهاص النفسي تنبعث المعاني دائماً في صورة مهولـة كبيرة، فتتعاظم أمامنا الأشياء، وتتقلص الحقائق كما هي دون أن يلحق بها إلى ما فوق المـألوف فيـبرزها فـي صـورة هامة، وأن العواطف الجامحة هنا ما كانت إلا الزاد الرئيس للتجارب الشعرية[١].

وإن عـدّ الثعالبي التكرار من معائب شعر المتنبي، إلا أن نازك الملائكة تعتبره إلحاحاً على جهة مهمة في العبارة، يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها، ويسلط الضوء على نقطة حساسـة في العبارة ويكشف عن اهتمام الكاتب بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيِّمة تفيد الناقد الأدبي الذي يـدرس الأثر ويحلل نفسية حاكيه[٢].

أمـا ابن رشيق فيقول عنه "و للتكرار مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل، فإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخذلان بعينه "[٣]

---

(١)عدنان عبيدات- الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي، ص٢١٣.

(٢)نازك الملائكة- قضايا الشعر المعاصر، ص٢٧٦.

(٣)ابن رشيق، مرجع سابق، ج٢، ص٧٣.

وإن عــدّ الثعالبـــي تكرار اللفظ من معائب شعره الا أنه قد عقد له في كتابه بعض ما تكـــرر في شعره من معانيه ثمانية وعشرين معنى كرّرها في شعره ولم يعدها من المعائب[١]، وقد عد قبلها عشرين معنى صدرها تحت عنوان صدر من سرقاته[٢].

ومـــثل هـــذا التكرار في المعاني له أثره في أعماق المتنبي، لذلك يحاول أن يظهره في أكثر من موقف لأن المتنبي شاعر ذاتي النزعة، ويحمل بداخله قضايا ومعاني لا بد وأن يركز عليها في تجربته الشعرية.

وهـــذا مـــا ذهب إليه إبراهيم العريض إذ يقول :" قضية التكرار تشغل الشاعر في كل مراحله، وهي شاهد على انشغاله طيلة حياته برواسب بعض المعاني، والألفاظ المكررة، ثم إنها قد تكون محاولة للتفوق على النفس، بعد حالة التفوق على الآخرين"[٣].

وقـــد لخّـــص إحسان عباس قضية الخصومة مع المتنبي بأنها تحمل بعداً شخصياً؛ فهو يـــرى أن المتنبـــي في طريقته، وشخصيته يمثل مشكلة كبرى للنقاد فهو شاعر يجمع بين القديم والحديث، يجئ بالجزالة، والقوة، والبيان على خير ما كان يجئ به القدماء، ويغوص على معاني الحـــياة الإنسانية غوصاً بعيداً، ويضّمن شعره فلسفة حياة، وثقافة تنتمي إلى القرن الرابع كذبت المقايـــيس. أيـــن مـــا كان يتحدث به النقاد عن الصراع بين القديم والمحدث ؟ بل أين ما كانوا يـــتحدثون به من ميلٍ الى أبي تمام، ونزوعٍ الى طريقة البحتري ؟ إنهم أمام طريقة جديدة قديمة لا يـــنفع فـــيها ما اعتمدوه من مقاييسِ عمودِ الشعرِ، ويتابع: وصدم المتنبي الذوق مرتين: مرةً بشخصـــه المتعالـــي المتعاظم، ومرة بجرأته في الشعر، جرأته التي تركب المبالغة حتى تمس

---

(١)الثعالبي، مرجع سابق، ص١٧١-١٨٠.

(٢)المرجع نفسه، ص١٦٤-١٧١.

(٣)ابراهيم العريض- فن المتنبي بعد ألف عام، ص ١٢٩.

العقـيدة الدينـية، و تنتحل آراء فلسفية غريبة، و تستخف بأصول اللياقة و العرف في مخاطبة الممدوحين، ورثاء النسـاء، و تتصرف باللغة تصرف المالك المستبد[١].

ونشبت المعركة بين الأنصار والخصوم، ولكن حصادها كان قليل الغناء؛ لأن الخصوم أرادوا تحطـيم شـعر المتنبـي انتقاماً من شخصه، وتعاظمه، وتعاليه، ولذلك كان أكثر همهم منصـرفاً إلـى التأكيد على أن شعره "مرقعة " مصنوعة من معاني الآخرين، ولم تكن الوسائل النقدية عند الأنصار قد تطورت بما يناسب الجدّة التي طلع بها المتنبي على الناس، فاكتفوا إما بتصوير الإعجاب المشدوه، أو تفسير المعاني، أو الدوران حول حسن الابتداء، وحسن التخلص، وما أشبه من الأمور الشكلية، ولكن الأنصار والخصوم كانوا متفقين على أن المتنبي ليس شاعراً صـغيراً، ولذلك يمكن القول أن النقد الذي دار حول المتنبي كان في أكثره هجوماً على المتنبي الإنسـان من خلال الشعر، وحين شاء هذا النقد أن يحتكم الى الأنصاف استعار الوسائل القديمة لدراسـة ظاهـرة جديدة، ولكن لا مجال للإنكار بأن النقد في القرن الرابع وما بعده، لم ينشغل بشـيء انشغاله بالمتنبي وشعره، ولولا إحساس النقاد بكبر الظاهرة لما وجدت في نفوسهم ذلك الصدى البعيد[٢].

وبذلك يكون المتنبي قد اغترب بشخصه عن واقعه الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي وامتلك ناصية اللغة مفجراً فيها آفاقاً جديدة، استطاع من خلالها أن يغترب عن الذوق العام فيما هـو متعارف عليه لدى النقاد الذين وقفت أدواتهم النقدية عاجزة عن مجاراة هذه الآفاق الجديدة

---

(١)إحسان عباس، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(٢)المرجع سابق، ص٢٥٣.

التي سعى المتنبي إليها عن قصد، فهو يصنع شعره ليعجز أهل اللغة كما أخبر أبا الفتح بذلك[١]، وكذلك أعلن عن ذلك بشعره، فهو ينام ويجعل الخلق يختصمون فيما يقوله .

هـ.التصغير وعلاقته بالاغتراب:

وثمـــة أمر آخر لجأ إليه المتنبي معلنا استعظام ذاته، ومغترباً عن الناس وهو التصغير، فقـد صـــغّر أهـــل الزمان محتقرا إياهم، وقد يكون ابن القارح هو أول من أثار هذه القضية أو الظاهـــرة فـــي شعر المتنبي عندما كتب رسالته إلى المعري، والتي جاءت رسالة الغفران رداً علـــيها، فيقول: قال المتنبي:" أنام إلى هذا الزمان أهيله "، فصغّرهم تصغير تحقير غير تكبير وتقلـــيل غير تكثير، فنفث مصدوراً، وأظهر ضميراً مستوراً، وهو سائغ في مجاز الشعر وقائله غـــير ممـــنوع من النظم والنثر، ولكنه وضعه غير موضعه، و خاطب به غير مستحقه، و ما يستحق زمان ساعده بلقاء سيف الدولة أن يطلق على أهله الذم، وقد كان من حقه أن يجعلهم في خفارتـــه، إذ كانوا منسوبين إليه محسوبين عليه، ولا يجب أن يشكو عاقلاً ناطقاً إلى غير عاقل ولا ناطق[٢].

فيردُّ عليه المعري : فأما ما ذكره من قول أبي الطيب " أنام إلى هذا الزمان أهيله " فقد كان الرجل مولعاً بالتصغير، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير[٣]، ثم يذكر شواهد من شعر المتنبي علـــى استخدامه التصغير، وبعد ذلك يقول ولا ملامة عليه، إنما هي عادة صارت كالطبع، فما حسن منها مألوف الربع، ولكنها تفتقر مع المحاسن[٤].

---

(١)البديعي، مرجع سابق، ص٩٨، وقد أشير لهذا القول سابقاً .

(٢)أبو العلاء المعري- رسالة الغفران، ص ٢٥.

(٣)المصدر نفسه، ص٢٠٨.

(٤)نفسه، ص ٢٠٨.

ويعلّل عباس العقاد هذه العادة التي أصبحت عنده كالطبع – و التي لم يعللها المعري – بـــأن ولـــع المتنبي بالتصغير مردّه الى نفسيته التي خلقت لتكون في مراكز الحكم و ليس لقول الشعر ، "لقد كان في خلقه و تفكيره استعداد عظماء الرجال، و لكن بغير أداة العظمة ، فخرجت عظمـــته هذه في عالم الفنون، ولم تخرج في عالم الحوادث، وأظهر مظاهر شعوره بالعظمة في سمات شعره في التهويل، والتفخيم من جهة وهذا الولع بالتصغير من جهة أخرى.[١] "

ويـــردّ العقاد لجوء المتنبي الى التصغير أيضاً في حالات معينة فيقول: " أكثر ما يكون مصغراً في شعره إذا كان هاجياً حانقاً على مهجوه أو مستخفاً ومتعالياً على غيره [٢]"

ويرى محمد فتوح أن ظاهرة التصغير قد يكون لها جذورٌ من الناحية النفسية فيما يتسم بـــه تكويـــن المتنبـــي من إحساس بالعظمة، وتوكيد الذات، وقد تكون لها – أيضاً – وشائج من موقفه من خصومه ومنافسيه على الصدارة الشعرية [٣]".

والتصغير عند المتنبي قد ينال من شخص بعينه أو مجموعة من أشخاص أو يضم أهل الزمان وهو عندما يصغرهم فإنه يقلل من شأنهم ويحتقرهم كما يرى ذلك محمد فتوح إذ يقول: أكـــثر هـــذه الوظائف دوراناً في شعر المتنبي، تلك التي قصد إليها تحقير الشيء، والتهوين من شأنه، وفي تلك الحالة نرى المواءمة كاملة بين وظيفة صيغة التصغير، ووظيفة النسق الشعري باعتـــبار الأولى إحدى لبنات الثانية، ومقدمة من مقدماتها، حين يكون المقام مواجهة فرد بعينه ترى التصغير يتناول اسم ذلك الفرد، بحيث يتولى السياق تسويغ ذلك التصغير، وتوفير السمات الهجائية التي تبرره وتضفي عليه قدراً من الإقناع والمنطقية كقوله:

---

(١)عباس العقاد– مطالعات في الأدب و الحياة، ص ١٢٨.

(٢)المرجع نفسه، ص١٢٨.

(٣)محمد فتوح، مرجع سابق،ص ٤١.

أَولى اللِئـــــامِ كُوَيفيرٌ بِمَعذِرَةٍ   في كُلِّ لـُؤمٍ وَبَعضُ العُذرِ تَفنيدُ

وَذاكَ أَنَّ الفُحولَ البيضَ عاجِزَةٌ   عَنِ الجَميلِ فَكَيفَ الخِصيَةُ السودُ[٤]

وعندما تكون المواجهة مع نمط تجمع بين أفراده صفة مشتركة ترى التصغير ينصرف إلـى تلك الصفة دون التحديد، وقد تضاف إليها في هذه الحالة بعض النعوت السلبية التي تسهم في خلق المناخ الهجائي المقصود.

أَفي كُلِّ يَومٍ تَحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ   ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ[١]

وقد يتسع نطاق موضوع التصغير حتى يضم أهل الزمان جميعاً.

أَذُمُّ إِلى هَذا الزَمانِ أُهَيلَهُ   فَأَعلَمُهُم فَدمٌ وَأَحزَمُهُم وَغدُ[٢]

وتصـبح العلاقـة بيـن المـبدع وأهل عصره علاقة تناقض، لا يلتقي طرفاه إلا لقاء الأضـداد، ولا يبصـر ثانيهما في أولهما من عناصر السلب إلا ما هو في حقيقته من عناصر الإيجاب، وسواء أكان التواء الرؤية على هذا النحو ناجماً عن سوء النية، أم سوء الفهم فإنه في الحالتين ليس محسوباً على الشاعر بقدر ما هو محسوب له[٣]:

وَإِذا أَتَتكَ مَذَمَّتي مِن ناقِـصٍ   فَهِيَ الشَهادَةُ لي بِأَنِّيَ كامِلُ

مَن لي بِفَهمِ أُهَيلِ عَصرٍ يَدَّعي   أَن يَحسُبَ الهِندِيَّ فيهِم باقِلُ[٤]

إن شـعور المتنبـي بالـتوتر والمفارقـة بينه وبين مجتمعه حدا به إلى أن يؤثر اللغة مستخدماً أسلوب التصغير ليعلن عن اغترابه عن هذا المجتمع من خلال لغة القصيدة .

---

(٤)الديوان، ص٩٧٨.

(١)الديوان، ص٧٧٠.

(٢)المصدر نفسه، ص٤٣٠.

(٣)محمد فتوح، مرجع سابق، ص٤٣.

(٤)الديوان، ص٣٩١.

و.استخدام ذا الإشارية تحمل بعداً استعلائياً

ومن المآخذ التي عدت على المتنبي استخدامه ذا الإشارية وقد أكثر من استخدامها، وقد عدّها الثعالبي من عيوب شعره، فبعد أن يذكرعدة أبيات استخدم فيها المتنبي ذا الإشارية يقول: فهو كما تراه سخافة وضعفاً، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكرناه من هذه الإشارة، وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفاً، والمحدثون أكثر استعانة بها، لكن في الفرط والندرة، أو على سبيل المثال الغلط والفلتة[١].

وقد وافق الثعالبيُّ الجرجانيَّ في أنتقاده اذ يقول: وهو أكثر الشعراء استعمالاً لـ(ذا) التي هي للإشارة، وهي ضعيفة في صنعة الشعر، دالة على التكلف، وربما وافقت موضعاً يليق بها، فاكتسبت قبولاً[٢].

وبعد أن يسوق الجرجاني شواهده وقد بلغت ستة عشر شاهداً وافقه الثعالبي في سبعة من أصل عشرة شواهد عند الثعالبي، نجد الثعالبي يردد كلام الجرجاني فيقول فهو – كما تراه – سخافة وضعفاً، ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف ما ذكره من هذه الإشارة، وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفاً والمحدثون أكثر استعانة بها، لكن في الفرط والندرة أو على سبيل الغلط والفلتة[٣].

وقد انتبه ابن جني إلى هذه الظاهرة وسأله عنها حيث قال: قلت له في بعض ما كان يجري بيني وبينه: تستعمل ذا وذي في شعرك كثيراً فأمسك قليلاً ثم قال: أن هذا الشعر كله لم يعمل في وقت واحد، قلت له صدقت إلا أن المادة واحدة فأمسك[٤].

---

(١)الثعالبي، مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٢)المرجع السابق، ص٢٠٢، والنص ذاته في الوساطة للجرجاني، ص٩٥.

(٣)نفسه، ص٢٠٤، وهي عند الجرجاني ص٩٧.

(٤)عثمان بن جني – الفسر، ج١ ، ص ١٠٨.

ويــرى عدنــان عبيدات أن ظاهرة استخدام ذا الإشارية في شعر المتنبي ليست ظاهرة أسلوبية على الرغم من كثرة استخدامه إياها والتفات القدماء إليها رغم أنها ظلت مسايرة له في شــعره حــتى أواخر أيامه حيث مدح ابن العميد وعضد الدولة وقد استخدمها غير مرة، فيقول والمتنبــي لــم يكن يقصد الإكثار من هذه اللفظة كما يزعم الجرحاني، فقد حاول أن يعتذرعن تكريــر الأشارة. ويبرر كثرتها في شعره باختلاف الزمن الذي أنشدها فيه، مما أنساه أنه أفرط في استعمال الإشارة، ولو كان يتعمد أمثال ذلك لسمعنا فيه تدعيماً لوجهة نظره في هذا التكرار إن كان يقصد إليه ويعتمده أو يتعمد سواه من سائر السمات الأسلوبية التي تعرضنا لها[١].

وأظــن أن المتنبــي ليس مطالباً بتفسير لما يستخدم من اللغة، بل هذا ما يفسره دارس الأدب أو العمــل الشــعري، ولو لم يقصد المتنبي إليها قصداً لتركها بعد أن سمع اعتراض ابن جنــي علــيها ولكــنها بقيــت مصاحبةً له في شعره حتى أواخر أيامه وفي ظني أن هذا الاسم الإشــاري على الرغم من احتجاج الشراح والنقاد عليه واعتباره قبيحاً في الشعر، إلا أنه يحمل بعــداً اســتعلائياً يحاكي نفسية المتنبي المستعلية والمغتربة عن واقعها، حتى وإن جاءت ضمن سياق مدحي إلا أنها تبقى تحمل بعدها الاستعلائي:

أَبا المِسكِ ذا الوَجهُ الَّذي كُنتُ تائِقاً إِلَيهِ وَذا الوَقتُ الَّذي كُنتُ راجِيا[٢]

وعلــى الــرغم من أنه كان يمدح كافوراً إلا أنك تستشعر في استخدامه اسم الإشارة ذا الاستعلاء عليه، وربما نوعاً من التهكم والسخرية، وبعد أن يشرح العكبري هذا البيت يقول: فيه قــال أبــو الفتح "وهذا البيت يتأول فيه الهجاء[٣]، وقد يحمل معنى الاحتقار للخصم العدو حين يقول:

---

(١)عبيدات، مرجع سابق، ص٢٠٦.

(٢)الديوان، ص٨٨٦.

(٣)العكبري، ج٤، ص٢٨٩.

أَفي كُلِّ يَومٍ ذا الدُمُستُقُ مُقدِمٌ قَفاهُ عَلى الإِقدامِ لِلوَجهِ لائِمُ[١]

وقد يستخدمها من باب الاستنكار فينظر إلى العيد نظرة المستنكر له؛ لأن العيد لا يعني لـــه مـــا يعني إلى أولئك الناس الفرحين به، فهو وإن كان محاذياً لهم بجسده وكيانه إلا أنه بعيد عنهم بعواطفه ووجدانه، فأضافت كلمة " ذا " الإشارية معنى البعد، والاستهجان، والاستنكار:

يُضاحِكُ في ذا العيدِ كُلُّ حَبيبَهُ حِذائي وَأَبكي مَن أُحِبُّ وَأَندُبُ[٢]

وقـــد تحمل بعدها الاستعلائي في المفاضلة بين الممدوح وبين سواه ممن يشاركونه في صفةٍ ما فيتفوق عليهم بصفة ليست فيهم :

عَن ذا الَّذي حُرِمَ اللُيوثُ كَمالَهُ يُنسي الفَريسَةَ خَوفَهُ بِجَمالِهِ[٣]

أو تحمل معنى الدونية مقابل علوّ شأن الممدوح :

لَو لَم تَكُن مِن ذا الوَرى الَّذي مِنكَ هو عَقِمَت بِمَولِدِ نَسلِها حَوّاءُ[٤]

أو قـــد تحمـــل معنى عدم الرضى عن أمر له خصوصية، وعلاقة وطيدة بالشاعر، من خـــلال إضافة ياء المتكلم إلى هذا المخصوص، فرغم أنه ملكي إلا أنه بعيد عني لأنه لا يحقق رغبتي:

أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَن [٥]

---

(١)الديوان، ص٧٨٦.

(٢)المصدر نفسه، ص ٩٣٦.

(٣)نفسه، ص ٦٠٩.

(٤)نفسه، ص٢٩٤

(٥)نفسه، ص٩٤٤.

فالحالـــة النفســـية التـــي يعيشها المتنبي جعلته على خلاف مع زمنه، هذا الزمن الذي يخصه، فاغترب عنه لأنه لم يحقق له رغباته، فزمنه قريب منه إلا أنه بعيد عن تحقيق طموحاته فجاءت " ذا " تمثل معنى هذا البعد النفسي .

وقـــد يســـتخدمها من باب استنكاره للحدث الذي يستبعد حدوثه، ومن باب التبرير لردة فعله، " فذا " ببعدها الإشاري تحمل معنى الرفض مع الأخذ بعين الاعتبار أن البحر هنا مقصود به الممدوح :

وَإِن جَزِعنا لَهُ فَلا عَجَبٌ ذا الجَزرُ في البَحرِ غَيرُ مَعهود [١]

فهـــو قد استهجن الجزر، أي الإحجام والارتداد، لأنه اعتاد أن يرى هذا الشخص مقدماً دائماً، والجزر يحمل معنى الموت، فأشار إليه بـــ(ذا)لأنه استبعد أن يحدث .

يقـــول بـــدوي : " ومهما يكن من شيء فإنها تدل _ أي ذا _ على التعالي على الناس، ونحن في حياتنا قد نستعملها حين لا نحب تسمية أحد "[٢].

و.اغتراب الكلمة من خلال انفتاح دلالتها

وبمـــا أن الشاعر يعيش حالة من عدم الرضا الذي يمتد إلى الرفض والثورة، ولكنه في الوقـــت ذاتـــه يعيش ضمن مجتمع سلطوي، كان لابد أن يوائم بين ذاته ومجتمعه، فاجترح لغة تحمـــل خصائص هذه المواءمة، إذ لك أن تراها من زاوية هي على نقيضها من زاوية أخرى، حيـــث ترضي الأولى مجتمعه السلطوي بمعانيها القريبة، والثانية ترضي ذاته المتمردة بمعانيها التـــي يراها، وربما كان المتنبي يفعل هذا عن وعي تام، لأنه يعلم أن البقاء للكلمة إذا ما انتهت سلطة الخوف، فيقول :

---

(١)الديوان، ص ٦٢٦.

(٢)عبده بدوي، مرجع سابق، ص ١٩٨.

أَنا صَخرَةُ الوادي إِذا ما زوحِمَت وَإِذا نَـطَقتُ فَإِنَّني الجَوزاءُ

وَإِذا خَفيتُ عَلى الغَبِيِّ فَعـاذِرٌ أَن لا تَراني مـُقَلَةٌ عَمياءُ [١]

فهـو يعـذر الغبي في فهم معانيه ومقاصده، وهو مع ذلك يمتد إلى أهل الفطنة والذكاء فيشغلهم بما يقول:

أَنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ[٢].

والمتنبـي بتعقيده لمعانيه قد أشعل معركة بين شراح ديونه ونقاد شعره في فهم معانيه، فـيقول الواحـدي في مقدمة شرحه للديوان:" ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء: كالقاضي أبي الحسن بن عبد العزيز الجرجانـي صاحب "كتاب الوساطة"، وأبي الفتح عثمان بن جني النحوي، وأبي العلاء المعري، وأبـي علـي بن فورجة البروجردي – رحمهم الله تعالى – وهؤلاء كانوا من فحول العلماء، وتكلموا في معاني شعره مما اخترعه، وانفرد بالإغراب فيه، وأبدعه، وأصابوا في كثير من ذلك وخفي عليهم بعضه، فلم يبن لهم غرضه المقصود لبعد مرماه وامتداد مداه"[٣].

ويقـول:" أما ابن جني فإنه من الكبار في صناعة الإعراب والتصريف، والمحسنين في كـل واحـد مـنهما بالتصنيف، غير أنه إذا تكلم في المعاني تبلّد حماره، ولجّ به عثاره، ولقد استهدف في كتاب الفسَر غرضاً للمطاعن، ونهزة للغامز والطاعن"[٤].

ثـم يصف عمل ابن فورجة بقوله:" كتب مجلدين لطيفين على شرح معاني هذا الديوان سـمّى أحدهما التجني على ابن جني، والآخر الفتح على أبي الفتح، غائصاً على الدُّرر، وفائزاً

---

(١)الديوان، ص ٢٩٣.

(٢)الديوان، ص ٦٩٣.

(٣)الواحدي-مقدمة الديوان، ص٤٩.

(٤)المصدر نفسه، ٤٩.

بالغُـــرر ثـــم لم يخلُ من ضعف البنية البشرية والسهو الذي ما يخلو عن أحد من البرية ، ولقد تصفحّت كتابيه وأعلمت على مواضع الزّلل"[١].

بيـــنما يقـــول ابن فورجة في مقدمة كتابه "الفتح على أبي الفتح" أنه: " ألفّ هذا الكتاب لشـــخص _ ولم يذكر اسمه _من أجل بيان معاني الأبيات الغامضة، وشرحها شرحاً يأتي على إغرابه، وإعرابه حتى يكون لمعانيها متصوراً وعلى حل عقدها مقتدراً[٢]."

ويـــردّ عـــبده بدوي هذه التعقيدات في شعر المتنبي إلى أنه كان ممتلئاً بتراثه وممتلئاً بنفســـه أكثر من موضوعه، وأنه مشغول بالجليل عن الجميل، ويرى أن وراء تعقيده وغموضه في بعض الأحيان الانهزام المتكرر واستحالة الأمل وقلة نصيبه من الخيال، فاعتماده على العقل كان يدخله في المتاهات[٣].

فالمتنبـــي كان يوائم بين ما في نفسه وبين الأشياء، وهذه الموائمة كانت تعطي الألفاظ نوعاً من التضاد والحركة المترددة بين النفس والأشياء، ولو أنه وائم بين الأشياء لبردت الألفاظ عنده ولما كان له هذا النوع من القراءة والخصوصية[٤].

ويكاد يكون في معظم شعره في ديار مصر، وفي بلاد فارس يحمل مثل هذه العلامات، لذلك تجد أن مديحه يحتمل وجهين، فيقول في مدحه كافوراً:

وَجُرداً مَدَدنا بَينَ آذانِها القَنا فَبِتنَ خِفافاً يَتَّبِعنَ العَوالِيا[٥]

---

(١)الواحدي، مقدمة الديوان، ص٤٩.

(٢)محمد بن أحمد بن فورجة، الفتح على أبي الفتح، ص ٣٥.

(٣)بدوي، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٤)المرجع نفسه، ص٢٠٠.

(٥)الديوان، ص ٨٨٦.

أخبر الرواة أن كافوراً قد قال بعد أن فَهِم الأبيات، أو أُفْهِمَها-: " قد جاءنا الرجل غازياً ولم يأت مادحاً"، ولذا قال حسام زادة الرومي أن هذه الأبيات" تتضمن شدة عزم تلك الجرد من الخيل على غارة كافور[١]".

وقبل هذا البيت نجده يرسم صورة لنفسه تحمل معنى الوفاء ولكن على أن لا تمتهن كرامته :

أَقِلَّ اِشتِياقاً أَيُّها القَلبُ رُبَّما رَأَيتُكَ تُصفي الوُدَّ مَن لَيسَ جازِياً

خُلِقتُ أَلوفاً لَو رَحَلتُ إِلى الصِبا لَفارَقتُ شَيبي موجَعَ القَلبِ باكِياً[٢]

فهو وفي لمن قبل كافور، ولكنه يرغم النفس على زيارة كافور بدلالة تعدية الفعل "أزرته ":

وَلَكِنَّ بِالفُسطاطِ بَحراً أَزَرتُهُ حَيَاتي وَنُصحي وَالهَوى وَالقَوافِيا

ومثل هذا نجده عندما زار ابن العميد، وكأنه يتمنى أن تكون زيارته لهذا الممدوح على غير ما هي عليه، فإذا بقناته تنكر عليه فعله :

فَبِلَحظِها نَكِرَت قَناتي راحَتي ضَعفاً وَأَنكَرَ خاتِمايَ الخِنصِرا

أَعطى الزَمانُ فَما قَبِلتُ عَطائَهُ وَأَرادَ لي فَأَرَدتُ أَن أَتَخَيَّرا[٣]

وكأنه أراد أن تكو ن زيارته على غير ما هي عليه ، كأنه أراد أن يكون غازياً لها :

أَرَجانَ أَيَّتُها الجِيادُ فَإِنَّهُ عَزمي الَّذي يَذَرُ الوَشيجَ مُكَسَّرا

لَو كُنتُ أَفعَلُ ما اِشتَهَيتِ فِعالَهُ ما شَقَّ كَوكَبُكِ العَجاجَ الأَكدَرا

---

(١)حسام زادة الرومي- رسالة في قلب كافوريات المتنبي، ص ٤٣.

(٢)الديوان، ص ١٠٣٨.

(٣)المصدر نفسه، ص ١٠٣٤.

وفــي ظنـــي أن الشارح قد نظر إلى هذه الأبيات كون قائلها مداحاً، ولم ينظر إليها من خلال نفسية الشاعر التي كانت تكن البغض للأعاجم .

فــيقول الواحدي في شرح هذه الأبيات: يقول لخيله اقصدي هذه البلدة فإني عزمت على قصدهم بعزم قوي يكسر الرماح بقوته، والمعنى أن الرماح لا تعوقني عن هذه العزيمة، ويقول لخــيله لــو فعلت ما تريدين ما ركضتك في الغبار المظلم، يعني أن الخيل تريد الجمام والراحة وهو يتعبها في الأسفار(١).

فهــل كان المتنبي يريد حقيقة هذا المعنى الذي قصد إليه الشارح، أم أنه كان يسعى إلى شيء آخر؟ وهل استشعر المتنبي غدر بني بويه فيه من خلال وزيرهم ابن العميد حيث يقول:

صُغتُ السِوارَ لأيِّ كَفٍّ بَشَّرَت   بِابنِ العـَمـيدِ وَأَيِّ عَبدٍ كَبَّرا

يا لَيتَ باكِيَــةً شَجاني دَمعُها   نَظَرَت إِلَيكَ كَما نَظَرتُ فَتَعذِرا

إن هــذه الأبـيات فيها رائحة الغدر الذي حاكه البويهيون له، فقد وقع في إسارهم فكان الســوار الــذي تقيد فيه بمحض إرادته، وهو يندب لأمته نفسه إذ وقع في إسار الأعادي الذين طالمــا حذر أمته منهم، فقد رأى كل شيء عن كثب، وتبينت له حقيقة الأعداء الفرس واضحة، كما أن الشمس لا تغطى بغربال، لأنها واضحة وأشعتها نافذة، **(ولا تفلح عرب ملوكها عجم)**(٢):

وَتَرى الفَضيلَةَ لا تَرُدُّ فَضيلَةً   الشَمسَ تُشرِقُ وَالسَحابَ كَنَهوَرا

فمهمــا حاول هذا السحاب أن يعلو، وأن يبيّن أنه صاحب فضيلة إلا أن فضيلة الشمس بعلوهــا تــبقى ساطعة، وكأنه أراد بالشمس: العرب وفضلهم، وأراد بالسحاب الكنهور: الفرس ومحاولتهم أن يظهروا كأنهم أصحاب فضيلة، ولأن المتنبي قد اكتشف هذه الحقيقة بنفسه، والتي

---

(١)الديوان، ص ١٠٣٨.

(٢)المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

طالما نادى بها، وحذر منها أبناء قومه أعلن أن تجارته قد ربحت؛ لأنه قد كشف حقيقتهم:

أَنا مِن جَميعِ الناسِ أَطيَبُ مَنزِلاً وَأَسَرُّ راحِلَةً وَأَربَحُ مَتجَرا

أهي رسالة يرسلها إلى سيف الدولة ؟ وقد كلفه بها، فقال :

فَهِمتُ الكِتابَ أَبَرَّ الكُتُب فَسَمعاً لأمرِ أَميرِ العَرَب

وَطَوعاً لَهُ وَابتِهاجاً بِهِ وَإِن قَصَّرَ الفِعلُ عَمّا وَجَب[1]

انفتاح الدلالة أمام الضمير (الضمير المراوغ)

الخطاب في البيت الأخير لمن: أهو لسيف الدولة، أم لابن العميد، وما ظني إلا أنه موجهه لسيف الدولة، فقد أصبح نائياً بعيداً كما زحل، فقد صور العرب بالكواكب، وصور نفسه بزحل، ولو كان بين قومه لأكرموه:

زُحَلٌ عَلى أَنَّ الكَواكِبَ قَومُهُ لَو كانَ مِنكَ لَكانَ أَكرَمَ مَعشَرا

والشارح يقول في قبل الأخير من هذه القصيدة: يقول" أي المتنبي " طاب مكاني، ومنزلي مقصده، وسرتني راحلتي حين أنتني إليه، فأسر مبالغة من السّار، ويجوز أن يكون مبالغة من السرور، والمراد بسرورها سرور راكبها، وتجارتي أربح من تجارة غيري حين اشترى شعري بأوفر الأثمان[2].

ولا أعتقد إلا أن هذا التفسير قد أفقد بيت الشعر هذا جماليته، وما وراءه من كنايات يرسلها إلى سيف الدولة، وما على سيف الدولة إلا أن يُحلِّل هذه" الشيفرة ".

ثم من قصد بزحل والكواكب؟ هل قصدهم بها كما شرحه الواحدي، أم أراد شيئاً آخر؟ فيقول الواحدي: "جعل الكواكب المحيطة بزحل كالقوم له حين كان يسمى شيخ النجوم، يقول

---

(١)الديوان، ص ٨٧٨.

(٢)المصدر نفسه، ص١٠٤٣، أنا من جميع الناس أطيب منزلاً وأسَرُّ راحلةً وأربحُ متجرا

زحـــل: لو كان من عشيرتك لكان أكرم معشراً منه الآن، والنجوم قومه، يعني أن قوم الممدوح ورهطه أشرف من النجوم[١] "

ولا أدري مـــن أين أقحم الواحدي كلمة النجوم، مع أن المتنبي لم يذكرها، وما ذكر إلا زحل والكواكب وهي من نفس الجنس ؟.

ومـــا قصد المتنبي بزحل إلا نفسه، والكواكب قومه، ولو كان من أهل الممدوح لازداد شرفاً، وهو المعنى القريب الذي أوهم فيه الممدوح، أما المعنى البعيد الذي قصد إليه المتنبي فهو قربه من سيف الدولة .

والتســـاؤل الـــذي أود أن اطرحه: هل كان صدور المتنبي عن سيف الدولة حقيقياً كما يروى لنا، أم أن وراء هذا الصدور أبعاداً نجهلها، وكانت سراً بين الرجلين، وأن الحوادث التي حدثت للمتنبي في بلاط سيف الدولة مفتعلة؛ لتبرر صدور الرجل عنه ليكتشف، أو يستكشف له أمر الدولتين الإخشيدية والبويهية، مستتراً خلف كونه شاعراً مداحاً قد طبق الآفاق شعره، فكانت قصـــائده تصـــل إلـــى ســـيف الدولة محملة بما يريده منه سيف الدولة محللاًهذه " الشيفرات "، ومســـتطلعاً الأمر عن كثب من رجل يثق به أيما وثوق، وما كان خروج المتنبي من لدن كافور بمثل هذه السهولة إلا لأن هناك أعوان قد أعانوه ودبروا له أمر خروجه، وفراره من ديار كافور الإخشيدي، ومن ثم التقى رسول سيف الدولة، _ ويقال أنه ابنه_ في الكوفة[٢] وأظنه أطلعه على

---

(١)الديوان، ص١٠٤٣

(٢)انظر ما صدرت به القصيدة التي مطلعها: ما لنا كلنا جوٍ يا رسول . إذ يقول : " وقد أنفذ إليه ابنه من حلب إلى الكوفة ومعه هدية ، وكان ذلك بعد خروجه من مصر ، ومفارقته لكافور وذلك في شوال سنة : ٣٥١هـــ ، ٩٦٢ م " ص (٨٧١) وكذلك ما جاء في تصدير القصيدة التي مطلعها : فهمت الكتاب أبر الكتب ، إذ يقول : " أنفذ إليه سيف الدولة كتاباً بخطه إلى الكوفة يستدعيه فأجابه بهذه القصيدة ، وانفذها إليه في (مبافارقين) وكان ذلك في شهر ذي الحجة ، أو في شوال سنة ٣٥٣ هـــ ، ٩٦٤ م " . ص (٨٧٨) . وهذه تحمل دلالات على ما ذهبت إليه من أن العلاقة لم تنقطع بين الشاعر والأمير .

مـــا أراد سيف الدولة، ثم كلفه بالمهمة الأخرى، وهي الذهاب إلى بلاد فارس، وما عليه إلا أن ينفذ مهمة أمير العرب.

وهــو بذلــك يغلــب الواجب والقيم التي آمن بها على ذاته، ومع ذلك تغنى حزنه عند كافور:

بِمَ التَعَـلُّـلُ لا أهلٌ وَلا وَطَنُ وَلا نـَديمٌ وَلا كَأسٌ وَلا سَكَنُ[١]

يُضاحِكُ في ذا العيدِ كُلٌّ حَبيبَهُ حِذائي وَأَبكي مَن أُحِبُّ وَأَندُبُ[٢]

يقول عصام السيوفي: قد صار من المعروف عندنا وعند بعض الآخرين- لدى مطالعة الديوان أن لأبي الطيب في كل مرحلة – مواقف حرة بعيدة عن قوالب الكلام المتداولة من مدح أو هجــاء أو رثــاء ... يسترسل المتنبي مع نفسه وينفرد بذاته متأملاً حاله مستعيداً ما مر به مفكــراً بآتيه، متخذاً القرار الذي سيتصرف في ضوئه، وذلك الموقف يسيطر على المتنبي كلما اشتد به الشعور بالغربة، وعدم التوافق مع البيئة المحيطة به والجواء الذي يشتمله[٣].

والمتنبي ربما كان على تمام العلم بما سيحدث له بمصر، وبالألم النفسي الذي سيلحق به إذا أصــبح بيــن يدي العبد كافور، ولكنه يحتمل كل هذا مقابل أن يحقق مجده الذي يسعى إليه، ويصــل إلى الهدف الذي انتدب إليه، وهو أن يستطلع أمر مصر عن كثب حتى ينقله إلى سيف الدولة، فإذا به يتغنى هذا الألم والحزن، ويصبر عليه لا ضعفاً، ولكنه في سبيل تحقيق مجد يرنو إليه:

---

(١)الديوان، ص ٩٤٤.

(٢)المصدر نفسه، ص ٩٣٦.

(٣)عصام السيوفي- العوامل السياسية في شعر أبي الطيب المتنبي، ص ٥٠٢-٥٠٣.

وَلَستُ بِقانِــعٍ مِــن كُــلِّ فَضلٍ ... بِأَن أُعزى إِلى جَــدٍّ هُــمــامِ

عَجِبتُ لِـمَن لَـهُ قَـدٌّ وَحَــدٌّ ... وَيَنبو نَبوَةَ القَـضِــمِ الكَهامِ

وَمَن يَجِـدُ الطَريقَ إِلى المَعــالي ... فَلا يَذَرُ المَطِــيَّ بِــلا سَــنامِ

وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَــيئاً ... كَنَقصِ القادِريــنَ عَلى التَمامِ

أَقَمتُ بِأَرضِ مِــصرَ فَلا وَرائي ... تَخُبُّ بِيَ الــمَطِيُّ وَلا أَمامي

وَمَلَّنِيَ الفِراشُ وَكــانَ جَنبي ... يَــمَــلُّ لِقاءَهُ في كُلِّ عــامِ

قَلــيلٌ عائِــدي سَقِــمٌ فُؤادي ... كَــثيرٌ حاسِدي صَعبٌ مَرامي(١)

فمـا الذي يجبر المتنبي أن يعيش مثل هذه الحياة سوى أنه منتدب لأمر في مصر غير مطلـب الولايـة التي سعى إليها عند كافور، وغير الخلاف المفتعل في بلاط سيف الدولة ليجد المبرر الذي يدخله مصر كافور، وفارس البويهين عدوي سيف الدولة فيما بعد.

وأيـن طـريق المعالـي الذي يتحدث عنه المتنبي ؟ أهو المسير إلى كافور يطلب منه الولايـة ؟ أم أن هناك أمراً آخر يسعى إلى تحقيقه في ديار كافور غير الأمر المعلن ؟ لقد كان عند سيف الدولة في حال ، وهو الآن في مصر بحال آخر :

أَقَمتُ بِأَرضِ مِصرَ فَلا وَرائي ... تَخُبُّ بِيَ المَطِيُّ وَلا أَمامي

وقـد كان يغبر جواده في المعارك مع سيف الدولة، ولكنه الآن في فراش المرض وقد ملَّ الفراش طول ثوائه بعدما كان هذا الفراش يشتاق إليه لطول سفره:

وَمَلَّنِيَ الفِراشُ وَكانَ جَنبي ... يَمَلُّ لِقاءَهُ في كُلِّ عامِ

---

(١)الديوان، ص٩٥٦.

إن مثل هذا الصراع الذي يحتدم داخل النفس الإنسانية بين الذات وتغليب الواجب الذي يسعى إلى تحقيقه يولد مثل هذه الصور التي تصطرع داخل النفس، فبعده عن أحبته، وعن المواطن التي كان يحب أن يجد نفسه فيها تسبب له ألماً، وما يصبره على ذلك إلا تحقيق الهدف الذي نذر نفسه من أجله :

وَما في طِبِّهِ أَنّي جَوادٌ أَضَرَّ بِجِسمِهِ طولُ الجِمامِ

تَعَوَّدَ أَن يُغَبِّرَ في السَرايا وَيَدخُلَ مِن قَتامٍ في قَتامِ

وبعد ذلك غادر كافور على أقبح وجه، ويمم نحو الكوفة، وجاءته رسل سيف الدولة، تسترضيه في العودة إلى صاحبه وتستطلع خبر مصر، وتكلفه أمراً جديداً، وكان الأول هو الظاهر للعيان، والآخران هما المطلوب، فصعد إلى بغداد ثم توجه إلى بلاد فارس.

وقديماً قالت العرب:" لأمرٍ ما جَدَعَ قَصيرٌ أنفَه[١] ؟" ولك ان تقول لأمر ما غادر المتنبي سيف الدولة.

وقد ذهب هذا المذهب عصام السيوفي معللاً دخوله بغداد بأمر من سيف الدولة ليستطلع سياسة الدولة، وليخبر الرجال الذين كانوا يوقدون نار الفتنة هناك، ويروز ما عندهم[٢]

وقد نجح مسعى المتنبي في ديار كافور رغم الضغط النفسي الذي كان يستشعره هناك، فروَّح عن نفسه بعد أن خرج من هناك بقصيدة فخر تنم عن نجاح مسعاه في استكشاف الأمر، وهذه القصيدة ممتلئة بتوكيد الذات، هذه الذات التي كبتت طويلاً في ديار كافور، ممجداً الخيل التي حملته: أَلا كُلُّ ماشِيَةِ الخَيزَلى فِدا كُلُّ ماشِيَةِ الهَيذَبى[٣]

---

(١)الميداني، مصدر سابق، ج١، ص١٩٦.

(٢)السيوفي، مرجع سابق، ص ٥٤٩.

(٣)الديوان، ص٩٨٩.

إلى أن يصل إلى قوله – وما أظنه إلا رسالة إلى سيف الدولة يخبره فيها بنجاح مسعاه:

وَأَنّي وَفَــيــتُ وَأَنّي أَبَــيتُ وَأَنّي عَتَوتُ عَلــــى مَن عَتا

وَما كُلُّ مَن قــالَ قَــولاً وَفى وَلا كُلُّ مَن ســيمَ خَسفاً أَبى

وَمَن يَكُ قَلبٌ كَـــقَلبي لَــهُ يَــشُقُّ إِلى العِزِّ قَلبَ التَوى

وَلا بُدَّ لِلقَــلــبِ مِن آلَـــــةٍ وَرَأيٍ يــــُصَدِّعُ صُمَّ الصَفا

وكُلُّ طَريقٍ أَتــاهُ الــفَــــتى عَلى قَــدَرِ الرِجلِ فيهِ الخُطا

وقــد ربــط محمود شاكر بين هذه الأبيات إلى أنها إشارات إلى قضية نسبه، في قوله " وإني وفيت[١]"

ومــا أدري مــا وجه هذا الربط بين الذي ذهب إليه شاكر وقضية نسبه، وما الأمر في ظنـــي إلا أنه قد وفى للأمر الذي انتدبه إليه سيف الدولة، وفصل له أمر كافور فيما بعد في هذه الأبــيات، معــتذراً إلــيه عن مدح كافور، فهو خويدم أعمى القلب، انتزع عقله عندما انتزعت خصيتيه، والعيب في أهل مصر الذين أمّروا على أنفسهم شخصاً كهذا:

وَنامَ الخُوَيــــدِمُ عــَن لَيلِنا وَقَد نامَ قَبلُ عَمىً لا كَرى

وَماذا بِمِصرَ مِنَ المُضحِكاتِ وَلَــكِــنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكا[٢]

ويبدو أن اتصالاً كان بين سيف الدولة، والمتنبي يتم بالخفاء، أو من خلال شعره:

وكانَ عَلى قُربِنا بَينَنا مَهامِهُ مِن جَهلِهِ وَالعَمى

فهــو يجهل الأمر الذي جعلني آتي به إليه، وما فطن أني لا أمدحه، فكيف يرضى على نفسه أن يمدح بما ليس فيه إلا لجهله:

---

(١)محمود شاكر ، مرجع سابق ، ٣٧٤.

(٢)الديوان، ص٩٨٩.

وَأَســـــودَ مــشِفَرُهُ نِصفُهُ　　　يُقالُ لَهُ أَنتَ بَدرُ الدُجى

وَشِعرٍ مَدَحتُ بِهِ الكَركَدَنَّ　　　بَينَ القَريضِ وَبَينَ الرُقى

فالمتنبي يبين منهجه في إنشاء القصائد التي مدح بها كافوراً، وأن بها تورية عجيبة تنم عن عمق نظرته في الشعر، وكيف يستطيع أن يصل إلى مراده:

فَــما كانَ ذَلِكَ مَدحاً لَهُ　　　وَلَكِنَّهُ كانَ هَجوَ الوَرى

وَمَن جَهِلَت نَفسُهُ قَدرَهُ　　　رَأى غَيرُهُ مِنهُ مالا يَرى

وقد طرق المتنبي هذا المعنى في أهل مصر عندما تم الصلح بين كافور وبين سيده ابن الإخشيد ، وقد استطاع كافور أن يحسم الأمر لصالحه :

وَأَطاعَ الَّذي أَطاعَكَ وَالطا　　　عَةُ لَيسَت خَلائِــقَ الآسادِ

فَبِهَذا وَمِثلِهِ سُدتَ يا كا　　　فورُ وَاِقتَدتَ كُلَّ صَعبِ القِيادِ (١)

---

(١)الديوان، ص٩٢٩.

الفصل الثالث

١.اغتراب الذات بين ضمير المخاطب وضمير الأنا

أ.ضمير المتكلم في مدائح كافور(الاحتمالات والدلالات)

ب.دلالة الضمير بين الانتماء والاغتراب

٢.المتنبي وتحول المثال

٣.الأنا في شعر المتنبي

أ.تواضع الحياة وعظمة الذات

ب.نفسية الشاعر وانعكاسها على الضمير

ج.ضمير الأنا في السيفيّات

د. الضمير(نحن) بين الانتماء والاستعلاء

هـ.علاقة ضمير" الأنا" مع الآخر

١.اغتراب الذات بين ضمير المخاطب وضمير الأنا

يكاد يكون هذا الفصل امتداداً لقضية طرحتها في نهاية الفصل الثاني، وهي قدرة المتنبي في استخدام الكلمات التي تنفتح الدلالة فيها حيث أصبحت قصائد المتنبي في ديار كافور الإخشيدي وفي بلاد فارس ترمي إلى مقاصد أبعد من كونها مدحاً، لذلك نجد أن الضمير قد انفتحت فيه الدلالة

أ.ضمير المتكلم في مدائح كافور (الاحتمالات والدلالات)

والمتتبع قصائد المتنبي في كافور الإخشيدي يقرأ رسائل كان يرسلها إلى سيف الدولة يخبره فيها عن حال مصر، وأنه الوفي له، يخبره عن حاله وعما وجد في طريقه من معاناة، وهو على أتم العلم بأنها ستصل إلى سيف الدولة، وما على سيف الدولة إلا أن يقرأ ما بين السطور.

وتأمل قصيدته الأولى "كفى بك داءً" فإن بها من الإشارات التي تدلل على ما كان معقوداً من الأمر بين الرجلين، فهو الوفي له، ويخبره خبر سيره إلى أن تصل إلى الأبيات التي تقول:

وَأَنتَ الَّذي تَغشى الأَسِنَّةَ أَوَّلاً وَتَأنَفَ أَن تَغشى الأَسِنَّةَ ثانِيا

إِذا الهِندُ سَوَّت بَينَ سَيفَي كَريهَةٍ فَسَيفُكَ في كَفٍّ تُزيلُ التَساوِيا[1]

فما أراها إلا خطاباً موجهاً إلى سيف الدولة .

ورسالته الثانية "من الجآذر في زي الأعاريب" يفصل له فيها أمر كافور وما هو عليه، ويختمها بالتسليم عليه والوفاء له:

يا أَيُّها المَلِكُ الغاني بِتَسمِيَةٍ في الشَرقِ وَالغَربِ عَن وَصفٍ وَتَلقيبِ

---

(١)الديوان، ص٨٨٧.

أنتَ الحَبيبُ ولَكِنّي أعـوذُ بِهِ ... مِن أن أكـــونَ مُحِباً غَيرَ مَحبوبِ(١)

ورسالته الثالثة :

أوَدُّ مِـــنَ الأيّامِ مالا تَوَدُّهُ ... وَأشكو إلَيها بَينَنا وَهيَ جُندُهُ

يُباعِدنَ حِبّاً يَجتَمِعنَ وَوَصلُهُ ... فَكَيفَ بِحِبٍّ يَجتَمِعنَ وَصَدُّهُ(٢)

فهو يرفض أن يمدح مثل هذا الرجل، ويتضح ذلك من قوله:

وَأسرَعُ مَفعولٍ فَعَلتَ تَغَيُّراً ... تَكَلُّفُ شَيءٍ في طِباعِكَ ضِدُّهُ

وبعد أن يشرح له أمر كافور يمدحه إلى آخر القصيدة:

فَيا أيُّها المَنصورُ بِالجَدِّ سَعيُهُ ... وَيا أيُّها المَنصورُ بِالسَعيِ جَدُّهُ

ويخبره أنه ما زال على العهد، ويتمنى لو أنه ما زال إلى جانبه:

ولَيتَكَ تَرعاني وَحَيرانُ مُعرِضٌ ... فَتَعلَمَ أنّي مِـــن حُسامِكَ حَدُّهُ

وَأنّي إذا باشَـــرتُ أمــراً أُريدُهُ ... تَدانَـــت أقاصيهِ وَهانَ أشَدُّهُ

فَزارَكَ مِنّي مَن إلَيكَ اشتِياقُهُ ... وَفي الناسِ إلاّ فيكَ وَحدَكَ زُهدُهُ

ويقول لسيف الدولة أنه محل ثقة:

إذا كُنتَ في شَكٍّ مِنَ السَيفِ فَابــلُهُ ... فَــإمّا تُنَفِّـــيهِ وَإمـّا تُعِدُّهُ

وَما الصارِمُ الهِـــندِيُّ إلا كَغَيرِهِ ... إذا لَـم يُفارِقهُ النِجادُ وَغِمدُهُ

وَإنَّكَ لَلمَشكـورُ في كُلِّ حالَـــةٍ ... ولَو لَم يَكُن إلاّ البَشاشَةَ رِفــدُهُ

فَكُلُّ نَوالٍ كــانَ أو هــُوَ كائــِنٌ ... فَلَحظَةُ طَرفٍ مِنكَ عِندِيَ نِدُّهُ

---

(١)الديوان، ص٩٠١.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٠٨.

وَإِنّي لَفي بَحرٍ مِنَ الخَيرِ أَصـــلُهُ عَطاياكَ أَرجو مَدَّها وَهيَ مَدُّهُ
وَمـــا رَغبَتي في عَسجَدٍ أَستَـــفيدُهُ وَلَـــكِنَّها في مَفخَـــرٍ أَستَجِدُّهُ
يَجودُ بِهِ مَن يَفضَحُ الجـــودَ جودُهُ وَيَحمَدُهُ مَن يَفضَحُ الحَمدَ حَمدُهُ
فَإِنَّكَ ما مَرَّ النُحوسُ بِكَوكَبٍ وَقابَـــلتَهُ إِلّا وَوَجهُكَ سَعدُهُ

وقصـــيدته الرابعة أو رسالته الرابعة يثني فيها على من فارقه ويحمد الأمر الذي انتدب إلـــيه، فهـــو فـــي هذه الرسالة يمتدح سيف الدولة، ثم يعلمه أمر كافور بعد البيت السابع عشر، ويصف له حاله في ديار كافور:

أَبا المِسكِ أَرجو مِنكَ نَصراً عَلى العِدا وَآمُلُ عِزّاً يَخضِبُ البيضَ بِالدَمِ
وَيَوماً يَغيـــظُ الـــحاسِدينَ وَحالَـــةً أُقـــيمُ الشَقـــا فيها مَقـــامَ التَنَعُّمِ(١)

وما قصد "بذاك " إلا سيف الدولة:

وَلَم أَرجُ إِلّا أَهـــلَ ذاكَ وَمَـــن يُرِد مَـــواطِرَ مِن غَيرِ السَحائِبِ يَظلِمِ
فَلَو لَم تَكُن في مِصرَ ما سِرتُ نَحوَها بِقَـــلبِ المَشوقِ المُستَهامِ المُتَيَّمِ
وَلا نَـــبَحَت خَـــيلـــي كِلابُ قَـــبائِلٍ كَأَنَّ بِها في اللَيـــلِ حَمـــلاتِ دَيلَمِ
وَلا اتَّـــبَـــعَت آثـــارَنا عَينُ قائِفٍ فَـــلَم تَرَ إِلّا حـــافِراً فَوقَ مَنسِمِ

فأمر كافور قد حرك سيف الدولة ؟ وأرسل له المتنبي كي يأتيه بخبره:

وَأَبلَـــجَ يَعصي بِاختِصاصي مُشيرَهُ عَصَيتُ بِقَصديهِ مُشيري وَلَوَّمي
فَساقَ إِلَـــيَّ العُـــرفَ غَيرَ مُكَدَّرٍ وَسُقتُ إِلَيهِ الشُكرَ غَيرَ مُجَمجَمِ
قَدِ اختَرتُكَ الأَمـــلاكَ فَاختَر لَهُم بِنا حَديثاً وَقَد حَكَّمتُ رَأيَكَ فَاحكُـــم

---

(١)الديوان، ص٩٢٠.

فَأَحسَنُ وَجهٍ في الوَرى وَجهُ مُحسِنٍ وَأَيـــمَنُ كَفٍّ فيهِمُ كَفُّ مُنعِـمِ

وَأَشرَفُهُم مَن كانَ أَشـــرَفَ هِمَّةً وَأَكبَرَ إِقــــداماً عَلى كُلِّ مُعظَمِ

لِمَن تَطلُبُ الدُنيا إِذا لَم تُـرِد بِها سُرورَ مُحِبٍّ أَو إِســـاءَةَ مُجرِمِ

وفــيما يــبدو لي أن سيف الدولة قد أرسل له مهراً مع بعض رسله/ عيونه، الذين كان يبثهم في مصر ليأتوه بالأخبار، والمتنبي يعلمه بوصول الهدية:

وَقَد وَصَلَ المُهرُ الَّذي فَوقَ فَخذِهِ مِنِ اسمِكِ ما في كُلِّ عُنقٍ وَمِعصَمِ

فقــد وسم هذا المهر بميسم سيف الدولة، فأعلمه بوصول الهدية، وقد أخفى اسمه وذكر صفته، فهو يحمل بالأكف والمعاصم ويعمل في الرقاب، وكأنه يبشره بأنه سيستولي على مصر ويأخذهــا مــن يد كافور كما انتزع حلب منهم، وقد يطرح السؤال التالي إن الذي أهداه المهر كــافوراً لا سيفُ الدولة، وربما يكون قد أهداه سيف الدولة مهراً بالسر مع أحد أتباعه، كما وأن كافور قد أهداه أيضاً، ودلالة البيت تشير إلى مهر سيف الدولة لا إلى مهر كافور:

لَكَ الحَيَوانُ الراكِبُ الخَيلَ كُلُّهُ وَإِن كانَ بِالنيرانِ غَيرَ مُوَسَّمِ

وأظن أن الشوق قد حركه بعد وصول هذه الهدية من سيف الدولة :

وَلَو كُنتُ أَدري كَم حَياتي قَسَمتُها وَصَيَّرتُ ثُلثَيها اِنتِظارَكَ فَاعلَمِ

وَلــَكِنَّ ما يَمضي مِنَ العُمرِ فائِتٌ فَجــُد لي بِحَظِّ البادِرِ المُتَغَنِّمِ

وَمِثلُــكَ مــَن كانَ الوَسيطَ فُؤادُهُ فَكَلَّمَــهُ عَنـــّي وَلــَم أَتَكَلَّمِ

وقــد بعث برسالة أخرى يتشوق فيها إلى سيف الدولة ويذكر له فيها مسيره إلى مصر، وما كان من أمره، وأنه ما زال على العهد، ويخبره حال كافور، وأنه يتشوق إلى أهله، والمتنبي فــي هذه القصيدة كما في سائر الكافوريات، يراوح فيها بالضمير بين كافور وسيف الدولة، فهو يفدي سيف الدولة بقوله:

وَأيُّ قَبيلٍ يَستَحِقُّكَ قَدرُهُ مَعَدُّ بنُ عَدنانٍ فِداكَ وَيَعرُبُ[١]

ويسخر من كافور في البيت الذي يليه :

وَما طَرَبي لَمّا رَأَيتُكَ بِدعَةً لَقَد كُنتُ أَرجو أَن أَراكَ فَأَطرَبُ

والمتنبـــي بعملـــه هذا لابد وأن يُكدّ ذهنه،حتى يجد الكلام الذي يرسله إلى سيف الدولة محملاً بالإشارات التي يجب على سيف الدولة أن يفهمها ويعيها، فالمتنبي يقف بخطابه أمام ملك يخاطبه، ويقصد بخطابه ملكاً آخر تصله الرسالة وعليه أن يحللها:

وَتَعذِلُني فيكَ القَوافي وَهِمَّـــتي كَأَنّي بِمَدحٍ قَبلَ مَدحِكَ مُذنِبُ

وَلَكِنَّهُ طالَ الطَريقُ وَلَـــم أَزَل أُفَتِّشُ عَـن هَذا الكَلامِ وَيُنهَبُ

فَشَرَّقَ حَتّى لَيسَ لِلشَرقِ مَشرِقٌ وَغَرَّبَ حَتّى لَيسَ لِلغَربِ مَغرِبُ

إِذا قُلتُهُ لَم يَمتَنِع مِن وُصـولِهِ جِدارٌ مُعَلّى أَو خِباءٌ مُطَنَّبُ

وكأن المتنبي قد استطال ورود سيف الدولة إليه غازياً مصر ليضمها تحت لوائه:

وَما عَدِمَ اللاقوكَ بَأساً وَشِدَّةً وَلَكِنَّ مَن لاقَوا أَشَدُّ وَأَنجَبُ

وانظـــر هذه الأبيات الثلاثة من نفس القصيدة، فإن للمتنبي فيها تصرفاً عجيباً يكشفه ما ذهبت إليه من كونه يرسل رسائل إلى صديقه عبر مدحه كافوراً، ويقصد بها سيف الدولة:

وَبي ما يَـــذودُ الشِعرَ عَنّي أَقَلُّهُ وَلَكِنَّ قَلبي يا اِبـنَةَ القَومِ قُلَّبُ

وَأَخلاقُ كافورٍ إِذا شِـئتُ مَدحَهُ وَإِن لَم أَشَأ تُملي عَلَيَّ وَأَكتُبُ

إِذا تَرَكَ الإِنسانُ أَهـــلاً وَراءَهُ وَيَمَّـــمَ كافوراً فَما يَتَغَرَّبُ

وشاهدي هنا قوله في الأبيات التالية وكأنه يستغيث، أو ينادي من يخلصه:

---

(١)الديوان، ص٩٣٧.

فَـتىً يَمــلأُ الأفــعالَ رَأياً وَحِكمَةً وَنادِرَةً أحــيانَ يَرضى وَيَغضَبُ

إِذا ضَرَبَت في الحَربِ بِالسَيفِ كَفُّهُ تَبَيَّنتَ أَنَّ السَيفَ بِالكَفِّ يَضرِبُ

والرســل كانت بينهما لا تنقطع، وبلغ أبو الطيب أن قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال سنة ٣٤٨ هــ:

بِمَ التَعَلُّلُ لا أَهلٌ وَلا وَطَــنٌ وَلا نَديمٌ وَلا كــأسٌ وَلا سكَنُ

أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ[١]

فهي رسالة يرسلها يحملها أشواقه، وأحزانه ويختمها بقوله :

وَإِن تَأَخَّرَ عَنّي بَعضُ مَوعِدِهِ فَما تَأَخُّرُ آمالي وَلا تَهِنُ

هُوَ الوَفِيُّ وَلَكِنّي ذَكَرتُ لَــهُ مَوَدَّةً فَهوَ يَبلوها وَيَمتَحِنُ

وهو يذكر سيف الدولة أنه الرجل الذي لا يستعاض عنه إذا مات:

ما في هَوادِجِكُم مِن مُهجَتي عِوَضٌ إِن مُتُّ شَوقاً وَلا فيها لَها ثَمَنُ

وظني أن الرسالة أو مضمونها يكمن في البيت الذي يقول فيه :

ما كُلُّ ما يَتَمَنّى المَرءُ يُدرِكُهُ تَجري الرِياحُ بِما لا تَشتَهي السُفُنُ

فهــو يحــذره من أمر ما، والقصيدة التي أرخها في شوال سنة ٣٤٧ هــ، أو هي الرسالة التي أرخت بهذا التاريخ ومطلعها:

مُنىً كُنَّ لي أَنَّ البَياضَ خِضابُ فَيَخفى بِتَبييضِ القُرونِ شَبابُ[٢]

بها يمتدح نفسه ويفخر، فهو نَجْمٌ تهتدي به صحبته، لسداد رأيه، وثبات جنانه، وهو وإن ركب العيس فما هو إلا عقاب، له قُدْرةٌ على استطلاع المكان واستكشافه، وهو الأقدر على حفظ السر،

---

(١)الديوان، ص٩٤٤.

(٢)المصدر نفسه، ص ٩٦٣.

واستيضاح الأمور، وكشف خوافيها:

جَلا اللَونُ عَن لَونٍ هَدى كُلَّ مَسلَكٍ كَما انجابَ عَن ضَوءِ النَهارِ ضَبابُ

وَإِنّي لَنَجمٌ تَهتَدي بِيَ صُحبَتي إِذا حالَ مِن دونِ النُجومِ سَحابُ

غَنِيٌّ عَنِ الأَوطانِ لا يَستَفِزُّني إِلى بَلَدٍ سافَرتُ عَنهُ إِيابُ

وَعَن ذَمَلانِ العيسِ إِن سامَحَت بِهِ وَإِلّا فَفي أَكوارِهِنَّ عُقابُ

وَأَصدى فَلا أُبدي إِلى الماءِ حاجَةً وَلِلشَمسِ فَوقَ اليَعمُلاتِ لُعابُ

وَلِلسِرِّ مِنّي مَوضِعٌ لا يَنالُهُ نَديمٌ وَلا يُفضي إِلَيهِ شَرابُ

وهو يختلف عن أهل عصره، وما هم عليه من لهو ومجون وتتبع للنساء:

وَلِلخَودِ مِنّي ساعَةٌ ثُمَّ بَينَنا فَلاةٌ إِلى غَيرِ اللِقاءِ تُجابُ

وَما العِشقُ إِلا غِرَّةٌ وَطَماعَةٌ يُعَرِّضُ قَلبٌ نَفسَهُ فَيُصابُ

وَغَيرُ فُؤادي لِلغَواني رَمِيَّةٌ وَغَيرُ بَناني لِلزُجاجِ رِكابُ

وإنما هو يسعى إلى المجد الذي يناله بالسيوف والقنا:

تَرَكنا لِأَطرافِ القَنا كُلَّ شَهوَةٍ فَلَيسَ لَنا إِلا بِهِنَّ لِعابُ

وبعد أن يذكِّر سيف الدولة بما بينهما، يلوي على كافور، فيفصِّلُ له كيف يدبِّر شؤون الحكم في مصر ويعرِّض به :

تَجاوَزَ قَدرَ المَدحِ حَتّى كَأَنَّهُ بِأَحسَنِ ما يُثنى عَلَيهِ يُعابُ

وَغالَبَهُ الأَعداءُ ثُمَّ عَنَوا لَهُ كَما غالَبَت بيضَ السُيوفِ رِقابُ

وَأَنفَذُ ما تَلقاهُ حُكماً إِذا قَضى قَضاءً مُلوكُ الأَرضِ مِنهُ غِضابُ

يَقودُ إِلَيهِ طاعَةَ الناسِ فَضلُهُ وَلَو لَم يَقُدها نائِلٌ وَعِقابُ

وبعد هذا الذي يذكره من أمر كافور، يلوي على سيف الدولة يمدحه :

أيا أسَداً في جِسمـــهِ روحُ ضَيغَمٍ وكَم أُسُدٍ أرواحُهُـــنَّ كِلابُ

وَيا آخذاً مِن دَهرِهِ حَـــقَّ نَفسِهِ وَمِثلُكَ يُعطى حَقَّـهُ وَيُـــهابُ

لَنا عِندَ هَذا الدَهرِ حَــقٌّ يَلُــطُّهُ وَقَد قَلَّ إِعتابٌ وَطـالَ عِتــابُ

وَقَد تُحدِثُ الأَيّامُ عِندَكَ شَــيمَةً وَتَنعَمِرُ الأَوقــاتُ وَهيَ يَبــابُ

وَلا مُلكَ إِلا أَنتَ، وَالمُلكُ فَضلَــةٌ كَأَنَّكَ سَـيفٌ فيهِ وَهُوَ قِــرابُ

أَرى لي بِقُربي مِنكَ عَيناً قَريرَةً وَإِن كانَ قُرباً بِالبِعادِ يُشــابُ

وَهَل نافِعي أَن تُرفَعَ الحُجبُ بَينَنا وَدونَ الَّذي أَمَّلتُ مِنكَ حِجابُ

أُقِلُّ سَلامي حُبَّ ما خَفَّ عَنكُــمُ وَأَسكُتُ كَيما لا يَكــونَ جَوابُ

وَفي النَفسِ حاجاتٌ وَفيكَ فَطانَةٌ سُــكوتي بَيانٌ عِندَها وَخِطابُ

وَما أَنا بِالباغي عَلى الحُبِّ رِشوَةً ضَعيفُ هَوىً يُبغى عَلَيهِ ثَوابُ

وَما شِئتُ إِلا أَن أَدُلَّ عَــواذِلي عَلى أَنَّ رَأيي في هَواكَ صَوابُ

وَأُعلِمَ قَوماً خالَفوني فَشَــرَّقوا وَغَــرَّبتُ أَنّي قَد ظَفِرتُ وَخابوا

جَرى الخُلفُ إِلاّ فيكَ أَنَّكَ واحِدٌ وَأَنَّـــكَ لَيثٌ وَالمُلوكُ ذِئــابُ

وَأَنَّكَ إِن قويِستَ صَحَّفَ قارِئٌ ذِئاباً وَلَم يُخــطِئ فَقالَ ذُبــابُ

وَإِنَّ مَديحَ الناسِ حَــقٌّ وَباطِلٌ وَمَدحُــكَ حَقٌّ لَيـسَ فيهِ كِذابُ

ولك أن تقارن بين هذا البيت الأخير، وبين البيت الذي قاله في كافور:

تَجاوَزَ قَدرَ المَدحِ حَتّى كَأَنَّهُ بِأَحسَنِ ما يُثنى عَلَيهِ يُعابُ

عندما تعلم من عنى في كل من البيتين، وبعد ذلك يستقيم مذهب كلام المتنبي، وينكشف بعض الغموض في تعامله مع الضمير:

إِذا نِلتُ مِنكَ الوُدَّ فَالمـــالُ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابُ

وَما كُنتُ لَولا أَنتَ إلاّ مُهاجِراً لَهُ كُلَّ يَـــومٍ بَلدَةٌ وَصِحابُ

وَلَكِنَّكَ الدُنيا إِلَـيَّ حَبيبَـــةً فَما عـَنكَ لي إِلاّ إِلَيكَ ذَهابُ

والمتنبـــي قــد أوجد إشكالية في تعامله مع الضمير، الذي قصد إلى تعميته بحيث يفتح الدلالة في قضية عَوْدِه، يقول المتنبي :

عَدُوُّكَ مَذمومٌ بِكُلِّ لِسانِ وَلَو كانَ مِن أَعدائِكَ القَمَرانِ(١)

فمن قصد بهذا الضمير " ك " أكافوراً أم شبيباً العقيلي ؟.

يقــول حسين الواد: وكان الضمير في طليعة الألفاظ التي حاول القدماء إظهار معانيها بالاعــتماد علـــى وظائفها النحوية، ذلك أنه طرح عليهم أصعب القضايا وأعسرها، ويبدو أن الصـــعوبة في التعامل مع هذه اللفظة أن الضمير كائن لغوي محض، إذ هو لا يرجع إلى أشياء ملموسة أو مجردة، وإنما يرجع إلى ألفاظ من جنسه يحل محلها، ولأن الضمير كائن لغوي بحت كان من أخصب المواطن التي يشيع فيها الوهم والخلط والغلط، ومن أقرب السبل التي يتوه بها القارئ عن المعنى في البيت، فكثيراً ما لا يعرف المتلقي على مَنْ يعود الضمير في الكلام، وإن فـــي شـــعر أبـــي الطيب أبياتاً ظلت الضمائر فيها تحير العلماء فلم يعرفوا بأي شيء يعلقونها، وانتهى بهم البحث إلى التسليم بالعجز في شأنها(٢).

والمتنبـــي يلجأ إلى الضمير في مدحه إذا أراد أن يورّي في هذا الضمير، فكأن ظاهره شخص وباطنه شخص آخر، لأن الموقف لا يسمح له بذكر الآخر، وهو سيف الدولة، لكن عندما مدح دلاّر بن كشكرُوز حين ورد الكوفة من بغداد لقتال الخارجي الذي نجم من بني كلاب، وقد انصرف قبل وصوله، وكان المتنبي إذ ذاك في الكوفة وقد دافع عنها، تجد أن المتنبي يذكر دلاّر

---

(١)الديوان، ص٩٥١.

(٢)حسين الواد – المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب ، ص١٢٩.

باســـمه فـــي مواطـــن مدحه، ويبدو من النص أن للمتنبي يداً في دعوة دلاًّر للدفاع عن الكوفة، فيقول:

فَلَستُ غَبيناً لَو شَرَيتُ مَنِيَّتي بِإِكـــرامِ دِلاًّرَ اِبنِ كَشكَرَوَزٍّ لي

وَقادَ لَـــها دِلاًّرُكُلَّ طِمـــرَّةٍ تُنيفُ بِـــخَدَّيها سَحوقٌ مِنَ النَخلِ

فَتَمليكُ دِلاًّرٍ وَتَـــعظيمُ قَدرِهِ شَـــــهيدٌ بِوَحدانِيَّةِ اللَـــهِ وَالعـــَدلِ

وَما دامَ دِلاًّرٌ يَهُزُّ حُســـامَهُ فَلا نابَ في الدُنيا لِلَيثٍ وَلا شِـــبلِ

وَما دامَ دِلاًّر يُقَلِّبُ كَـــفَّهُ فَلا خَلَقَ مِن دَعوى المَكارِمِ في حِلِّ[1]

ولكن الأمر يختلف في مدحه ابن العميد، إذ تجد مذهباً مخالفاً لهذا المذهب، وقد ذكرت سابقاً كيف يعرض في مدحه بابن العميد، وكأنه يريد غزوه، وكيف أنكرت قناته عليه فعله، فهو ما جاء زائراً له إلا عن أمر سيف الدولة:

أَفتى بِرُؤيَتِهِ الأَنامُ وَحاشَ لي مِن أَن أَكونَ مُقَصِّراً أَو مُقصِرا[2]

وما أفتى له بهذه الزيارة إلا سيف الدولة، وبعد ذلك انظر إلى عود الضمير في استغاثة المتنبي على من يعود:

إِن لَم تُغِثنيَ خَيلُهُ وَسِلاحُهُ فَمَتى أَقودُ إِلى الأَعادي عَسكَرا

فإذا كانت علاقة الضمير تعود على سيف الدولة استقام كثير من معاني القصيدة:

أَنتَ الوَحيدُ إِذا رَكِبتَ طَرِيقَةً وَمَنِ الرَدِيفُ وَقَد رَكِبتَ غَضَنفَرا

وإذا اطَّلعتَ على مدائحه في سيف الدولة تجد أن هذه من جنس تلك ، وانظر الشبه بين قوله في سيف الدولة :

---

(١)الديوان، ص١٠٢٧.

(٢)المصدر نفسه، ص١٠٣٤.

رِضاكَ رِضايَ الَّـذي أوثِرُ وَسِـرُّكَ سِرّي فَما أُظهِرُ

كَفَتكَ المروءة ما تَـتَّقي وَآمَنَـكَ الوُدُّ مـا تَحذَرُ

وَسِرُّكُمُ في الحَشا مَيِّـتٌ إِذا أُنشِرَ الـسِرُّ لا يُنشَرُ[١]

وبيـن قوله عندما أصبح في ديار كافور الإخشيدي، وكأنه يذكِّر سيف الدولة بأنه حافظ للسـر، وهذا ليس قولاً فحسب، فقد قال هذا الكلام عندما كان آمناً في ظلِّه، ولكنه الآن في ديار كافور وهو ثابت على ما قال قديماً، ومذكِّراً صاحبه بالوفاء وحفظ السر مهما حدث، فنفسه ثابتة في جميع أحوالها على موقفها وإن هرم الجسم، وإن تغيرت الظروف:

وَفي الجِسمِ نَفسٌ لا تَشيبُ بِشَيبِهِ وَلَو أَنَّ ما في الوَجهِ مِنهُ حِرابُ

يُغَيِّرُ مِنّي الدَهرُ ما شاءَ غَيرَها وَأَبلُغُ أَقصى العُمرِ وَهِيَ كَعابُ[٢]

وهو الشخص الذي يعول عليه في المهمات الصعبة ، وإذا ادلهمت الخطوب :

وَإِنّي لَنَـجمٌ تَهتَدي بِيَ صُحبَتي إِذا حالَ مِن دونِ النُجومِ سَحابُ

غَنِيٌّ عَنِ الأَوطـانِ لا يَستَفِزُّني إِلى بـلَـدٍ سافَرتُ عَنهُ إِيابُ

وَعَن ذَمَلانِ العيسِ إِن سامَحَت بِهِ وَإِلا فَفي أَكوارِهـنَّ عُقابُ

وبعـد أن يعلـن عن ذاته، وأي صنف من الرجال هو، فعلاً لا قولاً، يذكر صاحبه بما بينهما، وأنه على العهد للسر حافظ، ولا يبيع صاحبه، ولا مبدأه، مهما أحوجه الأمر:

وَأَصدى فَلا أُبدي إِلى الماءِ حاجَةً وَلِلشَمسِ فَوقَ اليَعمُلاتِ لُعابُ

وَلِلسِرِّ مِنّي مَوضِعٌ لا يَنـالُهُ نَـديمٌ وَلا يُفضي إِلَيهِ شَرابُ

---

(١)الديوان، ص٧٣٣.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٦٣.

وثمـــة خلاف في بناء القصيدة السيفية، والقصيدة الكافورية، فالقصيدة السيفيَّة تريك أن المدحَ خالصٌ فيها للأول، بينما المدح في الثانية يشاب بلون من السخرية، وبتعميةٍ في الضمير، لا بـــد وأن يُرَدُّ إلى غير كافور، ومرد مثل هذا التأويل أننا على علم بنفسية المتنبي وموقفه من الشخصين، فنسق الكلام تجده متوافقاً في سيف الدولة إذ يقول:

وَلَستَ مَليـــــكاً هازِماً لِنَظيرِهِ   ولَـكِنَّكَ التَوحيدُ لِلشِركِ هازِمُ

تَشَرَّفُ عَدنانٌ بِهِ لا رَبـــــيعَةٌ   وَتَفتَخِرُ الدُنــيا بِهِ لا العَواصِمُ

لَكَ الحَمدُ في الدُرِّ الَّذي لِيَ لَفظُهُ   فَإِنَّكَ مُعطيهِ وَإِنِّـــــيَ ناظِمُ

وَإِنّي لَتَعدو بي عَطاياكَ في الوَغى   فَلا أَنا مَذمومٌ وَلا أَنــتَ نادِمُ(١)

بينما هو في كافوريته التي مطلعها:

أُغالِبُ فيكَ الشَوقَ وَالشَوقُ أَغلَبُ   وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصلُ أَعجَبُ(٢)

يتنازع الخطابَ فيها ضميران:

أَما تَغلَطُ الأَيّامُ فيَّ بِأَن أَرى   بَغيضاً تُنائي أَو حَبيباً تُقَرِّبُ

وهـــذه الازدواجـــية أدت إلى تباين في جنس الخطاب بين ذات الشاعر التي تتقنع خلف الضمير، والموقف المعلن، فالمتنبي يقول في ذات القصيدة:

سَلَلتَ سُيوفاً عَلَّمَت كُلَّ خاطِبٍ   عَلى كُلِّ عودٍ كَيفَ يَدعو وَيَخطُبُ

وَيُغنيكَ عَمّا يَنسُـــبُ الناسُ أَنَّهُ   إِلَــــيكَ تَناهى المَكرُماتُ وَتُنسَبُ

---

(١)الديوان، ص٧٨٦.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٣٥.

وَأيُّ قَبيلٍ يَستَحِقُكَ قَــــدرُهُ   مَــعَدُّ بنُ عَدنانٍ فِــداكَ وَيَعرُبُ(١)

وبعد هذه الأبيات التي تشعرك بأنها سيفية لا كافورية، وهي من جنس ما خاطب سيف الدولـــة ســـابقاً، تشعر أن انقطاعاً قد حدث، وأن البيت الذي يلي هذه الأبيات المفعمة بالمديح قد انقلب فيها الضمير، وأن المعنيَّ بهذا البيت مهجو لا ممدوحٌ:

وَما طَرَبي لَمّا رَأَيتُكَ بِدعَةً   لَقَد كُنتُ أَرجو أَن أَراكَ فَأَطرَبُ(٢)

ثـــم يرتد المتنبي بعد الانقطاع هذا، ليوائم ين بنية القصيدة من خلال الضمير المتنازع علـــيه، ولكـــنه يرتد فيه إلى ممدوحه الأول معلناً أنه هو من يستحق المديح، وأنه مدح قبله فلن يمدح أحداً بعده، بدليل البيت السابق الذي أعلن فيه الانقطاع، هذا الانقطاع المفاجئ الذي يدعوك للتوقف، والنظر في مقاصد الكلام:

وَتَعذِلُني فيـــكَ القَوافي وَهِمَّتي   كَأَنّي بِمَدحٍ قَبــلَ مَدحِــكَ مُذنِبُ
وَلَكِنَّهُ طالَ الطَــــريقُ وَلَم أَزَل   أُفَتِــشُ عَن هَذا الكَــلامِ وَيُنهَبُ
فَشَرَّقَ حَتّى لَيسَ لِلشَرقِ مَشرِقٌ   وَغَرَّبَ حَتّى لَيسَ لِلغَربِ مَغرِبُ
إِذا قُلتُهُ لَم يَمتَنِع مِن وُصــولِهِ   جِدارٌ مــــُعَلّى أَو خِبــاءٌ مُطَنَّبُ

والبيت الأخير تنفتح فيه دلالة الضمير على بعديها المدحي والهجائي، والمتنبي قد أعلن هذا من قبلُ عند سيف الدولة، وكأنه يذكره بِهِ وهو عند كافور:

وَعِندي لَكَ الشُرُدُ السائِراتُ   لا يَختَصِصنَ مِنَ الأَرضِ دارا
قَوافٍ إِذا سِرنَ عَن مِقوَلي   وَثَبنَ الجِبالَ، وَخُضنَ البِحــارا
وَلي فيكَ ما لَم يـــَقُل قائِلٌ   وَمـــا لَم يَسِر قَمَرٌ حَيثُ سارا(٣)

---

(١)المصدر نفسه، ص٩٣٧.
(٢)الديوان، ص٩٣٧.
(٣)المصدر نفسه، ص٧٣٥.

وقد ذهبت إلى أن المتنبي لم يصدر عن سيف الدولة مغاضباً أو مجروحاً، وإنما صدر عنه لأن أمراً معقوداً بين الشخصين قد عزما على تنفيذه، فهو يقول في سيف الدولة :

وَما قَبلَ سَيفِ الدَولَةِ اثّارَ عاشِقٌ   وَلا طُلِبَت عِندَ الظَلامِ ذُحــولُ

ولَكِنَّهُ يَأتي بِـكُـلِّ غـَرِيـبَةٍ   تَروقُ عَلى اِستِغرابِها وتَهولُ[١]

وهــذا الأمر قد يكلف المتنبي حياته بما فيه من هول، ولكنه سهل في جانب هذا الأمر الذي كُلِّف به:

وَإِنّا لَنَلقى الحادِثــاتِ بِأَنفُسٍ   كَـثيرُ الرَزايا عِندَهُنَّ قَليلُ

يَهونُ عَلَينا أَن تُصابَ جُسومُنا   وَتَسلَمَ أَعــراضٌ لَنا وَعُقولُ

ثم قارن بين هذا الكلام وبين كلامه عند كافور، وإلى من يتوجه في هذا الخطاب:

وَأَبلَجَ يَعصي بِاِختِصاصي مُشيرَهُ   عَصَـيتُ بِقَصديهِ مُشيري وَلَوَّمي

فَساقَ إِلَيَّ العُرفَ غَـيرَ مُـكَدَّرٍ   وَسُقـتُ إِلَيهِ الشُكرَ غَيرَ مُجَمجَمِ

قَدِ اِختَرتُكَ الأَملاكَ فَاِختَر لَهُم بِنا   حَديثاً، وَقَد حَكَّمتُ رَأيَكَ فَاِحكُمِ[٢]

ولو أردت تتبع دلالات المتنبي، لوجدت أنه كان منتمياً في جميع شعره الذي قاله بعد أن انقطــع إلى سيف الدولة إلى يوم مقتله لضاق بك المقام، وما كانت غربته بعد أن صدر عنه إلا غــربة البعد عنه، والشوق إليه لتحقيق أمر ما، وليست غربة الباحث عن بديل، فهو وإن ابتعد عن المكان الذي يضم مثاله بما يمثله من فروسية، وسداد رأي، إلا أنه يظلُّ مشدوداً إليه:

وَما لاقَــني بَـلَدٌ بَعـدَكُم   وَلا اِعتَضتُ مِن رَبِّ نُعمايَ رَبْ

وَمَن ركِبَ الثَورَ بَعدَ الجَوادِ   أَنــكَـرَ أَظـلافَـهُ وَالغَـبَبْ

---

(١)الديوان، ص٧٤٠.

(٢)المصدر نفسه، ص٩٢٠.

وَما قِستُ كُلَّ مُلوكِ البِـــلادِ فَـدَع ذِكـرَ بَعضٍ بِمَن في حَلَب

ولَـو كُنتُ سَمَّيتُهُم بِاسـمِهِ لَكـانَ الحَديدَ وَكانـوا الخَشَب

أَفي الرَأيِ يُشبَهُ أَم في السَخا ءِ أَم في الـشَجاعَةِ أَم في الأَدَب

وَإِنـّي لأُتـبِعُ تَـذكـارَهُ صَلاةَ الإِلَهِ وَسَـقيَ السُحُـب

وَإِن فـارَقَـتَنِيَ أَمطارُهُ فَأَكثَرُ غُـدرانـِها ما نَضَب[1]

ومثل هذا الانتماء يؤكده في رثاء أخت سيف الدولة :

حَلَلتُمُ مِن مُلوكِ الناسِ كُلِّهِمِ مَحَلَّ سُمرِ القَنا مِن سائِرِ القَصَبِ

فَلا تَنَلكَ اللَيالي إِنَّ أَيـدِيَها إِذا ضَـرَبنَ كَسَرنَ النَبعَ بِالغَرَبِ[2]

وقوله مشتاقاً إلى لقاء فارسه الذي انتمى إليه :

نَحنُ أَدرى و قَد سَأَلنا بِنَجدٍ أَقَصيرٌ طَريقُـنا أَم يَطـولُ

وَكَثيرٌ مِنَ السُؤالِ اِشتِـياقٌ وَكَثـيرٌ مِن رَدِّهِ تَعليـلُ

لا أَقَمنا عَلى مَكانٍ وَإِن طا بَ وَلا يُمكِنُ المَكانَ الرَحيلُ

كُلَّما رَحَّبَت بِنا الرَوضُ قُلنا حَلَبٌ قَصدُنـا وَأَنتِ السَبـيلُ

فيكِ مَرعى جِيادِنا وَالمَطايا وَإِلَيها وَجيفُـنا وَ الذَميـلُ

وَالمُسَمَّونَ بِالأَميرِ كَـثيرٌ وَالأَميرُ الَّذي بِها الـمَأمولُ

الَّذي زِلتَ عَنهُ شَرقاً وَغَرباً وَنَداهُ مُقابِلـي مـا يَزولُ

وَمَعي أَينَما سَلَكتُ كَأَنّي كُلُّ وَجهٍ لَهُ بِوَجهي كَفيـلُ [3]

---

(١)الديوان، ص ٨٧٨.

(٢)المصدر نفسه، ص٨٦٤.

(٣) نفسه، ص٨٧١.

وإن غـــاب سيف الدولة عن حِماهُ، فإن هذا المكان يأمن من غزو الأعداء لأنه لا يسمح للروم أن تصل إليه:

وَإذا صَحَّ فَالزَمانُ صَحيـــحٌ وَإذا اِعـــتَلَّ فَالزَمانُ عَليلُ

وَإذا غابَ وَجهُهُ عَن مَكانٍ فـــبِهِ مِن ثَناهُ وَجهٌ جَميلُ

لَيسَ إلاّكَ يا عَلِيُّ هـــُمـــامٌ سَيفُهُ دونَ عِرضِهِ مَسلولُ

كَيفَ لا يَأمَنُ العِراقُ وَمِصرٌ وَسَراياكَ دونَها وَالخُيولُ[١]

وسيف الدولة إن كان قد رد غائلة الأعداء عن هذه الأماكن، وحماها منهم، إلا أن حكام هـــذه الـــبلاد يـــنكرون مثل هذا الجميل، وبدل أن يكونوا عوناً له، إذ بهم يطعنونه من الخلف، والمتنبي يحذره من هذا الغدر:

وَسِوى الرومِ خَلفَ ظَهرِكَ رومٌ فَعَلى أيِّ جانِبَيكَ تَميلُ

وســـيف الدولـــة على أتم العلم بما كان يحدث في الداخل، ولكنه كان من الحكمة بمكان بحيـــث لا يفتح أكثر من جبهة للقتال، إلا إذا اضطر إليه، وعندما كان ينتصر على القبائل التي تحاول أن تخرج عليه كان كثيراً ما يعفو عنهم، وقد كانت الحرب سجالاً بينه، وبين الإخشيديين، إذ انتزع منهم حلب، وأقام ملكه فيها، وقد كان متسامحاً في حربه ضد الإخشيديين فحين انتصر عليهم في موقعة الرستن رفع سيف الدولة السيف وأعلن " أن الدم له والمال لجنده "، وأسر نحو أربعة آلاف من الأمراء وغيرهم، وأطلق سراحهم طائعاً مختاراً فمضوا شاكرين له صنيعه[٢].

---

(١)الديوان، ص٨٧١.

(٢)مصطفى الشكعة – سيف الدولة الحمداني مملكة السيف ودولة الأقلام ، ص١٦٢ نقلاً عن زبدة الحلب: ج١، ص١١٣.

ولعـــل سيف الدولة كان يؤمل من صنيعه هذا أن يكسب قاعدة له في دولة الإخشيديين ليصل إلى مبتغاه فيما بعد، ولهذا السبب أورد المتنبي هناك ليستطلع له الأمر في مصر، فيما لو أراد أن يوسع نفوذه في بلاد الشام، وقد كان أمام سيف الدولة وقعات مع البويهيين الذين انطلقوا مـــن فارس، وأسقطوا بغداد سنة ٣٣٤ هـــ ،وزادت أطماعهم محاولين إسقاط الموصل عاصمة ناصر الدولة غير مرة، وما ثناهم عن ذلك إلا رهبة سيف الدولة[١].

وإن كان المتنبي يتمنى أن يضم سيف الدولة هذه البلاد تحت راية حكمه، فهو يدعوه إلى التسامح مع الخارجين عليه من العرب لأنهم معدنه، ومصابهم يؤذيه:

وكَيفَ يَتِمُّ بَأسُكَ في أُناسٍ تُصيبُهُمُ فَيُؤلِمُـــكَ المُصابُ [٢]

فسيوف سيف الدولة رحيمة إذا ما فتكت بقومه، فهي تبكي دماً، وترحم هذه الدماء التي سالت:

وَيُرجِعُها حُمراً كَأَنَّ صَحيحَها يُبَكّي دَماً مِن رَحمَةِ المُتَدَفِّقِ [٣]

يُغيرُ بِها بَينَ اللُقانِ وَواســطٍ وَيُركِزُها بَينَ الفُراتِ وَجِلَّقِ[٤]

فالمتنبـــي يعلـــم مـــن أمر سيف الدولة، وما هو عليه، لذلك طلب منه العفو عن العرب وسيف الدولة كان يختبر رجاله ليعلم أي الرجال هم، لذلك قال فيه المتنبي :

وَيَمتَحِنُ الـــــناسَ الأَميرُ بِرَأيِهِ وَيُغضي عَلى عِلمٍ بِكُلِّ مُمَخرِقِ

لذلك فهو يُذَكِّر سيف الدولة وهو عند كافور بأنه أهل لمثل هذا الاختبار فيقول :

رَضيتُ بِما تَرضى بِهِ لي مَحَبَّةً وَقُدتُ إِلَيكَ النَفسَ قَودَ المُسَلِّمِ [٥]

---

(١)مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١٦١.

(٢)الديوان، ص٧٧٨.

(٣)المصدر نفسه، ص٧١٦.

(٤) نفسه، ص٧١٦.

(٥) نفسه، ص٧١٦.

ويقول أيضاً في ديار كافور والخطاب موجه إلى سيف الدولة:

إذا كُنتَ في شَكٍّ مِنَ السَيفِ فَابِلُهُ فَإِمّا تُنَفِّيهِ وَإِمّا تُعِدُّهُ

فَكُن في اِصطِناعي مُحسِناً كَمُجَرِّبٍ يَبِن لَكَ تَقريبُ الجَوادِ وَشَدُّهُ

وَما رَغبَتي في عَسجَدٍ أَستَفيدُهُ وَلَكِنَّها في مَفخَرٍ أَستَجِدُّهُ(١)

٢.المتنبي وتحول المثال

وربما أوافق صالح الزامل في دراسته:" تحول المثال دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي" في أن المتنبي كان يبحث عن المثال في بواكير نتاجه الشعري في العراقيات، فالشاميات، ويصفها بأنها مرحلة كثيرة الحركة لم يقف فيها عند ممدوح مدة طويلة، فهو موزع بين المتنبي الشاعر _ وهو الأكثر التصاقاً به _ وبين الممدوح الذي كان هامشياً، وبين أمله المعلق في أن يجد في أحد ممدوحيه، وما يبحث عنه من تفرد ومثال(٢).

ولأن المتنبي لم يجد فيهم بغيته؛ فإنه كثيراً ما كان يعطي لذاته مساحة واسعة من حيز القصيدة مخلفاً وراءه الممدوح لأنه لم يكن بحجم آماله.

وقد أوافقه أن لقاءه بدراً كان بمثابة الحلم، أو إرهاص المثال كما سماه، رغم أن الرجل مغمور كما سائر الرجال الذين مدحهم من قبل، ولولا مدائح المتنبي فيهم لما سمعنا بهم، ويرد طه حسين سر اهتمام المتنبي إلى أنه يريد أن يستميله إلى مذهبه القرمطي، بينما يرى محمود شاكر أن سر اهتمام المتنبي به يعود إلى كونه عربياً ماضياً كالسيف، حلو الشمائل، سمحاً قريب المذهب من أبي الطيب في بغضاء العجم، وكان يلي طبرية من قبل محمد بن رائق، وكأنه وجد

---

(١)الديوان، ص٩١٠.

(٢)صالح الزامل- تحول المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ص٣١.

فـيه ما أراد من الفكرة، والسطوة، والسلطان، والقوة، والرجولة الفذة، التي أبدع أبو الطيب في صفتها[١].

فقال قصيدته في استهلال أشبه بمطلع أسطوري:

أَحُلماً نَرى أَم زَماناً جَديداً أَمِ الخَلقُ في شَخصِ حَيٍّ أُعيدا

وظنـي أن المتنبي كان يحاول أن يبث في هذا القائد فكراً معيناً، ويريده أن يتحرك من خلاله، فراح يعطيه شعراً يشد العزائم لخوض أمر ما كان يسعى المتنبي إلى تحقيقه:

مِثْلُكَ يا بَدرُ لا يكونُ وَلا تَصلُحُ إِلا لِمِثْلِكَ الدُوَلُ[٢]

فيرسم للممدوح صورة إعجازية [٣]، تكاد تصل إلى أسطرة هذا الممدوح:

فـأَنتَ وَحيـدُ بـَني آدَمٍ ولَسـتَ لِفَقدِ نَظيرٍ وَحيدا[٤]

وَأَعجَبُ مِنكَ كَيفَ قَدَرتَ تَنشا وَقَد أُعطيتَ في المَهدِ الكَمالا[٥]

وهو يرى أن مثل هذه الظاهرة تكون ملازمة لطبيعة العمل الفني، الذي يرغب التطابق مـع الواقع كما هو، فهي مدفوعة بالمبدع الذي يضيق بأسر الزمان، والمكان، محاولاً أن يؤكد ذاته بوصفها مستقلة عن الصيرورة، فيحاول تشكيل الواقع كما يرى هو لا كما هو كائن[٦].

وبمـا أن بدراً لم يحقق له ما أراد، بل وأراد أن يمتهن شاعريته " فتوج هذه الحقبة بالهرب، ثم بهجوم شرس بشكل غير مباشر، طال فيه الملوك والأمراء والمكان (طبرية)"[٧].

---

(١)صالح الزامل، مرجع سابق، ص١٠١.

(٢)الديوان، ص٣١٦.

(٣)صالح الزامل، مرجع سابق، ص١٠٦.

(٤)الديوان، ص٣١١.

(٥)المصدر نفسه، ص٣٢٥.

(٦)صالح الزامل، مرجع سابق، ص١٠٨.

(٧)نفسه، ص١١٣.

فـــإذا أصـــبح المتنبي طريداً بعد أن خرج من لدن بدر بن عمار، ولم يستطع أن يحقق المثال في ممدوحه، أو يقنعه بأن يكونه بما أسبغ عليه من خلال قيم الجمال من الخير، والعدالة، والحق، والفضيلة، والقوة غير الطاغية، إلا أن بدراً السكّير قد حاول أن يشوه المتنبي من خلال امتهانه، كما شوه صورة المثال الذي كان يسعى المتنبي إلى تحقيقه[١].

ويرى أن المتنبي قد وجد مثاله في سيف الدولة الحمداني فيقول: لقد كان المتنبي صادقاً إلى حد ما عندما خاطب سيف الدولة [٢]:

أَنتَ الغَريبَةُ في زَمانٍ أَهلُهُ وُلِدَت مَكارِمُهُم لِغَيرِ تَمامِ[٣]

ثم يصف لنا شخصية سيف الدولة بأنها قلقة لم ينج المتنبي من قاعدتها المشتركة مع ما كان بينهما من الصداقة الحميمة، فقد كابد ككل الناس في حلب نفوذ حاميه، بل اضطر إلى كبح جمـــاح شخصـــيته مخـــتاراً أول مرة ليقينه بتحول المثال، ثم مضطراً في مرحلة تالية بقوة لا يستطيع دفعها[٤].

والمتنبي عند سيف الدولة يميل إلى الصفات المشدودة للواقع أكثر من ميله السابق الذي يحاول أن يرسم الممدوح في صورة إعجازية في محاولة لخلق التفرد، لأن هؤلاء لا يمتلكون إلا بعـــض القيم الاجتماعية يمتدحهم بها، فيغترب بهم في صورة منقطعة عن الواقع، أما عند سيف الدولة فهناك اقتران بين الواقع والمثال بالقيمة الاجتماعية والسياسية[٥].

---

(١)صالح الزامل، مرجع سابق، ص١١٥.

(٢)المرجع نفسه، ص١٢١.

(٣)الديوان، ص٨٣٩.

(٤)صالح الزامل، ص١٢٢.

(٥)المصدر نفسه، ص١٢٨.

ويرى أن سبب اعتداد المتنبي بشاعريته كأنه تعويض عن (أناه) التي كادت تختفي فجأة من بواكير السيفيات، وإذا كان خطاب الهجاء يطال الناس جميعاً فإنه اليوم خصيص بالآخر الشويعر[١].

ثم هو يقول إن أهم ما يميز هذا الشعر، والاعتداد به ؛أنه يقوم معادلاً لمجد سيف الدولة[٢]:

نادَيتُ مَجدَكَ في شِعري وَقَد صَدَرا يـــا غَيرَ مُنتَحِلٍ في غَيرِ مُنتَحِلِ

بِالشَرقِ وَالغَـــربِ أَقوامٌ نُحِبُّهُمُ فَطالِعـــاهُم وكونا أَبلَغَ الرُسُلِ[٣]

ولكن خلافي مع صاحب هذه الدراسة في أن المتنبي قد انكفأ عن مثاله، وأنه قد أخفق إخفاقاً ذريعاً في محاولاته تجسيد المثال في الآخر عبر رحلة بحثه عن المثال[٤].

ثم يطرح تساؤلات حول ديمومة هذا التعلق من قبل المتنبي بسيف الدولة قائلاً: فما سر هذا التعلق بالأخير؟ هل هو عظم الخسارة التي لا يسلم بها المتنبي ؟ لقد حافظ المتنبي بروح بدوية على علاقته بسيف الدولة، رغم كل ما كان من سيف الدولة وحاشيته، فلماذا هذا التمسك بتلك الحقبة ؟.

والجواب: لقد جعل المتنبي من سيف الدولة كما جاء سابقاً مثالاً لكل ما يفترض وجوده في شخصية الحاكم.

لقد وجد بينهما الطموح _ من جانب المتنبي على الأقل _ لكن ليس بنسبة ملغاة من قبل سيف الدولة، بدليل محاولاته العديدة لاسترضاء المتنبي بعد مغادرته مغضباً[٥].

---

(١)صالح الزامل، مرجع سابق، ص١٥٥.

(٢)نفسه، ص١٥٥.

(٣)الديوان ، ص٧٠٣.

(٤)صالح الزامل، مرجع سابق، ص١٨١.

(٥)المرجع نفسه، ص١٨٢.

علماً بأن المتنبي لم يغادر مثاله لحظة واحدة، وبقي صادق الانتماء إليه حتى آخر لحظة في حياته، وما صدر عنه إلا من أجل تحقيق أمر كان معقوداً بينهما، وأن الخلاف الذي حدث مفتعل، وقد بينت ذلك آنفاً .

والمتنبي لم يكن يسعى إلى تحقيق مدينة فاضلة[١]، وإنما هو منتم إلى واقع مرير يسعى إلى تغييره ورفضه، فيحاول أن يغترب عنه، وأن ينتمي إلى مثاله سيف الدولة الذي يرى فيه القوة المتجسدة بالواقع الحربي، إضافة إلى الإيمان الفكري في السعي إلى تحقيق مجد الدولة العربية، فكان رسولاً له مغترباً بجسده عنه إلى أرض مصر، وبلاد فارس، ومنتم إليه بتحقيق الفكرة التي آمنا بها، ومغترباً عن هؤلاء بفكره الذي يخالف فكرهم، وإن كان الجسد رهيناً في بلادهم، لذلك نجده يميل إلى التعمية والإلغاز، في استخدام الضمير، وأصبح معنياً بالمكان متشوقاً إليه كعلامة على اغترابه عنه.

٣.الأنا في شعر المتنبي

إن شعور المرء بذاته كياناً متفرداً رغم كل الظروف المحيطة به، وأن هذه الدنيا لم تعطه حقه في الوصول إلى مبتغاه، أو إلى ما يسعى إليه يجعله يتغنى بذاتهِ إما منكفئاً حزيناً يلعن الزمن، خالياً من كل همة وعزيمة، وإما أن يتغنى بذاته معلياً شأنها، ساعياً إلى تحقيق مجدها، بما تيسر له من أدوات مهما كانت بسيطة، لأنه يعتمد قبل كل شيء على إرادته الصلبة؛ لتحقيق هذه الذات معلناً اغترابه عن واقعه، ورافضاً أن يكون رقما معدوداً في صفحة الزمن، بل يجب أن يكون رقماً صعباً يشار إليه بالأكف، ومهما حالت الظروف بينه وبين تحقيق ذاته فعليه أن يطوعها، ويركب المركب الصعب من أجل الوصول إلى مبتغاه.

---

(١)الزامل– مرجع سابق، ص١٩٢.

وربمـــا كان المتنبي من الصنف الآخر الذي لا تهتز عزيمته، وإنما يسعى لتحقيق مجده متغنياً بذاته.

وفـــي دراســـة إحصائية أجريتها على ديوان المتنبي وجدت أن ضمير" الأنا" قد تكرر (٣٢٠٠)مـــرة، علمـــاً بـــأن ديوانه يضم(٥٣٥٧) بيتاً، وبذلك تكون نسبة تردد هذا الضمير- متصلاً ومنفصلاً - (٦٠%) وعندما قمت بتوزيع هذه النسبة على مراحل محطات حياته وجدت أنها كانت كما يلي :

المرحلـــــــــة	عدد الأبيات	ضمير الأنا وضمير الجمع نحن	ضمير الجمع نحن	النسبة المئوية
قبل بدر بن عمار	١٢١١	٧٩٩	(٧٤)	% ٦٥،٩٧
بدر بن عمار	٢٨٠	١٥٧	(٣٢)	% ٦٥
بعد بدر بن عمار	٨٨٠	٦٥١	(٧٦)	% ٧٣،٩٧
مجموع هذه المرحلة(ما قبل سيف الدولة)	٢٣٧١	١٦٠٧	(١٨٢)	% ٦٧،٧٧
مرحلة سيف الدولة	١٧١٩	٦٨٩	(١٧٣)	% ٤٠
الكافوريات	٧٢٠	٦١٥	(٦١)	% ٨٥،٤
الفارسيات	٥٥٥	٢٨٩	(٦٥)	% ٥٢
مجموع المرحلتين	١٢٧٥	٩٠٤	(١٢٦)	% ٧٠،٩

ووجدت ان أعلى نسبة للشعور بالذات هي في مرحلة الانكسار إذ بلغت بعد خروجه من لـــدن بدر ٧٤% ، وبعد خروجه من لدن سيف الدولة ٨٥ % وفي هاتين المرحلتين كان يتغنى بذات مجروحة .

وأمـــا أقـــل نسبتين فهما في مرحلة سيف الدولة، وبلغت ٤٠%، والفارسيات ٥٢% مع فـــارق فـــي تفسيرهما، فقد كان في مرحلة سيف الدولة متوافقاً مع ذاته، ويرى في مجد سيف الدولـــة مجداً له، وتكاد تخلو كثير من قصائده في سيف الدولة من ذكر ضمير الأنا، مهما كان عـــائد هـــذا الضمير، أما في القصائد التي يذكر فيها مثل هذا الضمير فمن باب التمجيد لسيف الدولـــة، أو من باب الموافقة والاتفاق معه، على أنه لم يكن ينسى فضله وفضل شعره في وقع ذكـــر ســـيف الدولـــة، ولا نكاد نلاحظ اختلاف هذه الذات مع سيف الدولة إلا من باب العتاب وإظهار الدالة عليه، وحتى عندما اختلف معه وغادره فقد بقي وفياً له يذكره بالحب، بينما نلاحظ أن هـــذه الذات قد مالت إلى الاستكانة والرضا بالأمر الواقع، بعد أن كانت ثائرة عليه، عنـــدما ذهب إلى بلاد فارس :

وَأَنَّى شِئتِ يا طُرُقي فَكوني أداة أَو نَجاةً أَو هَلاكا[١]

أ. تواضع الحياة وعظمة الذات:

يمـــتد المتنبي عبر ذاته فيعلي من شأنها فما يراه غيره منقصة بحق ذاته يراه هو مجالاً للفخـــر والاعتداد بالذات، ليحافظ عليها متماسكة ويواجه بها عالمه الخارجي ليكون فيه شيئاً أو ليدفع عنه ظلماً.

يرسم عالمه بفقره فإذا به يملك أجود الرواحل ، التي يكاد يملكها أمير :

لا ناقَتي تَقبَلُ الرَديفَ وَلا بِالسَوطِ يَومَ الرِهانِ أُجهِدُها[٢]

وأي قـــدرة علـــى التماسك التي تجعل من الحذاء ناقة من أجود النوق، إنها طوع أمره وتسابق الريح، فهمة المتنبي تحرك الساكن، وتجعله حياً.

---

(١)الديوان، ص١١٢١.

(٢)المصدر نفسه، ص٥٥.

وممـــا يروى عنه أنه كان له قدرة على تجشم الأسفار، وكأنه أحد الصعاليك في البادية "وكان كثيراً ما يتجشم أسفاراً بعيدة أبعد من آماله، ويمشي في مناكب الأرض، ويطوي المناهل والمراحل، و لا زاد إلا من ضرب الحراب على صفحة المحراب، ولا مطية إلا الخف أو النعل كما قال من المنسرح:

لا ناقَتي تَقبَلُ الرَديـــفَ وَلا بِالسَوطِ يَومَ الرِهانِ أُجهِدُها

شِراكُها كورُها وَمِشفَرُها زِمامُها وَالشُسوعُ مِقوَدُهـــا "[١]

ويقـــال عنه إنه كان يقطع الفلوات ويأتي إلى الماء، فيغتسل ثم يدخل القرية، ويخبرهم عما حدث في قرية ما، يحتاج المسير إليها أياماً فيردهم الخبر كما أورده لهم المتنبي[٢].

ومن كان يمتلك مثل هذه القدرات فلا شك أنه سيفاخر بها ويعتد بنفسه :

وَكَم مِن جِبالٍ جُبتُ تَشهَدُ أَنَّني الـــ جِبالُ وَبَحرٍ شاهِدٍ أَنَّني البَحرُ[٣]

وهي تتكرر عنده دلالة على تفرده لامتلاك مثل هذه القوة الشنفرية :

وَمَهمَهٍ جُبتُهُ عَلى قـــدَمي تَعجِزُ عَنهُ العَرامِسُ الذُلُلُ

بِصارِمي مُرتَدٍ بِـــمَخبُرَتي مُجتَزِئٌ بِالظَلامِ مُشتَمِلُ

إِذا صَديقٌ نَكِـــرتُ جانِبَهُ لَم تُعيِني في فِراقِهِ الحِيَلُ

في سَعَةِ الخافِقَينِ مُضطَرَبٌ وَفي بِلادٍ مِن أُختِها بَدَلُ[٤]

---

(١)الثعالبي- مصدر سابق، ص١٤٤.

(٢)البديعي- مرجع سابق، ص٥٥.

(٣)الديوان، ص٤١٤.

(٤)المصدر نفسه، ص٣١٥.

وإذا كان المتنبي يعمد إلى مثل هذه الأداة في قطع الأسفار فليس يفضلها، ولكنه لا يمتلك سواها ؟ فمن باب التماسك والحفاظ على النفس أعلى من شأنها :

وَحُبِيتُ مِن خوصِ الرِكابِ بِأسوَدٍ مِن دارِشٍ فَغَدَوتُ أَمشي راكِبا[1]

فالمتنبي يطوع الامكانات لصالحه ويعلي من شأنها وكأنها أجود ما يكون، فالحذاء أصبح ناقـــته.إنهـــا فلسفة الرضا إلى حد القناعة، والاستعاضة بالذي أمتلكه بما لا أمتلكه، وكأني بذلك الفيلســـوف الذي بكى؛ لأنه لا يمتلك حذاءً لكنه حمد الله عندما رأى أنه يمتلك رجلين وغيره بلا رجلين.

ولـــك أن تقارن بين حاله عندما كان بلا خيل يركبها أو ناقة، وكيف كان يصف قوته، فهو أقوى من النوق المذللة في قطع المفاوز لأنه صاحب همة عالية قلَّ أن يوجـــد لها نظير، بل إن حذاءه هذا يكاد يكون أسطورياً .

وبيـــن حالـــه إذا امتلك جواداً، هذا الجواد أصبح أنيسه في السفر، وصديقه ا لذي يعتمد علـــيه بعد أن كان يعتمد على سيفه، وخبرته، وجرأته وتخفيه في الليل، فقد أوكل شيئاً من هذه إلى جواده بما يمتلك من إمكانات، ولأنه التمس فيه الصديق الوفي :

وَيَومٍ كَلَيـــــلِ العاشِقينَ كَمَنتُهُ أُراقِـــبُ فيهِ الشَمسَ أَيّـــانَ تَغرُبُ

وَعَينـــي إِلـــى أُذنَي أَغـــرَّ كَأَنَّهُ مِنَ اللَيلِ باقٍ بَينَ عَينَيهِ كَوكَـــبُ

لَهُ فَضلَةٌ عَن جِسمِهِ في إِهـــابِهِ تَجيءُ عَلى صَدرٍ رَحيبٍ وَتَذهَبُ

شَقَقتُ بِهِ الظَلماءَ أُدني عِنانَـــهُ فَيَطـــــغى وَأُرخيهِ مِراراً فَيَلعَبُ

وَأَصرَعُ أَيَّ الوَحشِ قَفَّيتُهُ بِـــهِ وَأَنزِلُ عَنـــهُ مِثلَـــــهُ حينَ أَركَبُ

---

(١)الديوان، ص٢٦٦.

وَما الخَيلُ إلاّ كَالصَديقِ قَليلَـةٌ وَإِن كَثُرَت في عَينِ مَن لا يُجَرِّبُ

إِذا لَم تُشاهِد غَيرَ حُسنِ شِياتِها وَأَعضائِها فَالحُسنُ عَنكَ مُـغَيَّبُ(١)

لقد أصبح عالماً بالخيل بعد أن صادقها وقد كان لا يمتلكها، إنه دائم الإعلان عن تفرده فهو صاحب قدرات جسدية يبرز فضلها إذا اعتمد عليها، وهو فارس شجاع كريم في تعامله مع الخـيل إذا امـتلكها، وكأنـه خَبِرَ نفسية هذا الحيوان، وكرمه بينما غيره لا يرى فيه إلا شكله الخارجـي، فإن كان الناس يرون الظاهر، والعيان فإنه يستبطن الأمور، ويغوص في الأعماق، فما أحد مثله في هذا الكون، لأنه منقطع النظير :

أَمِط عَنكَ تَشبيهي بِما وَكَأَنَّهُ فَما أَحَدٌ فَوقي وَلا أَحَدٌ مِثلي(٢)

إنـه اغـتراب من نوع استعلائي فهو يملك القدرة الجسدية التي تخوله أن يعتمد عليها، وأن يمتد عبرها إلى أي مكان يشاء، والوصول إليه مع علو الهمة، إضافة إلى أنه يمتلك القدرة العقلـية، والقدرة الكلامية، والفصاحة في القول والخطاب، فما عليه إلا أن يغترب، ويبحث عن المجد بأوسع أبوابه، وهو الذي يقول :

وَلَم أَرَ في عُيوبِ الناسِ شَيئاً كَنَقصِ القادِرينَ عَلى التَمامِ(٣)

يسـعى إلى التمام بما يمتلك من مقومات، يفارق الناس ويغترب عنهم إلى من يظن به خيراً .

الناس فقراء ← هو فقير ← هو يمتلك الأدب ← الممدوح يمتلك المال، حدثت القطيعة بيـن المتنبي والناس؛ لأنه يفضلهم بما يمتلك، وإن حمل شيئاً من همهم، وهو الفقر؛ فقد حركه، وأصـبح راحلته، ولكن كان معه راحلة أخرى ظن أنها ستفيده عند ممدوحه، لعلها تغنيه وهي

---

(١)الديوان، ص٩٣٥.

الأدب الذي يتوصل به إلى المال والجاه، فانفصل عن محيطه بهذه الراحلة عله يجد من خلالها ما يعبر به الفقر.

فَسِرتُ نَحوكَ لا أَلوي عَلى أَحَدٍ أَحُثُّ راحِلَتَيَّ الفَقرَ وَالأَدَبا[١]

وربما لا يعوزنا الشاهد في التدليل على أبعاد الفكرة التي تلح على المتنبي، فهو يرفض الفقر ويقاومه:

إِذا لَم تَجِد ما يَبتُرُ الفَقرَ قاعِداً فَقُم وَاطلُبِ الشَيءَ الَّذي يَبتُرُ العُمرا[٢]

فإن رضي الناس بواقع حالهم، واستكانوا له، فإنه لن يرضى بمثل هذه الحال؛ فلا بد من السعي، فقد يتجه إلى ممدوحه كي يعينه، أو إلى سلاحه، وإن قتل دون الذي يؤمله على أن لا يبقى فقيراً معدماً، يقول فورم: " إن الإنسان يسعى لتحطيم نفسه، وتحطيم العالم لأنه لا يحتمل ملل الحياة بلا معنى[٣]"

إنها القدرة على التحريك والريادة، وهذه لا تتأتى إلا لمن يمتلكون صفات خاصة قد تؤدي بهم في بعض الأحيان إلى الانقطاع عن الناس، وتجاوزهم إن لم يتجاوبوا معه، ويرى صالح الزامل أن" الانفصال يكون أكثر عمقاً عندما يتجاوز الآخرين، وهذا يتصل على الأغلب بظروف العصر الذي يشكل غربة الشاعر، فهو مفارق له فيلغي الانقطاع كل تشابه مع الآخر الذي يبقى دونياً في حين يكون الأول فوقيّاً أبداً"[٤] إن تجسيد الصراع عند المتنبي يتم عن طريق الحوارية والرد:

يَقولونَ لي ما أَنتَ في كُلِّ بَلدَةٍ وَما تَبتَغي؟ ما أَبتَغي جَلَّ أَن يُسمى[٥]

---

(١)الديوان، ص٢٤٤.

(٢)المصدر نفسه، ص١٢١.

(٣)سيد علي- نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، ص١٦٤.

(٤)صالح الزامل، مرجع سابق، ص٢٣٥.

(٥)الديوان، ص٣٨٤.

وتفرده لا يتأتى إلا من كونه ضداً؛ صراع بين من يركن إلى الضعة والهوان، وبين من يسعى إلى المجد، وبين العيي الفدم الغبي، وبين فصيح اللسان ذكي القلب:

وَأَرحَمُ أَقواماً مِنَ العِيِّ وَالغَبا وَأَعذِرُ في بُغضي لأَنَّهُمُ ضِدُ[١]

وقــد يعلن سخريته من القدر، وقد تتطور هذه السخرية إلى صراع بينه وبين القدر إذا مالت الكفة على عكس ما يرغب.

ولَو بَرَزَ الزَمانُ إِلَيَّ شَخصاً لَخَضَّبَ شَعرَ مَفرِقِهِ حُسامي[٢]

إن الهــدف الأساسي لأي عمل فني، يكمن في الوصول إلى أكبر قدر ممكن من التناغم بين الإنسان والكون المحيط به، حتى يدرك الإنسان معنى وجوده، ودلالته.[٣]

ولكــن إذا مــا حــدث انقطاع، أو قطيعة في إيجاد مثل هذا التناغم، يشعر الإنسان في اغترابه بينه وبين هذا الكون.

من هنا كانت مأساة الإنسان، وإدراك غربته في هذا الكون، فهو يشعر أن الزمن عنصر غير متعاطف معه على الإطلاق[٤].

إن الإنسان خلق بإرادة صلبة، وفي الوقت نفسه حرم من فرصة تحقيق هذه الإرادة كما يشتهي:

أُريدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ[٥]

---

(١)الديوان، ص٤٣١.

(٢)المصدر نفسه، ص١٥٢.

(٣)نبيل راغب- التفسير العلمي للأدب، ص١١٢.

(٤)المرجع نفسه، ص١١٧.

(٥)الديوان، ص٩٤٤.

إنه موقف التحدي بين الشاعر والزمن، فإذا بذات الشاعر تحاول أن تتحدى، ولكنها ترتد بـــرجع الصدى واليأس من أية محاولة يتحدى فيها الزمن، فتحديه أمر متعب، فهو أقوى من أي تحد، فعلينا ألا نكترث به ما دمنا أحياء لأنه سوف يطوينا يوماً في صفحاته:

لا تَلقَ دَهرَكَ إلاّ غَيرَ مُكتَرِثٍ مادامَ يَصحَبُ فيهِ روحَكَ البَدَنُ

فَما يَدومُ سُرورٌ ما سُرِرتَ بِهِ وَلا يـــرُدُّ عَلَيكَ الفائِتَ الحَزَنُ[١]

إنـــه غنائية حزينة للذات تمتد عبر تجربته مع الزمن، بعد أن كان يتغنى ذاتاً ثائرة في بداية العمر، تعد الرماح، والقسي، والتحدي للناس، والزمن، فقد كان طالب حق:

سَأَطلُبُ حَقّي بِالقَنا وَمَشايِخٍ كَأَنَّهُمُ مِن طولِ ما التَثَموا مُردُ[٢]

ومنطقه في طلب الحق من هذه الدنيا منطق القوة، والانتماء إليها:

وَإِن عَمَرتُ جَعَلتُ الحَربَ والِدَةً وَالسَمهَرِيَّ أَخاً وَالمَشرَفِيَّ أَبا[٣]

والمتنبـــي شـــاعر ذاتي النزعة لا يصدر إلا عن ذاته ففي كل مرحلة من مراحل حياته يتغنى هذه الذات، إما قوة، أو توافقاً، أو انكساراً، وثورة شخص جرحت كرامته.

ب.نفسية الشاعر وانعكاسها على الضمير:

وقـــد تمـــتد سلطة الأنا في شعره بحيث ينتزع من الآخر صفات يرى أنه أحق بها منه فيـــنكرها عليه، ويرتضيها لذاته، فبدل أن يتوجه بالضمير إلى المخاطب" أنت " عندما طلب منه تنوخيٌ أن يقول فيه شعراً يمتدحه، امتد إلى ضمير المتكلم" أنا "مستشعراً أنه أحق بهذه الصفات:

أَنا ابنُ اللقاءِ، أَنا ابنُ السَخـــاءِ أَنا ابنُ الضِرابِ، أَنا ابنُ الطِعانِ

---

(١)الديوان، ص٩٤٤.

(٢)المصدر نفسه، ص٤٣٠.

(٣) نفسه، ص٢٤٤.

أنا ابنُ الفَيافي، أنا ابنُ القَوافي   أنا ابنُ السُروجِ، أنا ابنُ الرِعانِ(١)

ولكنـــنا نلاحـــظ أن ســـلطة هذه " الأنا" قد ترتد متقنعة خلف ضمير الغائب، أو ضمير المخاطب عندما تنكر على ذاتها أن تكون في موقف لا يرضاه.

وهذا ما حدث في قصائده التي قالها عندما كان في ديار كافور الإخشيدي، فقد أنكر على نفســه أن أصبح في مثل هذه الحال، فراوح بين استخدام ضمير الغائب والمخاطب، وهو يقصد بهـــذا الضـــمير نفسه، وهذا لون من العصيان، والتمرد على الذات التي كان يستشعرها دائماً، ويـــتوجه بالخطـــاب مـــنها وإليها، ويعلي من شأنها، فبعد أن كان خطابه ممتلئاً بضمير المتكلم المعلن "أنا " أو ضمير التعظيم " نحن " انكفأ إلى ضمير الغائب أو المخاطب:

كَفى بِكَ داءً أَن تَرى المَوتَ شافِيا   وَحَـسبُ المَنايا أَن يَكُنَّ أَمانِيا

تَمَنَّيتَها لَمّا تَمَنَّيـتَ أَن تَــرَى   صَديقــاً فَأَعيا، أَو عَدُوّاً مُداجِيا

إِذا كُنتَ تَرضى أَن تَعـيشَ بِذِلَّةٍ   فَلا تَستَعِــدَّنَّ الحُسامَ اليَمانِيا

وَلا تَستَطيلَنَّ الرِماحَ لِـغـــارَةٍ   وَلا تَستَجيـدَنَّ العِتاقَ المَذاكِيا(٢)

وهو يراوح بين ضمير المتكلم والمخاطب في قصيدته " بم التعلل " ويقصد بالضميرين ذاته؛ لأنه يعيش في هذه القصيدة حالتي الرجاء واليأس :

أُريـــدُ مِن زَمَني ذا أَن يُبَلِّغَني   ما لَيسَ يَبلُغُهُ مِن نَفسِهِ الزَمَنُ

لا تَلقَ دَهرَكَ إِلاّ غَيرَ مُكتَرِثٍ   مادامَ يَصحَبُ فيهِ روحَكَ البَدَنُ

فَما يَدومُ سُرورٌ ما سُرِرتَ بِهِ   وَلا يَــرُدُّ عَلَيكَ الفائِتَ الحَزَنُ(٣)

---

(١)الديوان، ص١٠٦.

(٢)المصدر نفسه، ص٨٨٥.

(٣) نفسه، ص٩٤٤.

وقــد يصـــل به الأمر إلى أن ينتقل بالضمير إلى الغائب المستتر، وهو بعمله هذا يعلن رفض الحالة التي هو فيها رفضاً تاماً، أدى به إلى استخدام ضميري الغائب والمخاطب:

أنوكُ مِن عَبدٍ وَمِن عِرسِــهِ   مــَن حَكَّمَ العَبدَ عَلى نَفسِهِ

ما مَن يَرى أَنَّكَ في وَعــدِهِ   كَمَن يَرى أَنَّكَ في حَبسِهِ

وَإِنَّما تَحتـــالُ في جَذبِهِ   كَأَنَّكَ الـــمَلّاحُ في قَلسِهِ

فَلا تُرَجِّ الخَــيرَ عِندَ اِمرِئٍ   مَرَّت يَدُ النَخّاسِ في رَأسِهِ

وَإِن عَراكَ الشَكُّ في نَفسِهِ   بِحالِهِ فَانظُر إِلى جِـنسِهِ

مَن وَجَدَ المَذهَبَ عَن قَدرِهِ   لَم يَجِدِ المَذهَبَ عَن قَنسِهِ[١]

وبعد أن يشرح الواحدي البيت الأول يقول: وهذا عتاب يعاتب به نفسه حين أتى الأسود فاحتاج إلى أن يطيعه[٢].

ج.ضمير الأنا في السيفيات:

بينما يغيب ضمير الذات "الأنا " في غير سيفية من سيفياته لا لأنه منكر لذاته، لكن لأنه وجــد ذاته في هذا المجموع، أو المثال الذي انتمى إليه فأصبح يرى نفسه عنصراً منتمياً تبهره البطولة، فينسى ذاته في خضمها بل وحتى لا يلتفت إليها مجرد التفات بسيط، فقصائده التالية:

١- بِغَيرِكَ راعِياً عَبَـــثَ الذِئابُ   وَغَيرَكَ صارِماً ثَلَمَ الضِرابُ[٣] وعدد أبياتها (٤٢) بيتاً.

٢- أَراعَ كَذا كُلَّ الأَنـــامِ هُمامُ   وَسَحَّ لَهُ رُسلَ المُلوكِ غَمامُ[٤] وعدد أبياتها (٣١) بيتاً.

٣ - طِوالُ قَناً تُطاعِنُها قِصارُ   وَقَطرُكَ في نَدىً وَوَغىً بِحارُ[٥] وعدد أبياتها (٦٦) بيتاً.

---

(١)الديوان، ص٩٢٧.

(٢)شرحه على الديوان، ص٩٢٧.

(٣)الديوان، ص٧٧٧.

(٤)المصدر نفسه، ص٧٩٤.

(٥) نفسه، ص٨٠٩.

٤ – ذي المَعالي فَليَعلوَن مَن تَعالى   هــــكَذا هَكَذا وَإلا فَلالا[١] وعدد أبياتها (٤٥) بيتاً.

وفيها ضمير واحد يعود على المجموع "أعدائنا" .

٥- أينفعُ في الـــــــخَيمَةِ العُذَّلُ   وَتَشمَلُ مَن دَهرَها يَشمَلُ[٢] وعدد أبياتها (٣٠) بيتاً.

٦- عُقــبى اليَميــنِ عَلى عُقبى الوَغىٰ   نَدَمُ ماذا يَزيدُكَ في إِقدامِكَ النَدم[٣] وعدد أبياتها (٥٥) بيتاً.

وفـــي بعـــض القصائد ربما لا يذكر فيها ضميراً عائداً عليه إلا من قبل أنه يمدح سيف الدولة وهذا نجده في القصائد التالية:

ففي قصيدته :

أَعلى المَمالِكِ ما يُبنى عَلى الأَسَلِ   وَالطَعنُ عِندَ مُحِبّيهِنَّ كَالقُبَلِ[٤] وعدد أبياتها (٢٨) بيتاً

يذكر فيها الضمير العائد على ذاته من باب أنه يمدحه فيقول :

إِذا خَلَعتُ عَلى أَرضٍ لَهُ حُلَلاً   وَجَدتُها مِنهُ في أَبهى مِنَ الحُلَلِ

والقصيدة التي مطلعها :

غَيري بِأَكثَرِ هَذا الناسِ يَنخَدِعُ   إِن قاتَلوا جَبُنوا أَو حَدَّثوا شَجُعوا[٥]

وعـــدد أبـــياتها(٤٩) بيتاً نجد أن الضمير العائد على المتنبي تكرر(٩) مرات، وهو من باب الثناء على سيف الدولة لا من باب تمجيد الذات نحو: "غيري / نفسي/ حمدتك/ بلوتك/ ..."

وقصيدته : الرَأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُجعانِ   هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثاني[٦] وأبياتها (٤٩) بيتاً

---

(١)الديوان، ص٨٢٩.

(٢)المصدر نفسه، ص٦٤٦.

(٣) نفسه، ص٨٥٣.

(٤)نفسه، ص٥٨٩.

(٥) نفسه، ص٥٤٠.

(٦) نفسه، ص٨٤٤.

يؤكد في البيتين الأخيرين الضمير العائد على نفسه من باب الانتماء لسيف الدولة ومدحه:

يا مَـــن يُقَتِّلُ مَن أرادَ بِسَيفِهِ أَصبَحتُ مِن قَتلاكَ بِالإحسانِ

فَإِذا رَأَيتُكَ حارَ دونَكَ ناظِري وَإِذا مَدَحتُكَ حارَ فيكَ لِساني[١]

وقصـــيدته "على قدر أهل العزم" و أبياتها ستة و أربعون بيتاً لا نجد عائد الضمير عليه إلا ست مرات ممجداً سيف الدولة ومذكِّراً إياه بأنه شاعره الذي يمدحه فيقول :

لَكَ الحَمدُ في الدُرِّ الَّذي لِيَ لَفظُهُ فَإِنـــكَ مُعطيهِ وَإِنِّيَ ناظِمُ

وَإِنّي لَتَعدو بي عَطاياكَ في الوَغى فَلا أَنا مَذمومٌ وَلا أَنتَ نادِمُ[٢]

و في القصيدة التي مطلعها :

تَذَكَّرتُ ما بَينَ العُذَيبِ وَبارِقِ مَجَرَّ عَوالينا وَمَجرى السَوابِقِ[٣]

نجـد أن الضـمير الجمعي جاء في مقدمة القصيدة فقط، ولم يتكرر سوى أربع مرات، مرتيـن بصيغة المفرد، ومرتين بصيغة الجمع، ثم بعد ذلك يعرّض بأعداء سيف الدولة، وكيف أوقع بهم .

والأمر ليس كله هكذا في السيفيات وإنما نجد قصيدتين عتابيتين أولاهما:

واحَرَّ قَلباهُ مِمَّن قَلبُهُ شَبِمُ وَمَن بِجِسمي وَحالي عِندَهُ سَقَمُ[٤]

وعدد أبياتها ثمانية وثلاثون بيتاً، ذكر فيها الضمير العائد على الذات ثلاثاً وأربعين مرة يمتدُّ هذا الضمير فيها بين كونه ممجِّداً لسيف الدولة، وعاتباً عليه، وبين أعلاء ذاته ذاته مفتخراً بها أبعد درجات الفخر حتى طغت الصورة التي رسمها لنفسه على صورة سيف الدولة الذي

---

(١)الديوان، ص٨٤٦.

(٢)المصدر نفسه، ص٧٨٦.

(٣) نفسه، ص٧٩٩.

(٤) نفسه، ص٦٩٢.

رأى فيه فارساً.

أمـــا القصيدة الثانية وهي التي يسترضي فيها سيف الدولة بمقدمة حزينة يكثر فيها من ذكر الضمير العائد على الذات ومطلعها:

أَجابَ دَمعي وَما الداعي سِوى طَلَلِ دَعا فَلَبّاهُ قَبلَ الرَكبِ وَالإِبِلِ[1]

وهـــو بهذه المقدمة يتشوق الى سيف الدولة، ويرجو لقائه، و يكني عن هذا الشوق، أو عـــن هذا اللقاء، بالشوق إلى المحبوبة الممنعة التي لا يسهل الوصول إليها، لمنعة قومها. ثم بعد ذلـــك ينـــتقل إلى مدح سيف الدولة، وقد امتدت هذه القصيدة إلى ٤٨ بيتاً ذكر فيها الضمير ٣٧ مـــرة، ولكـــن هذا الضمير يحمل معاني الحزن، والحسرة نحو" أجاب دمعي/ أكفكفه/ أشكو/أنا الغريق/خوفاً/ . . . " .

ونجد أن معظم الضمير العائد على المتنبي في سيفياته، جاء من باب إظهار دالة المتنبي علـــى ســـيف الدولة، وأنه المحب له الوفي، وأن شعره لا يضاهيه شعر آخر، وإن مدحه لسيف الدولة مدح صادق لا تشوبه شائبة التملق،أو النفاق.

د.الضمير نحن بين الانتماء والاستعلاء:

ومن خلال دراستي الإحصائية وجدت أن المتنبي أكثر في سيفياته من استخدام الضمير الجمعـــي العائد على المتكلمين"نحن"، تكرَّر(١٧٣) مرةً وهي أعلى نسبة منها في جميع قصائده الأخرى.

ولكـــن استخدام هذا الضمير في هذه المرحلة ليس من باب الاستعلاء، أو تعظيم الذات، وإنما من باب الانتماء إلى المجموع، والذوبان فيه، فبعدما كان يرى نفسه متفرداً لأنه لم يجد من

---

(١)الديوان، ص٧٠١.

يوازي شخصه في هذا المجتمع، أصبح الأن منتمياً إلى البطولة فلجأ إلى ضمير المتكلم الجمعي " نحن " بصوره المختلفة فحدث الائتلاف بين (الأنا) و(الأخر) فتولدت (نحن) .

نادَيتُ مَجدَكَ في شِعري وقَد صدَرا يا غَيرَ مُنتَحِلٍ في غَيرِ مُنتَحِلِ[١]

إن مثل هذا التوحد بالآخر ولد ضمير " نحن " الانتمائية كما في قصيدته التي مطلعها:

تَزورُ دِياراً ما نُحِبُّ لَها مَغنى وَنَسأَلُ فيها غَيرَ ساكِنِها الإذنا[٢]

وعـــدد أبـــياتها (١٥) بيتاً قد ذكر فيها الضمير الجمعي (٢٨) مرة (نحب/ نسأل/ نقود/ نصفي/ نرضي/ أننا/ تركنا/عدنا/ أنا/ لبسنا/ حاجتنا/ قصدنا/ إلينا/قلنا/ هلمنا/ حشوناها/ علينا/ إلينا/ تعارفنا/ عنا/ بنا/ نباري/نحن/ نتبع/ فدعنا/نكن/ نأتلي) .

وهـــذه الكلمـــات في سياقها لا تدل على الاستعظام وإنما تدل على التوحد مع المجموع والانتماء .

وفي سيفيته التي مطلعها :

أَينَ أَزمَعتَ أَيُّهَذا الهُمامُ نَحنُ نَبتُ الرُبى وَأَنتَ الغَمامُ[٣]

نجد أن الشاعر يعلن نفسه ضمن المجموع الذي ينقاد تحت طاعة الأمير، فإذا بالضمير الجمعي " نحن " يقابله ضمير المخاطب " أنت " ببعده القيادي.

نحن نبت الربى	أنت الغمام
نحن	قربك
ليت أنَّا الخيل	إذا ارتحلْتَ

---

(١)الديوان، ص٧٠٣.

(٢)المصدر نفسه، ص٦٦٤.

(٣) نفسه، ص٥٦٥.

أنَّا الخيام إذا نزلْتَ

علينا تطلع البدور "الممدوح "

لنا عادة الصبر سوى نواك

لو انا نسام

الوحشة التي عندنا أزل

أرانا (هو) كرما

والضـــمير الجمعي للمتكلم في الكافوريات نجده منقطعاً عن الممدوح، يحملُ بُعْدَ تعظيم الذات وإعلاء شأنها، فقد وصل إلى ممدوحه فارساً محارباً:

وَجُرداً مَدَدنا بَينَ آذانِـــها القَنا فَـــــبِتنَ خِفافاً يَتَّبِعنَ العَواليا

نَجوزُ عَلَيها المُحسِنينَ إِلى الَّذي نَرى عِندَهُم إِحسانَهُ وَالأَيادِيا

فَتىً ما سَرَينا في ظُهورِ جُدودِنا إِلى عَصـــرِهِ إِلا نُرَجّي التَلاقِيا[1]

ونلاحــظ أن القطــيعة قد تتم بين الأنا والآخر بطريقة تشعرك أنها علاقة امتداد ولكنها تحتمل معنى الانقطاع:

وَأَنا مِنكَ لا يُهَنِّئُ عُضوٌ بِالمَسَرّاتِ سائِرَ الأَعضاءِ[2]

(أي أنا في حالتي منك لا يُهنئ عضو بالمسرات سائر الأعضاء) .

وإذا كانــت ســطوة سيف الدولة تمتد على المجموع (نحن) ويأتمرون بأمره، فهو الذي يقدم لهم الأمن فإن الحال عند كافور يختلف فإذا بالمجموع هو الفاعلَ المحركَ:

نَجُرُّ القَنا الخَطِّيَّ حَولَ قِبابِهِ وَتَردي بِنا قُبُّ الرِباطِ وَجُردُهُ

---

(١)الديوان، ص٨٨٦.

(٢)المصدر نفسه، ص٨٩٥.

وَنَمتَحِنُ النُشّابَ في كُلِّ وابِلٍ دَوِيُّ القِسِيِّ الفارِسِيَّةِ رَعدُهُ[١]

والعلاقــة بيــن المتنبي، والزمان ليست علاقة تراض ووفاق، وإنما هي علاقة تجاف وشــقاق، وتــأس وتعزية، في ظل كافور، وقد أشرك المجموع في هذه العلاقة وجعلها تشملهم جميعاً، المجموع الغائب " هم " والمجموع الحاضر " نحن " :

صَحِبَ الناسُ قَبلَنا ذا الزَمانــا وَعَناهُم مِن شــأنِهِ ما عَنانا

وَتَولَّــوا بِغُصَّةٍ كُلُّهُم مِنــــ ــهُ وَإِن ســرَّ بَعضهُم أَحيانا

رُبَّما تُحسِنُ الصَنيعَ لَيــاليــ ــهِ وَلَــكِن تُكَدِّرُ الإِحسانا

وَكَأَنّا لَم يَرضَ فينا بِرَيبِ الــ دَهــرِ حَتّى أَعانَهُ مَن أَعانا[٢]

ومــن الملاحظ أن "نحن" عندما نجدها في الكافوريات ببعدها الاستعلائي المفخم للذات نجدها في مجال ذكر القتال :

تَرَكنا لأَطرافِ القَنا كُلَّ شَهوَةٍ فَلَيــسَ لَنا إِلاّ بِهِنَّ لِعابُ

نُصَرِّفُهُ لِلطَعنِ فَوقَ حــَوادِرٍ قَدِ اِنقَصَفَت فيهِنَّ مِنهُ كِعابُ[٣]

وتأتــي المفارقة بين الضمير نحن، ببعدها الاستعلائي وضمير الغائب " هو "إمعاناً في احتقاره ومن خلال اسم الإشارة " ذا " تمكيساً له، فيقول في الأسود :

لَو كانَ ذا الآكِلُ أَزوادَنا ضَيفاً لأَوسَعناهُ إِحسانا

لَكِنَّنا في الــعَينِ أَضيافُهُ يوســعُنا زوراً وَبُهتانا

فَلَيتَهُ خَلّى لَنا سُبْــلَنا أَعانَــــهُ اللَهُ وَإِيّانا[٤]

---

(١)الديوان ، ص٩٠٩.

(٢)المصدر نفسه ، ص٩٤٩.

(٣) نفسه، ص٦٣.

(٤) نفسه، ص٩٧٥.

والمتنبـــي يشعرك كأن بداخله جيشاً من الرفض، والحقد، على هذا الأسود، فيعظم ذلك بداخله من خلال الضمير الجمعي:

إِذا سِرنا عَلى الفُسطاطِ يَوماً　　فَلَقــــِّني الفَوارِسَ وَالرِجالا

لِتَعلَمَ قَــدرَ مَن فارَقتَ مِنّي　　وَأَنَّكَ رُمتَ مِن ضَيمي مُحالا[1]

وإذا كان المتنبي قد أعلن عن مقصدية الضمير بعد خروجه عن الأسود، إلا أننا نلاحظ أن الضمير بقي عائماً وزئبقياً، عندما كان في فارس فلا تدري أهو يمدح أم يذم ؟ أهو يستنجد أم يعلـــن الحرب ؟ أهو في حالة من الرضا أم في حالة من السخط ؟ وقد ذكرت مثل هذا في غير مكان، ولا بأس من إعادة الشاهد :

أَرَجــانَ أَيَّـــتُها الجِيــادُ، فَإِنَّهُ　　عَزمي الَّذي يَذَرُ الوَشيجَ مُكَسَّرا

لَو كُنتُ أَفعَلُ ما اِشتَهَيتِ فِعــالَهُ　　ما شَقَّ كَوكَبُكِ العَجاجَ الأَكدَرا

أَفتى بِرُؤيَتِهِ الأَنامُ، وَحــاشَ لي　　مِن أَن أَكــونَ مُقَصِّراً أَو مُقصِرا

صُغتُ السِوارَ لِأَيِّ كَفٍّ بَــشَّرَت　　بِابنِ العَميـــدِ وَأَيِّ عَبدٍ كَبَّرا[2]

فالضـــمير هـــنا جاء عائماً ببعديه المتكلم والمخاطب، وجاء الكلام عائماً أيضاً ويحمل أوجهاً في التفسير :

يـــا لَيتَ باكِيَةً شَجــاني دَمعُهــا　　نَظَرَت إِلَيكَ كَما نَظَرتُ فَتَعذِرا

أَنا مِن جَميعِ الناسِ أَطيَبُ مَنزِلاً　　وَأَسَرُّ راحِلَةً وَأَربَــحُ مَتجَــرا[3]

والعلاقـــة التـــي كانـــت قائمـــة بين المتنبي، و أهل فارس علاقة خوف، و ترقب كان يستشعرها المتنبي، ورغم ما صُدِّرت به المقطوعة التي مطلعها (بكتب الأنام كتاب ورد) إلا

---

(١)الديوان، ص٩٧٦.

(٢)المصدر نفسه، ص١٠٣٤.

(٣) نفسه، ص١٠٣٥.

أن مــنطوق المقطوعــة يخــالف هذا التصدير[١] أشد المخالفة، و على ما يبدو من منطوق هذا الشعر فإنّ المتنبي أجبر إجباراً على زيارة عضد الدولة، وأن الأمر ليس بيده، و أكثر ما يتضح من كون الأمر خارجاً عن رغبة المتنبي، قوله في البيت الثالث من المقطوعة :

فَأَخــــــرَقَ رائيَهُ ما رَأى   وَأَبرَقَ ناقــــــدَهُ ما انتَقَد

إذا سَمِعَ الـــــناسُ أَلفاظَهُ   خَلَقنَ لَهُ في القُلوبِ الحَسَد

فَقُلتُ وَقَد فَرَسَ الناطِقينَ   كَذا يَفعَلُ الأَسَدُ ابنُ الأَسَد [٢]

يقــول الشارح : يقال خرق الظبي إذا فزع وتحير، وكذلك خرق الرجل، وأخرقه غيره وبــرق إذا تحــير، فشخص بصره وأبرقه غيره. يقول: الذي رأى هذا الكتاب حيره ما رآه من حسن الخط، والذي انتقد لفظه أبرقه ما انتقده من حسنه.

ثــم يقــول في شرح البيت الأخير جعل إحرازه خصل الفصاحة دون غيره من الناس كالفرس، أي أنه وصل من الاستيلاء عليهم إلى مثل ما يصل إليه الأسد إذا فرس فريسته، ولما وصــفه بالفرس جعله أسداً في باقي البيت؛ لأن الفَرْسَ من أفعال الأسد، ولو خرس المتنبي ولم يصف كتاب أبي الفتح بن العميد بما وصف لكان خير له[٣].

وعلــى ما أظنُّ فإن الشارح لم يأخذ بسياق الحال الذي كان عليه المتنبي، و هو أنه كان في موقف لا يحسد عليه، وأنه رسم لابن العميد بإحضار المتنبي إلى شيراز رغم أنفه[٤]،

---

(١)صُدِّرت هذه المقطوعة بقوله : وورد على أبي الطيب كتاب أبي الفتح بن العميد يذكر سروره وشوقه إليه .فقال المتنبي هذه المقطوعة ارتجالاً .

(٢)الديوان، ص١٠٤٥.

(٣)شرحه على الديوان، ص ١٠٥٢.

(٤)عصام السيوفي، مرجع سابق، ص ٥٧٧، وكيف دار الحال فنحن مطمئنون أن أبا الطيب قد جلب معتقلاً مخفوراً من أرجان.

فأفــزعه هذا الأمر وجعله في حيرة، وحاله كحال من وقع في براثن الأسد ولا يستطيع فكاكــا، وما كان أبلغ المتنبي وأصدقه في إيصال مثل هذه العلامة لنا لتدلنا على حاله في أرض فارس، ولو خرس عن ذلك كما أراد الشارح لضاع الكثير من معرفة أمره هناك، وخصوصاً أنّ الــروايات التــي كانت تدعمها السلطة، أو تخرج بأمرها في بيان حقيقة الحال التي كان عليها المتنبي في بلادهم، تجانب الصواب والحقيقة .

وإذا كــان ظاهــر الأمر أن المتنبي كان حراً طليقاً في بلاد فارس إلا إنه كان محدود الحــركة مقيدها، فجاء الضمير المتعلق بالذات وضمن سياق الحال، معبراً عما فيه من ألم وقيد يمنعه من الحركة والانطلاق فيقول في وداع ابن العميد :

وَلا لَيلَةً قَصَّرتُها بِقَــــصيرَةٍ   أَطالَت يَدي في جيدِها صُحبَةَ العِقدِ
وَمَن لي بِيَومٍ مِثلِ يَــومٍ كَرِهتُهُ   قَــرُبتُ بِهِ عِندَ الوَداعِ مِنَ البُعدِ
وَأَلاّ يَخُصُّ الفَقدُ شَيئــاً لِإِنَّنــي   فَقَدتُ فَلَم أَفقِد دُموعي وَلا وَجدي
تَمَـــنٍّ يَلَذُّ الــمُستَهامُ بِذِكـــرِه   وَإِن كانَ لا يُغني فَتيلاً وَلا يُجدي
وَغَيظٌ عَلى الأَيّامِ كَالنارِ في الحَشا   وَلَـــكِنَّهُ غَيظُ الأَسيرِ عَلى القِدِّ[١]

وهــذه المقدمة تنم عن ضيق وأسر وترقبٍ وخوفٍ مما ينتظره، أكثر من كونها مقدمة وداعية :

وَمَن يَصحَبِ اسمَ ابنِ العَميدِ مُحَمَّدٍ   يَسِر بَينَ أَنيابِ الأَساوِدِ وَالأُسدِ

وكأن المتنبي يعرف مدى الخطر الذي سيواجهه في مثل هذه الزيارة التي أجبر عليها

---

(١)الديوان، ص٥٥.

وعلـــى ما يبدو لي فإن أمر المتنبي قد انكشف لهم وأن وراء هذه الزيارة أمراً، فبدأوا يعاملونـــه معاملـــة من جنس معاملته وهي الدهاء والحنكة، ولما شعر المتنبي بمعرفتهم هذه لم يســـتطع أن يتراجع، وشعر أنه قد أطبق عليه. وكأنه في هذه القصيدة يرجو قوة تنجده وتخلصه مما هو سائر إليه :

إذا اِرتَقَبوا صُبحاً رَأَوا قَبلَ ضَوئه كَتائِبَ لا يَرِدِ الصَباحُ كَما تَردي [١]

وأستشعر من خلال الأبيات أن المتنبي يخاطب سيف الدولة، وأنه علم الأمر كما ينبغي علمه، وقد مضى القول فيها:

وَقَد كُنتُ أدركتُ المُنى غَيرَ أَنَّني يُعَيِّرُني أهلي بِإِدراكِها وَحدي

وأنه قد وفى بما وعد به، وإن كلفه الأمر حياته :

ولَو فارقَت نَفسي إِلَيكَ حَياتَها لَقُلتُ أَصابَت غَيرَ مَذمومَةِ العَهدِ[٢]

وخلاصة القول إن المتنبي كان ذاتي النزعة في شعره، ولا يصدر إلا عنها، دائم البحث عمـــا يعلي شأنها، ويصل بها إلى المجد الذي يؤمن به من خلال البطولة والتضحية، وأنه بقي وفـــياً للمـــبادئ التي آمن بها، وأنه قُتل دون هذه المبادئ، وبقي وفياً لصاحبه سيف الدولة حتى ســـقط شـــهيداً بدير العاقول، على يد الفرس بعد أن اكتشفوا أمره، ولكنهم عاملوه بدهاء وحنكة غابـــت عن ذهن كافور، وجعلوه يصدر عنهم ثم دبروا أمر قتله، واختلقوا حوله القصص التي أرادوا لها أن تنتشر وتشيع، وقد استشعر أبو الطيب عليه – رحمة الله – هذا الأمر فقال :

وَأَيّاً شِئتِ يا طُرُقي فَكوني أَذاةً أَو نَجاةً أَو هَلاكا[٣]

---

(١)الديوان، ص ١٠٥٦.

(٢)المصدر نفسه، ص١٠٥٦.

(٣)نفسه، ص١١٢١.

ولو تفحص طه حسين شعر المتنبي، واستبطن معانيه لوجد أنه بقي وفياً لفكره وعروبته التـــي آمن بها، وإقامة دولة الخلافة العربية حتى آخر لحظة من حياته، ولكنه أخذ بظاهر الأمر متحاملاً على المتنبي جاعلاً إياه مرتزقاً بشعره، ولا يؤمن بقيم .

بيـــنما يـــرى فيه حسين عطوان الشخص الوفي لمنهجه إذ يقول: " إن المتنبي لم يغير مـــنهجه أو يبدله، وإنما هو ثابت عليه، فليس في ثورته تغير ولا تبدل وإنما هو مؤمن بالعرب والعروبة، مستثير لهممهم، ساعياً إلى تخليصهم من الحكم الأجنبي الدخيل، داعٍ إلى النهوض بهم وتوحيد كلمتهم، وهو إيمان ظل مسيطراً على حياته، سوى ما نلاحظه من تستره حيناً، وجهره حيـــناً آخر، ومن هدوئه مرة، وحدته مرة أخرى، فقد كان أول عهده ثائراً ثورة عارمة، وكان صوته عالياً مدوياً كأنه الرعد القاصف، وما زال ينذر ويتوعد حتى زج به في السجن.(١) "

وقد بقي المتنبي على عهده هذا إلى يوم مقتله، مدافعاً عن بني جنسه، وحتى عندما كان سيف الدولة يوقع بهؤلاء كان يستعطفه بشأنهم كما مر بنا:

فــقَاتَلَ عَن حَرِيمِهِم وَفَرّوا   نَدى كَفَّيكَ وَالنَسَبُ القُرابُ

وَحِفظُكَ فيهِم سَلَفي مَعَدٍّ   وَأَنّـــهُمُ العَشائِرُ وَالصِحابُ(٢)

إن حـــب العـــرب والعروبة كان ديدنه ودينه على طول حياته وعرضها، وفي مختلف البلدان التي نزل بها أو رحل إليها، سواء في العراق أو في الشام أو في مصر وفارس، وأنه لم يكلــف نفسه ما تحتمل وما لا تحتمل في سبيل مجد شخصي، بل جشمها كل الأهوال والأخطار في سبيل أمته ورفع شأنها وردّ الحرية والسيادة والكرامة عليها (٣).

---

(١)حسين عطوان – مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، ط١، دار الجليل، بيروت – ١٩٨٢.

(٢)الديوان، ص٧٧٨.

(٣)حسين عطوان، مرجع سابق، ص٢٨٨.

وإذا كان المتنبي على هذه الحال فيجب إعادة النظر في كثير من شعره الذي قاله عقب مغادرتـــه ســـيف الدولة من خلال علاقة ضمير المتكلم بما يجاوره من كلام يكشف عن مذهب المتنبي في قناعاته التي ما بدلها، وسعى إلى تحقيقها من خلال سفارته من قبل سيف الدولة إلى كـــل من مصر وفارس وأسفرت عن مقتله، في النهاية. وأيضاً عند النظر في ضمير المخاطب، نجـــد أنّه لم يكن موجهاً إلى سيف الدولة الذي بقي مرتبطاً به، ولم يتخل أي منهما عن صاحبه، ودفن السر الذي اغترب المتنبي من أجله في صدره، ولم يحقق حلمه في إقامة المجد الذي سعى إلـــيه، وفـــي ظنّي أن إعادة النظر في ضمير المخاطب فيما بعد السيفيات، وتوجيهه إلى منحى آخـــر، يجلو الكثير من حقيقة أمر المتنبي، وأنه وإن كان ساعياً إلى طلب الإمارة كما في ظاهر شـــعره، إلا أنه ما كان ليرضاها في ظل عبد مثل كافور، أو في ظل الأعاجم، وإنما كان يتطلع إليها في ظل سيف الدولة بعد أن يستجلي له أخبار هاتين الدولتين، اللتين كانتا تسعيان لتحطيم إمارة الحمدانيين، فإن نجح في مسعاه نال شرف الإمارة تحت قيادة عربية يتزعمها سيف الدولة.

إِن لَم تُغِثني خَيلُهُ وَسِلاحُهُ فَمَتى أَقودُ إِلى الأَعادي عَسكَرا[1]

لقـــد كان المتنبي يشكل القصيدة من أعماق شعوره النفسي، فأضفى على اللغة علاقات جديـــدة تعكـــس هذا الشعور، هذه العلاقات جعلت النقاد ينظرون إليها من باب التعقيد والتكلف والتعســـف، غـــير ناظرين إلى علاقة الشاعر بالكون، وبالتالي باللغة التي يعبر بها عن الكون بجميع أبعاده .

و.علاقة ضمير الأنا مع الآخر:

الأمر الذي يسعى إليه المتنبي في عمله الإبداعي هو التفرد واستدعاء الذات من خلال

---

(١)الديوان، ص١٠٣٤.

المجمـــوع في علاقة ضدية، أو من خلال علاقة تكاملية أو توافقية، على أنه هو الذي يظهرها ببعديها السلبي أو الإيجابي، فإما أن يغترب عنها، وإما أن يغتربا معاً.

فقـــد تظهـــر " الأنا " بعمقها وامتدادها من خلال إبراز صورة الآخر السالبة من خلال حوارية يجريها مع نفسه:

تُنســـى الـــبِلادَ بُروقَ الجَرِّ بارِقَتي وَتَكتَـــفي بِالدَمِ الجاري عَنِ الدِيَمِ

رِدي حِياضَ الرَدى يا نَفسُ وَاتَّرِكي حِياضَ خَوفِ الرَدى لِلشاءِ وَالنِعَمِ[1]

وبما أن المجموع وأنا منهم مشتركون " بالموت " فيجب علي أن أتميز عنهم برفضي أن أموت كما الأغنام والأنعام، ولأحدد طريقة موتي كما أشاء بعزة وكبرياء :

إِن لَم أَذَركِ عَلى الأَرماحِ سائِلَةً فَلا دُعيتُ اِبنَ أُمِّ المَجدِ وَالكَرَمِ

هـــذا الضـــمير يشـــعرك بمدى التمزق الذي يعيشه الشاعر بين أن يكون في المجموع الخائف، أو أن يصبح مميزاً في موته.

هـــذه الذات؟ الأسطورة بعد أن تهيم في حلم يمتد عبر رغبات النفس، إذ بلغت بحجمها بعداً أسطوري القوة ، يفوق قوة البرق، ولا تقتنع بماء السماء، وإنما بدماء الأعداء، فسيفه برق، والأعداء ديم، ودماهم مطر جار، يرتد فجأة إلى ذاته وكأنها تريد أن تكذبه، فيزجرها بفعل أمر يصـــدر مـــنه لها لتفارق الخوف الذي حاولت أن تعلنه، وأمعن في تأنيب نفسه، فهو لن يتركها تجبن، وإن حاولت ذلك أو حاولت أن تصادر حلمه فسيوردها الموت قبل أن تفعل.

وبعد أن يجمح نفسه بهذه الحوارية ، يعاود إلى الامتداد بحلمه الأسطوري :

مَن لَو رَآنِيَ ماءٌ ماتَ مِن ظَمَأٍ وَلَو مَثَلتُ لَهُ في النَومِ لَم يَنَمِ

وهو بذلك يعلن عن ذاته من خلال علاقة ضدية ثلاثية الأبعاد، ذاته ببعديها: الحلم

---

(١)الديوان، ص١١١.

والواقع، والآخرين، ويستل ذاته من خلال الآخرين، ثم بعد ذلك يحاور ذاته حواراً ضدياً بين الحلم والواقع، ثم يعلن عن انتصار حلمه.

ومـــن العلاقات الضدية التي يعلن المتنبي عنها في تفرد ذاته عن المجموع تلك العلاقة القائمة على المشابهة : ما مُقامي بِأَرضِ نَخلَةَ إِلاّ   كَمُقامِ المَسيحِ بَينَ اليَهودِ

أَنا في أُمَّةٍ تَدارَكَها اللـ   ـهُ غَريبٌ كَصالِحٍ في ثَمودِ [١]

أو أن يبيـــن هـــذه المفارقة الضدية من خلال صفة حباه الله بها عن غيره ، هذه الصفة تجعل الناس فيه ضـــدين .

أَنا الَّذي بَيَّنَ الإِلَهُ بِهِ الـ   أَقدارَ وَالمَرءُ حَيثُما جَعَلَه

جَوهَرَةٌ يَفرَحُ الشِرافُ بِها   وَغُصَّةٌ لا تُسيغُها السَفِلَة[٢]

وقد يعلن عن هذه المفارقة الضدية من خلال الآخر إذ ينتصر له :

إِذا شاءَ أَن يَلهو بِلِحيَةِ أَحمَقٍ   أَراهُ غُباري ثُمَّ قالَ لَهُ الحَقِ[٣]

أو ينـــبه الآخـــر إلى الفرق بينه وبين من يدعون أنهم يشاركونه في صفة معينة، فهو الشـــاعر الذي يحمل الصفة الإيجابية، والآخر يحمل الصفة السلبية، وعلى الممدوح أن يميز في أي صف يكون:

لَم تَزَل تَـــسمَعُ المَديحَ ولَـكِن   صَهـــيلُ الجِـــــيادِ غَيرُ النُهاقِ [٤]

أَجِزني إِذا أُنشِـدتَ شِـعراً فَإِنَّما   بِـشِعري أَتـــاكَ المادِحـونَ مُرَدَّدا

وَدَع كُلَّ صَوتٍ غَيرَ صَوتي فَإِنَّني   أَنا الصـــائِحُ المَحكِيُّ وَالآخَرُ الصَدى[٥]

---

(١)الديوان، ص٨٢.

(٢)المصدر نفسه، ص٥٢٢.

(٣) نفسه، ص٧١٧.

(٤) نفسه، ص٥٠٣.

(٥)نفسه، ص٧٦٠. الهنديّ: المقصود به علم الحساب.

وَإذا أَتَتكَ مَذَمَّتـــي مِن ناقِـصٍ فَـهِيَ الـــــشَهادَةُ لي بِأَنِّيَ كامِلُ

مَن لي بِفَهمِ أُهَيلِ عَصـــرٍ يَدَّعي أَن يَحـسُبَ الـــهِندِيَّ فيهِم باقِلُ(١)

وهــو بهذه المفارقات يدعو إلى إلغاء الأضداد والإعلان عن ذاته، وهذا الإلغاء يتم من قــبل شــخص ثالث يجبره الشاعر إجباراً أن ينتمي إليه. أو أن يعلن عن ذاته من خلال الريادة حين يعجز الآخر عن الإتيان بجديد:

أَنا السابِقُ الهادي إِلى ما أَقولُهُ إِذِ القَولُ قَبلَ القائِلينَ مَقولُ(٢)

أو من خلال تحقير الخصم والإمعان في ذلك :

أَفي كُلِّ يَومٍ تَحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ(٣)

ومن المفارقات التي يرسمها لذاته: عمق معرفته بالناس، إذ لو اتيحت هذه المعرفة لغيره لما كان رحيماً بهؤلاء الناس، ولسفك دماءهم فهو يمتاز بالصبر :

وَمَن عَرَفَ الأَيّامَ مَعرِفَتي بِها وَبِالناسِ رَوّى رُمحَهُ غَيرَ راحِمِ(٤)

كمــا أنه يعطيك الصورة السلبية للنقيض ، ولكنه يكتفي بالإعلان عن ذاته الإيجابية من خلال الضمير الذي يخفيه مفرداً أو جمعاً :

وَإِنَّما نَحنُ في جــيلٍ ســـَواسِيَةٍ شَــرٍّ عَلى الحُرِّ مِن سُقمٍ عَلى بَدَنِ

حَولي بِكُلِّ مَكـــانٍ مِنهُمُ خِلَقٌ تُخطــي إِذا جِئتَ في اِستِفهامِها بِمَنِ

لا أَقــتَري بَلَداً إِلّا عَلى غَرَرٍ وَلا أَمــُرُّ بِخَلقٍ غَيرِ مُضطَغِــــنِ

وَلا أُعاشِرُ مِن أَملاكِهِم أَحَــداً إِلّا أَحَقَّ بِـــضَربِ الرَأسِ مِن وَثَنِ(٥)

---

(١)الديوان ، ص٣٩١.

(٢)المصدر نفسه ، ص٧٤٠.

(٣) نفسه، ص٧٧٠.

(٤)نفسه، ص٤٥٥.

(٥)نفسه، ص٣٧٥.

والمتنبـــي قــد يلجأ للإعلان عن ذاته من خلال علاقة إيجابية للممدوح كما هي إيجابية لذاته وسلبية للخصم، فالعلاقة تصبح ضدية مع الخصم وتكاملية مع الممدوح :

خَليلَيَّ إنّي لا أرى غيرَ شاعِرٍ   فلِمْ منهُمُ الدَعوى ومِنّي القَصائدُ

فَلا تَعجَبا إنَّ السُيوفَ كَثيرَةٌ   ولَـــكِنَّ سَيفَ الدَولَةِ اليَومَ واحِدُ [١]

تكامل
(الشاعر الأصيل (واحد) ⟵ تضاد ⟶ دعياء الشعر كثيرون
سيف الدولة (واحد) ⟵ تضاد ⟶ السيوف " كثيرة

ومـــن هــذه العلاقـــة التكاملية الاشتراك في صفة أصيلة، تمتد لتعلن عن ذاتها،فالمجد الحربي الأصيل يتكامل مع القول الشعري الأصيل :

نادَيتُ مَجدَكَ في شِعري وَقَد صَدَرا   يا غَيرَ مُـنتَحِلٍ في غَـيرِ مُنتَحِلِ

بِالـشَرقِ وَالـغَربِ أَقوامٌ نُحِبُّهُمُ   فَـــطالِعاهُم وَكونا أَبلَغَ الرُسُلِ [٢]

هــذه العلاقـــة التكاملية تضع الاثنين في مرتبة واحدة، تسمو إلى الأعلى بشكل هرمي ليلتقيا في القمة متحدين

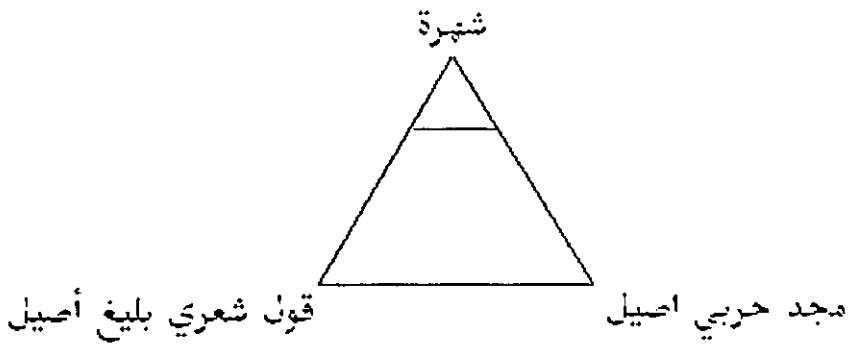

(١)الديوان، ص٦٦٧.

(٢)المصدر نفسه، ص٧٠٣.

إن هذه العلاقة التكاملية الاتحادية، بين الشاعر والممدوح، جعلت الشاعر في لقائه الأول يعلـــن عـــن غضبه، على أولئك الذين لا يجيدون الوصف، فانتزعه من بينهم، وأعطاه حقه في الوصف :

غَضِبتُ لَهُ لَمّا رَأَيتُ صِفاتِهِ بِلا واصِفٍ وَالشِعرُ تَهذي طَماطِمُه[١]

وقـــد يعلن عن ذاته من خلال علاقة متكافئة فيها صدق من كلا الطرفين، فالعقد الثمين يزداد جمالاً وثمناً إذا علق على جيد حسناء، وكذلك الحسناء :

وَجَدتُ عَلِيّاً وَابنَهُ خَيرَ قَومِهِ وَهُم خَيرُ قَومٍ وَاستَوى الحُرُّ وَالعَبدُ

وَأَصبَحَ شِعري مِنهُما في مَكانِهِ وَفي عُنُقِ الحَسناءِ يُستَحسَنُ العِقدُ[٢]

إن مثل هذه العلاقات التي تنشأ بين الشاعر والممدوح، تؤدي إلى علاقة اغتراب بينهما وبين المجموع الذي لا يستطيع أن يميز، أو ليس له قدرة على التمييز، فالزمن الذي يستوي فيه الحر والعبد لا بد أن يكون هناك من يميز بينهما .

وربمـــا يعلن عن ذاته غير المتملقة؛ لأن ممدوحه يستحق هذا القول لأنه أهل لذلك، أو كأنه يقرأ هذا الشعر في قسمات وجهه :

وَما أَنا وَحدي قُلتُ ذا الشِعرَ كُلَّهُ وَلَكِن لِشِعري فيكَ مِن نَفسِهِ شِعرُ

وَماذا الَّذي فيهِ مِنَ الحُسنِ رَونَقاً وَلَكِن بَدا في وَجهِهِ نَحوكَ البِشرُ[٣]

وقد تظهر الذات من خلال الصورة ببعديها الضدي والاتحادي معلنة عن صدق الانتماء للممدوح، والاغتراب عن الأدعياء، وداعياً الممدوح إلى أن يميز الغث من السمين :

---

(١)الديوان، ص٥٥٤.

(٢)المصدر نفسه، ص٤٤٩.

(٣)نفسه، ص٤١٦.

اخـــتزل علاقات الإيجاب في الشطر الثاني من خلال إقامة علاقة الرفض مع الضمير "أنا".

وكمـــا أن للمتنبـــي قدرة على أن يولد من التوافق تضاداً، فهو كذلك له القدرة على أن يوحـــد بين المتضادات، فهو يحطم المألوف، ويقيم علاقات إجبارية بين المتضادات المعلنة في النص :

أنا الَّذي نَظَرَ الأعمى إِلى أَدَبي   وَأَسمَعَت كَلِماتي مَن بِهِ صَمَمُ(١)

وقـــد يعلـــن عن هذا التضاد من خلال علاقة خفية إجبارية بينه وبين الأشياء لتميزه ، فالدهر الذي قد يكون له عدواً يصبح مردداً لما يقول :

وَما الدَهرُ إِلاّ مِن رُواةِ قَصائِدي   إِذا قُلتُ شِعراً أَصبَحَ الدَهرُ مُنشِداً(٢)

فالدهر الذي لا ينقاد لأحد ينقاد له .

وقد تنشأ عن هذه العلاقة الضدية علاقة تحدٍ:

أَبَداً أَقطَعُ البِلادَ وَنَجمي   في نُحوسٍ وَهِمَّتي في سُعودِ(٣)

ومـــثل هذه العلاقة الضدية تمتد بين التمني والرفض ، ومن خلال البعد الاستعلائي في حالـــة الرفض (للأنا) بينما الضد يتمنى أن يصل إلى الحالة التي يرفضها الشاعر فهو محسود على ما يجعله يبكي :

ماذا لَقيتُ مِنَ الدُنيا وَأَعجَبُهُ   أَنّي بِما أَنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ(٤)

---

(١)الديوان، ص٦٩٣.

(٢)المصدر نفسه، ص٧٦٠.

(٣)نفسه، ص٨٣.

(٤) نفسه، ص٩٧٧.

فالمرحلة التي وصل إليها مع الدهر، عدّها مرحلة سالبة؛ لأنها لم تحقق له ما يصبو إليه، بينما يراها الآخر مرحلة إيجابية لسقوط همته فيحسده عليها :

واقِفاً تَحتَ أَخمَصَيْ قَدرِ نَفسي واقِفاً تَحتَ أَخمَصَيَّ الأَنامُ[١]

أَينَ فَضلي إِذا قَنِعتُ مِنَ الدَهـ ـرِ بِعَيشٍ مُعَجَّلِ التَنكيدِ[٢]

وقد يختزل المتنبي ضمير الأنا، مذيباً إياه باسم يستغرقه ويستغرق جميع العقلاء، رغم إغراق هذا الاسم في الإبهام، " مَنْ" في علاقة ضدية مع الأشياء والقيم في بعد يحمل بداخله الحكمة التي يولدها الموقف، والتي تحث على رفض الموقف السلبي، والاتجاه إلى الموقف الإيجابي الذي يحدده من خلال رؤيته :

ذَلَّ مَن يَغبِطُ الذَليلَ بِعَيشٍ رُبَّ عَيشٍ أَخَفُّ مِنهُ الحِمامُ

مَن يَهُن يَسهُلِ الهَوانُ عَلَيهِ ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ[٣]

والمتنبي بإنشائه مثل هذه العلاقات الضدية، يسعى إلى تحريك الساكن، وقلقلة الكون من حوله، وإن كان هذا الضد غير معلن، فإن نقيضه المعلن يستدعيه ضمن صورة ذهنية :

عِش عَزيزاً أَو مُت وَأَنتَ كَريمٌ بَينَ طَعنِ القَنا وَخَفقِ البُنودِ

فَرُؤوسُ الرِماحِ أَذهَبُ لِلغَيـ ـظِ وَأَشفى لِغِلِّ صَدرِ الحَقودِ

لا كَما قَد حَيِتَ غَيرَ حَميدٍ وَإِذا مُتَّ مُتَّ غَيرَ فَقيدِ

---

(١)الديوان، ص٣٦٣.

(٢)المصدر نفسه، ص٨٣.

(٣)نفسه، ص٣٦٣.

فالمتنبـــي يقـــيم بشـــعره علاقـــات تمتد عبر الزمان، تعلن عن غربتنا ببعديها السلبي والإيجابـــي فـــتعري الضعف والخنوع والذل ليصبح غريباً عن معاني القيم الإيجابية المتمثلة بـــالمجد والتضحية والوفاء ولتصبح هذه بالتالي غريبة في عالم يسوده منطق الغاب الذي يخيف الأقزام فيعيشون حياة الهوان:

ذَلَّ مَن يَغبِطُ الذَليلَ بِعَيشٍ رُبَّ عَيشٍ أَخَفُّ مِنهُ الحِمامُ[١]

ورحم الله أبا الطيب فقد كان في شعره أمة، فما يحل بنا أمر إلا فزعنا إلى شعره لنجده يعبر به عن حالنا، يقول مصطفى الشكعة: " والأمر العجيب في شأن المتنبي أن المرء كلما قرأ شعره بعناية واستيناء خرج منه بشيء جديد، لم يكن قد التفت إليه من قبل، وتلك سمة لا تتوفر إلا عـــند قليل من الشعراء العرب، أولئك الذين تسنموا ذروة الشعر العربي، واستووا على قمته على مر العصور "[٢]

وأرجو من الله تعالى أن أكون قد قدمت في عملي المتواضع أمام عظمة الشاعر شيئاً ذا بـــال ، فقد كان المعري إذا ذكر الشعراء ذكرهم بأسمائهم وإذا ذكر المتنبي يقول: قال الشاعر، ولأن المتنبـــي يقوم بشعره على نظرية الاختلاف والتضاد فإنه يدخلك في حيرة في فهم شعره، فأنـــت تجـــد الشيء ونقيضه، ولك أن تختار الجانب الذي يوائم نفسك أو يوائم نظرتك للشخص وشعره.

بينما نظر هو لنفسه على أنه عظيم، وأنه فارس الكلمة التي تغزو الأعداء فتعود سالمة :

رَمَيتُ عِداهُ بِالقَوافي وَفَضلِهِ وَهُنَّ الغَوازي السالِماتُ القَواتِلُ[٣]

---

(١)الديوان، ص٣٦٣.

(٢)مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص١٥.

(٣)الديوان، ص٧٧١.

وترك للناس حرية الرأي في القول كل حسب طبعه فقال :

يا اِفخَرْ فَإنَّ الناسِ فيكَ ثَلاثَةٌ مُستَعظِمٌ أو حاسِدٌ أو جاهِلُ[١]

يقول ابن شرف القيرواني في كتابه أعلام الكلام : " وأما أبو الطيب المتنبي فقد شغلت بـــه الألســـن ، وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره، والآخذ لذكره، وقد طال فيه الخُلْـــف، وكثر عنه الكشف، وله شيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتغايا في جرحه، والذي أقول إن له حسنات وسيئات، وحسناته أكثر عدداً، وأقوى مدداً، وغرائبه طائرة، وأمثاله سائرة، وعمله فسيح، وميزه صحيح، يروم فيقدر ويدري[٢] ".

---

(١)الديوان، ص٣٩١.

(٢)ابن شرف القيرواني- أعلام الكلام، ص ٥١.

المصادر والمراجع

المصادر

- ابــن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بــن عــبد الواحد الشيباني (- ٦٣٠هــ)- الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.
- الأصــمعي، أبــو ســعيد عبد الملك بن قريب(١٢٢-٢١٦هــ)- الأصمعيات، ط٥، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.
- البديعــي، يوســف (١٠٧٣هـــ) -الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ط٣، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار المعارف، القاهرة، بلا.
- الــبغدادي، أحمد بن علي الخطيب (٣٩٣-٤٦٣) -تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا.
- الــبغدادي، عــبد القــادر بن عمر (١٠٣٠-١٠٩٣ هــ) -خزانة الأدب ولب لباب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، بلا.
- الثعالبــي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (-٤٢٩هــ)- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط١، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٣م.
- ابــن أبي جرادة، كمال الدين عمر- بغية الطلب في تاريخ حلب، ط١، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت،١٩٨٨م.
- الجرجانــي، علــي بــن عبد العزيز(-٣٩٢هــ)- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، دار القلم، بيروت، بلا.

- ابــن جنـــي، أبو الفتح عثمان- الفتح الوهبي على مشكلات شعر المتنبي، تحقيق محسن غياض، وزارة الإعلام ، بغداد، ١٩٧٣م.
- ابــن جني، أبو الفتح عثمان، الفسر، ط١، تحقيق : صفاء خلوصي ، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٧م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٦٧٣ -٧٤٨) -سيرة أعلام النبلاء، ط٩، تحقــيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣م.
- ابن رشيق القيرواني، الحسن (-٤٥٦هـ)-العمدة في صناعة الشعر وآدابه، ط ٥، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل ، بيروت، ١٩٨١م.
- ابــن سنان الخفاجي، عبد الله محمد (ت ٤٦٦ هـ)- سر الفصاحة، شرح وتعليق: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة وكطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، بلا.
- الشريف الرضي، محمد بن الحسين(٣٠٩ - ٤٠٦ هـ) - ديوان الشريف الرضي، ط١، شرح محمود مصطفى حلاوي، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩م.
- ابــن شــرف القيروانـــي، أبو عبد الله محمد بن سعيد (٣٩٠ - ٤٥٦هـ) - أعلام الكلام، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٣م.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (-٦١٦هـ) شرح الديوان، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار الفكر، بيروت، بلا.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (-٦١٦هـ)، إعراب لامية الشنفرى، ط١، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران.

- أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (٣٦٣-٤٤٩هـ)- رسالة الغفران، تحقيق فوزي عطوي، الشركة العربية اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٦٨م.
- ابن فورجة، محمد بن أحمد (٣٣٠-٤٥٥هـ) - الفتح على أبي الفتح، ط٢، تحقيق عبد الكريم الدجيلي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٧م.
- ابـــن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت٧٥١)- الغربة والاغتراب جزء من كتاب مدارج السالكين شرح منازل السائرين اقتطعه وحققه محمد منير الدمشقي، الطباعة المنيرية/ مصر.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٠٠-٧٧٤)- البداية والنهاية، ط١، دار التقوى، القاهرة،١٩٩٩م.
- الميدانـــي، أبـــو الفضل ،أحمد بن محمد بن إبراهيم (- ٥١٨هـــ)- مجمع الأمثال، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار النصر ، دمشق، بلا.
- الواحـــدي، علي بن أحمد (- ٤٨٦هـــ) - شرح ديوان أبو الطيب المتنبي، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، لبنان، بلا.

المراجع

- إبراهيم العريض - فن المتنبي بعد ألف عام، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٤م.
- إحسان عباس- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.
- أحمد أمين - فجر الإسلام ، ط١١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥م.

- – إيكن هنري – عصر الأيديولوجية، ترجمة فؤاد زكريا، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.
- جاسم محسن عبود– التطلع القومي عند المتنبي، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٧م.
- جوزف الهاشم– أبو الطيب المتنبي، دراسة ونصوص، ط٣، المكتب التجاري للطباعة والنشر و التوزيع، ١٩٦٦م.
- جون ماكوري– الوجودية، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، عدد ٥٨ الكويت، ١٩٨٢م.
- حسين عطوان – مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الثاني، ط١، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٢م.
- حسين الواد– المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،١٩٩١م.
- ريتشارد شاخت– الاغتراب، ط٢، ترجمة كامل يوسف حسين دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٥م.
- زهدي الخواجا– موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري، ط٢، منشورات دار صبري الرياض، ١٩٩٤م.
- سهيل عثمان ومنير كنعان – المحصول الفكري للمتنبي، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م.
- سيد علي – نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، بلا.

- صالح الزامل- تحول المثال، دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي، ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، ٢٠٠٣م.
- طه حسين – مع المتنبي، ط١٠، دار المعارف، مصر، بلا.
- عباس العقاد- مطالعات في الأدب و الحياة، منشورات الكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بلا.
- عبد الحميد الشيخ حسن المضري- ألف كلمة في الحكم والمواعظ لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه، ط١، المكتبة العالمية بغداد،١٩٨٧م.
- عبد الرحمن البرقوقي- شرح ديوان المتنبي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- عبد الرحمن بن حسام الدين زادة الرومي- رسالة في قلب كافوريات المتنبي من المديح إلى الهجاء، تحقيق محمد يوسف نجم، دار الأمانة، بيروت، ١٩٧٣م.
- عبد العزيز دسوقي – في عالم المتنبي الشعري، ط٢، دار الشروق، ١٩٨٨م.
- عبد الغني الملاح – المتنبي يسترد أباه، ط٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م.
- عبد الفتاح نافع- لغة الحب في شعر المتنبي، دار الفكر، عمان، ١٩٨٣م.
- عبد اللطيف شرارة- أبو الطيب المتنبي دراسة ومختارات، الشركة العالمية للكتاب بيروت،١٩٨٨م.
- عبد المجيد ذياب – خلاصة المتنبي، ط ١، دار سعاد الصباح، الكويت،١٩٩٢م.
- عبده بدوي – قضايا حول الشعر، ذات السلاسل، الكويت،١٩٨٦م.

- عدنان عبيدات، الاتجاهات النقدية عند شراح ديوان المتنبي القدماء، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٢م.
- عصام السيوفي – العوامل السياسية في شعر أبي الطيب المتنبي، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.
- علي شلق – المتنبي شاعر ألفاظه تتوهج فرساناً تأسر الزمان، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.
- محمد شرارة – المتنبي بين البطولة والاغتراب، جمع وتحقيق حياة شرارة المؤسسة العربية للدراسات، بيروت،١٩٨١م.
- محمد فتوح – شعر المتنبي، ط٢، قراءة أخرى، دار المعارف، ١٩٨٨م.
- محمد مندور– النقد المنهجي عند العرب، دار النهضة، مصر، القاهرة، بلا .
- محمود شاكر (المتنبي)– مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٧م.
- مصطفى الشكعة، أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١م.
- مصطفى الشكعة– سيف الدولة الحمداني، مملكة السيف ودولة الأقلام، ط٣، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠م.
- مصطفى ناصف – دراسة الأدب العربي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١م.
- ناجي علوش – أبو الطيب المتنبي دراسة في هويته وشعره والمختارات، ط١، الرواد للنشر والتوزيع، بيروت، ، ١٩٩٣م.
- نازك الملائكة– قضايا الشعر المعاصر، ط١١، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٠م.
- نبيل راغب– التفسير العلمي للأدب، ط١، دار نوبار، القاهرة، ١٩٩٧م.

- نورة الشملان- المتنبي الإنسان والشاعر، دار مصر للطباعة ، ١٩٩٢م.
- هادي الخفاجي- سنوات ضائعة من حياة المتنبي، شركة المطبوعات، بيروت، ١٩٩٥م.

رسائل جامعية

- وحيدة حسين الركابي- دراسة ارتباطية بين الإبداع وبعض الخصائص النفسية للشعراء رسالة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، بغداد، ٢٠٠١م.

كتاب لمجموعة مؤلفين- أبو الطيب المتنبي، حياته وشعره، المكتبة الحديثة، بيروت، بلا.

- أحمد أمين، مقالة: هل كان المتنبي فيلسوفاً .
- خليل مطران، مقالة " أبو الطيب المتنبي كان عبقرياً ولكن "
- سامي الكيالي، لمحة من المنازع القومية في شعر المتنبي.
- عبد الرحمن صدقي، مقالة :جنون العظمة مرض نفسي.

Abstract

Alienation in Al Mutanabbi Poetry

Prepared by:

Belal Mahmoud Yacoub Saleh

Supervised by:

Dr. Mohammad Ibrahim Hiwwar

This study examined the alienation in the poetry of Al Mutanabbi, aiming at underlining the effect of this alienation on the psychology of the poet in the process of building his poem. The study made distinction between the strangeness of the (place) and the (psychological) alienation, and it harmonized the alienation concept with the philosophers, psychiatrists and sociologists as a tool for constructing this study. The study was made into three chapters titled as follows: chapter one "Agonies Al-Mutanabbi Experienced", chapter two: "Self-Inflation in the Critical Scale and Its Reflections on the Critical Movement', and chapter three "The Utilization of the Pronoun and Masking Behind It Through the Openness of Its Function".

Throughout this study, I found that alienation in al Mutanabbi poetry carries an intellectual dimension; that the place does not matter with him as much as the realization of the idea; that the mishaps he experiences did not impede his fortitude and determination. He remained looking himself high, and did not issue anything other than his own self. He refused to stand the position of the commending poet. Rather his own image was spread over the whole poem, leaving the commended person back. He also remained belonging to his similar, Saif Al Dawla despite the disagreement with him and leaving him for another country. Therefore, the pronoun with him came as cloudy in all the Kaforiat and Farisiat poetry, which created a problematic state in the interpretation of his poetry at that stage. The percentage of the pronoun in his Diwan (poetry volume) 60%, the least was (40%) in Al Saifiat, and the highest was (80%) in Al Kaforiat, as compared with the number of the verses of the two stages, but with difference in the functions of each stage. The first carried the meanings of love and belonging, meanwhile the second carried the meaning of sorrow, anger and revolt. The pronoun (We) amounted for 182 times in Al Saifiat, forming the meanings of belonging and melting in the totality. On the other hand, the pronoun less amounted in Al Kaforiat, (61) times only, bearing the functions in implications of looking high of the self, and contradiction. At Al Farisiat stage, the pronoun came in its two dimensions, the singular and plural, to carry the

functions of despair, helplessness and acceptance of the facts on the grounds.

The study concluded to some recommendations: First, the study of the pronoun in Al Mutanabbi poetry, through the openness of its functions and implications, leads to revealing many suspending cases about the personality of Al- Mutanabbi and his poetry. Second, the study of metaphor in his poetry and the use of the commend style which could be inverted into saturnine one.